http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هُمُ الْيَهُودُ ؛ كَانُواْ يَسْتَبْدِلُونَ الضَّلاَلَةَ بأَخْذِ الرِّشَا بكِتْمَانِ صِفَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، يَأْخُذُونَ الرَّشْوَةَ عَلَى كِتْمَانِهِمْ بَعْدَمَا أُوتُوا الْعِلْمَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ } ؛ أي يريدون أن تَضِلُّوا أنتُمْ طريقَ الْهُدَى كما ضَلُّوا هُمْ بأنفسِهم.

(٠/٠)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ } ؛ أي هو أعلمُ بهم ، يعلمُهم ما هم عليه ، { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً } ؛ أي أنَّ عداوةَ اليهودِ لا تَضُرُّ المسلمين إذ ضَمِنَ لَهم النصرَ والولايةَ ؛ أي اكتفُوا بولايةِ الله ونصرتِه. وقرأ الحسنُ : (أنْ تَضَلُّوا السَّبِيْلَ) بفتحِ الضَّاد ؛ أي عن السَّبيلِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : (وَاللهُ أعْلَمُ بأَعْدَائِكُمْ) أي أعلمُ بهم منكم فلا تَسْتَنْصِحُوهُمْ ، ويجوزُ أن يكون أعْلَمُ بمعنى عَلِمَ.

(٠/٠)

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } ؛ إن شِئْتَ جعلتَهُ متَّصلاً بقولهِ{ الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ }[آل عمران : ٢٣] { مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ } ، وإن شئتَ جعلتَها منقطعةً مستأنفة. قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا يَأْتُونَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَيَسْأَلُونَهُ عَنِ

الأَمْرِ فَيُخْبِرُهُمْ ، وَيُرَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ بِهِ فَإِذا انْصَرَفُوا حَرَّفُواْ كَلاَمَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَيَقُولُونَ لَهُ : سَمِعْنَا قَوْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : وَعَصَيْنَا أمْرَكَ). وقال بعضُهم (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) راجعٌ إلى قولِهِ{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ }[النساء : ٤٥] على جهةِ التبيين للأعداءِ كما يقالُ : هذا الثوبُ من القُطْنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا } ؛ معناهُ : أنَّهم كانوا إذا كَلَّمُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بشيءٍ قالوا : اسْمَعْ ؛ وقالوا في أنفُسِهم : لا أسْمعْتَ ولا سَمعتَ. وقيل : معناهُ : غَيْرُ مُجَابٍ لَهُ بشيءٍ مما يدعُو إليهِ ، وكانوا يقولون : رَاعِنَا ؛ يوهِمُونَ أنَّهم يريدون بهذا القولِ : انْظُرْنَا حتَّى نُكَلِّمْكَ بما نريدُ ، وكانوا يريدونَ بذلك السَّبَّ بالرُّعُونَةِ بلُغَتِهم. ويقالُ : كانوا يقولونَ هذه الكلمةَ على وجهِ التَّجَبُّرِ والتَّكَبُّرِ ، كما يقولُ المتكبرُ لغيرِهِ : افْهَمْ كَلاَمِي وَاسْمَعْ قَوْلِي ، وكانوا يقولونَ : أرْعِنَا سَمْعَكَ وَتَأَمَّلْ كلامَنا ومثل هذا مِمَّا لا يخاطَبُ به الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، إنَّما يخاطبون بالإجْلاَلِ والإعْظَامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ } ؛ أي كانوا يَلْوُونَ ألْسِنَتَهُمْ بالسَّب والتَّعييرِ والطَّعْنِ في الدِّين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا } ؛ معناهُ : لو قالوا سَمِعْنَا قولَكَ وأطَعْنَا أمرَكَ مكان قولِهم سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وقالُوا : وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا نَسْمَعْ قَوْلَكَ وَنَفْهَمْ كلامَك مكان قولِهم : وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، { لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ } ؛ وأصوبُ ، { وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ } ؛ أي خذلَهم وأبعدَهم من رحمتِهِ مجازاةً بكفرِهم. { فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ فلا يؤمنون إيْماناً إلاَّ قليلاً ، وقِيْلَ : معناهُ : لا يؤمنونَ إلاَّ قليلاً منهُم وهم : عبدُالله بْنُ سلاَمٍ ومن تابَعَهُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ } ؛ أي يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ أعْطُواْ عِلْمَ التَّوْراةِ ، صدِّقوا بهذا القُرْآن الذي نَزَّلْنَا على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مُوافِقاً لِمَا معكُم من التوراةِ ، { مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً } ؛ أي مِن قَبْلِ أن نَمْحُوَ آثاراً لوجوهٍ منها : فَنَخْسِفُ بالعينِ والأنفِ وغيرَ ذلك من آثار الوجُوهِ فنحوِّلُها إلى الأَقْفِيَةِ فتمشونَ الْقَهْقَرَى.

روي : أنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَدِمَ عَبْدُاللهِ بنُ سَلاَمٍ مِنَ الشَّامِ ؛ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَأتِيَ أهْلَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا كُنْتُ أرَى أنْ أصِلَ إلَيْكَ حَتَّى تُحَوِّلَ وَجْهِي فِي قِفَاءٍ.

ويقال معنى : { فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَآ } ؛ نجعلُ وجوهَهم على هَيْأَةِ أقْفَائِهِمْ ، ومعنى : { أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا

لَعَنَّآ أَصْحَابَ السَّبْتِ } ؛ أو نجعلهم قِرَدَةً كما مَسَخْنَا أصحابَ السبتِ ، { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } ؛ قضاؤُه كائناً لا شكَّ فيهِ ، فإن قيلَ : كَيْفَ قالَ اللهُ تعالى آمِنُوا { مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً } وَأَوْعَدَهُمْ بطمسِ الوُجوهِ إن لَم يؤمِنُوا ، ثُمَّ لم يؤمِنوا ، ولم يقع الطَّمْسُ ؟ قيلَ : يحتملُ أن يكون هذا وَعِيْداً لَهم على تركِ جَمِيعهم الإسلامَ ، وقد آمَنَ منهم جماعةٌ بعدَ هذه الآية كعبدِالله بنِ سلام وعبدِالله بن ثعلبةَ وأسَيْدَ بن ثعلبة وأسَيْدَ بن عبيدٍ وغيرهم ، ويحتملُ أن يكون المرادُ بالآية : الطَّمْسُ في الآخرةِ ، وسيفعلُ اللهُ ذلك بهم.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ } ؛ قال الكلبيُّ : " نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِيْنَ ؛ فِي شَأْنِ وَحْشِيٍّ وَابْنِ حَرْبٍ وَأصْحَابِهِ ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ لِوَحْشِيٍّ إنْ قَتَلَ حَمْزَةَ أنْ يُعْتِقَهُ مَوْلاَهُ ، فَلَمْ يُوَفِّ لَهُ بذلِكَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ نَدِمَ هُوَ وَأصْحَابُهُ عَلَى مَا فَعَلُواْ مِنْ قَتْلِ حَمْزَةَ ؛ فَكَتَبُواْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا صَنَعْنَا ، وَأنَّهُ لَيْسَ يَمْنَعُنَا عَنِ الإسْلاَمِ إلاَّ أنَّا سَمِعْنَاكَ تَقُولُ إذْ كُنْتَ عِنْدَنَا بمَكَّةَ { وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً } وَقَدْ دَعَوْنَا مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ وَزَنَيْنَا ، وَلَوْلاَ هَذِهِ الآيَةُ لاتَّبَعْنَاكَ ، فَنَزَلَ { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً } الآيةُ ، فَبَعَثَ بهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى وَحْشِيٍّ وَأصْحَابِهِ ، فَلَمَّا قَرَأوهَا كَتَبُوا إلَيْهِ : إنَّ هَذا شَرْطٌ شَدِيدٌ نَخَافُ أنْ لاَ نَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحاً فَلاَ نَكُونَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ } فَبَعَثَ بهَا إلَيْهِمْ فَقَالُواْ : نَخَافُ أنْ لاَ نَكُونَ مِنْ أهْلِ الْمَشِيْئَةِ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ ياعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } فَبَعَثَ بهَا إلَيْهِمْ فَوَجَدُوهَا أوْسَعَ مِمَّا كَانَ قَبْلَهَا ، فَدَخَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فِي الإسْلاَمِ وَرَجَعُواْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَبلَ مِنْهُمْ ثُمَّ قالَ صلى الله عليه وسلم لِوَحْشِي : " أخْبِرْنِي كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ ؟ " فَلَمَّا أخْبَرَهُ ، قَالَ لَهُ : " وَيْحَكَ! غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي " فَلَحِقَ وَحْشِيٌّ بالشَّامِ فَكَانَ فِيْهَا إلَى أنْ مَاتَ. قَالُواْ : مَاتَ وَفِي بَطْنِهِ الْخَمْرُ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً } ؛ أي ومَن يُشْرِكْ باللهِ سِوَاهُ فقدِ اختلَقَ على اللهِ ذنباً عظيماً غيرَ مغفورٍ له.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي بَحْرَى بْنِ عَمْرٍو وَمَرْحَبَ بْنِ زَيْدٍ ؛ أتَيَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ بأطْفَالِهِمْ ؛ فَقَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ ؛ هَلْ عَلَى أوْلاَدِنَا هَؤُلاَءِ مِنْ ذنْبٍ ؟ قَالَ : " لاَ " فَقَالُوا : وَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ ؛ مَا نَحْنُ إلاَّ كَهَيْئَتِهِمْ مَا مِنْ ذنْبٍ نَعْمَلُهُ بالنَّهَارِ إلاَّ كُفِّرَ عَنَّا باللَّيْلِ ، وَمَا مِنْ ذنْبٍ نعمله باللَّيْلِ إلاَّ كُفِّرَ عَنَّا بالنَّهَار. فَهَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ يُزَكُّونَ أنْفُسَهُمْ ، بَرَّؤُهَا مِنَ الذُّنُوب ، وَزَعَمُواْ أنَّهُمْ أزْكِيَاءُ " يقولُ الله تعالى : { بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ } أي يُطَهِّرُ من الذنوب مَن يشاءُ مَن كان أهْلاً لذلكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } ؛ أي لا يُنْقَصُونَ من جزاءِ ما يستحقُّونه قدرَ الْفَتِيْلِ وهو مَا تفتلُهُ بينَ إصبعَيْكَ من الوَسَخِ إذا مَسَحْتَ إحداهُما بالأخرى ، وَقِيْلَ : الْفَتِيْلُ : ما في بَطْنِ النَّوَاةِ في شقِّها من لِحَائِهَا.

(٠/٠)

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ } ؛ أي انْظُرْ يا مُحَمَّدُ كيفَ يَخْتَلِقُ اليهودُ الكذبَ على اللهِ ، { وَكَفَى بِهِ } ؛ بما يفعلونه ، { إِثْماً مُّبِيناً } ، ذنباً بَيِّناً.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } ؛ قرأ السلمي : (أَلَمْ تَرْ) ساكنةَ الراء في كلِّ القرآن كما قالَ الشاعرُ : مَن يَهْدِهِ اللهُ يَهْتَدِ لاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ أضَلَّ فَمَا

يَهْدِيهِ مِنْ هَادِيقال ابنُ عبَّاس : (رَكِبَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ فِي تِسْعِيْنَ رَاكِباً مِنَ الْيَهُودِ ؛ فِيْهِمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَجَدْيُ بْنُ أَخْطَبَ وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ وغَيْرُهُمْ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيُحَالِفُوهُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَيَنْقُضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ قَبْلَ أَجَلِهِ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَاب ؛ أَنْشِدُكُمْ باللهِ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لِلْهُدَى ؛ نَحْنُ أَمْ مُحَمَّدٌ وَأَصحَابُهُ ، فَإِنَّا نُعَمِّرُ مَسْجِدَ اللهِ ، ونَسْقِي الْحَجِيْجَ ، وَنَحْجُبُ الْكَعْبَةَ ، وَنَصِلُ الرَّحِمَ ، وَمُحَمَّدٌ قَطَعَ أَرْحَامَنَا وَاتَّبَعَهُ شِرَارُ الْحَجِيْجِ بَنُو غِفَارٍ ، فَنَحْنُ أَهْدَى أَمْ هُمْ ؟ فَقَالَتِ الْيَهُودُ : أَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُمْ. فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناه : ألم يَنْتَهِ علمُكَ يا مُحَمَّدُ إلى{ الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ }[آل عمران : ٢٣] أي علماً بالتَّوراةِ وما فيها من نَعْتِ مُحَمَّدٍ وصفتِه يصدِّقون بالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ. قال ابنُ عبَّاس : (الْجِبْتُ : حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ ، وَالطَّاغُوتُ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ). وقيل الجِبْتُ : الكَهَنَةُ ، والطَّاغُوتُ : الشَّيَاطِيْنُ. وَقِيْلَ : الْجِبْتُ والطاغُوتُ : صَنَمَانِ كان المشركونَ يعبدونَهما من دون اللهِ. وقيل الْجِبْتُ : الصنمُ ، والطَّاغُوتُ : مترجمة الصنمِ على لسانه.

وقال أهلُ اللغة : كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ تَعَالَى مِنْ حَجَرٍ أو مَدَر أو صُورَةٍ فهو جِبْتٌ وَطَاغُوتٌ ، دليلهُ قال تعالى : { أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الْطَّاغُوتَ }[النحل : ٣٦] وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا }[الزمر : ١٧]. وقال مجاهدُ : (الْجِبْتُ : السِّحْرُ ، وَالطَّاغُوتُ : الشَّيْطَانُ). يدلُ عليه قولهُ : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ }[البقرة : ٢٥٧]{ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ }[النساء : ٧٦].

وقال بعضُ المفسِّرين : لَمَّا خَرَجَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ هُوَ وَمنْ مَعَهُ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ أحُدٍ لِيُحَالِفُوا قُرَيْشاً عَلَى عَدَاوَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ نَزَلَ كَعْبُ عَلَى أبي سُفْيَانَ فَأَحْسَنَ مَثْوَاهُ ، وَنَزَلَ الْيَهُودُ فِي دُورِ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ أَهْلُ مَكَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَمُحَمَّدٌ صَاحِبُ كِتَابٍ ، وَلاَ نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ هَذا مَكْرٌ مِنْكُمْ ، فَإِنْ أَرَدْتَ يَا كَعْبُ أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ فَاسْجُدْ لِهَذَيْنِ الصَّنَمَيْنِ وآمِنْ بِهِمَا ؛ فَفَعَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ }[النساء : ٥١].

قَالَ كَعْبُ لأَهْلِ مَكَّةَ : يَجِيْءُ مِنْكُمْ ثَلاَثُونَ ؛ وَمِنَّا ثَلاَثُونَ ؛ فَنَلْزِقُ أَكْبَادَنَا بالْكَعْبَةِ فَنُعَاهِدُ رَبَّ الْبَيْتِ لَنُجْهِدَنَّ عَلَى قِتَالِ مُحَمَّدٍ ، فَفَعَلُواْ ذلِكَ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا كَعْبُ ؛ إِنَّكَ امْرُؤٌ تَقْرَأُ الْكِتَابَ وَنَحْنُ أُمِّيُّونَ لاَ نَعْلَمُ ، فَمَنْ أَهْدَى سَبِيلاً ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ نَحْنُ أَمْ مُحَمَّدٌ ، فَقَالَ كَعْبٌ : وَاللهِ أَنْتُمْ أَهْدَى سَبِيْلاً مِنَ الَّذِي عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ }[آل عمران : ٢٣]. يَعْنِي كَعْباً وأصحابَهُ يؤمنونَ بالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ يعني الصَّنمين ، { وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي لأبي سُفيانَ وأصحابَه : { هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً }.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ } ؛ أي أبْعَدَهُمْ من رحمتهِ ، ومن يُبْعِدْهُ اللهُ من رحمتهِ ، { فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً }.

(٠/٠)

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)

قال تعالى : { أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً } ؛ أي ألَهم نصيبٌ ، والميمُ زائدةٌ ، وهذا على وجه الإنكارِ ؛ أي ليس لَهم من الْمُلْكِ شيءٌ ، { فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً } يعني مُحَمَّداً وأصحابَه لا يعطونَهم شيءٌ من حَسَدِهِمْ وبُخْلِهِمْ وَبُغْضِهِمْ ، ورُفِعَ قوله : (يُؤْتُونَ) لاعتراضِ (لا) بينهُ وبين (إذاً). وفي قراءةِ عبدِاللهِ : (فَإِذاً لاَ يُؤْتُوا) بالنصب ، ولم يعمل بـ (لا). وقال بعضُهم : معناهُ : أنَّ اليهودَ لو كان لَهم نصيبٌ مِن الْمُلْكِ ما أعطوا الناسَ مقدارَ النَّقِيْرِ ؛ وهو النقطةُ التي تكون في ظَهْرِ النَّواةِ.

(٠/٠)

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي بَلْ يحسدون مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم على ما أعطاهُ الله تعالى من النبوَّة. وَقِيْلَ : على ما أحَلَّ اللهُ له من النساءِ ، وقالوا : لو كان نَبيّاً لشغلتْهُ النبوَّةُ عن النساءِ. وقال قتادةُ : (أرَادَ بالنَّاسِ الْعَرَبَ ، حَسَدُوهُمْ عَلَى النُّبُوَّةِ أكْرَمَهُمْ اللهُ بهَا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) ، وقال عَلِيٌّ رضي الله عنه : (أرَادَ بالنَّاسِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ؛ أي لَمَّا قالتِ اليهودُ : لو كان مُحَمَّدٌ نَبيّاً ما

رَغِبَ في كثرةِ النِّساءِ ؛ حسدوهُ على كَثْرَةِ نسائهِ وعابُوهُ بذلك فأكذبَهم اللهُ بقوله { قَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } أرادَ بالحكمةِ النبوَّة ، { وَآتَيْنَاهُمْ مُّلْكاً عَظِيماً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : " هُوَ مُلْكُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ، وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ سَبْعُمَائَةِ مَهْرِيَّةٍ – أيْ مَمْهُورَةٍ – وَثَلاَثُمِائَةِ سَرِيَّةٍ ولداؤد مِائَةُ امْرَأةٍ ، فَأَقَرَّتِ الْيَهُودُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بذلِكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : " أَلْفُ امْرَأةٍ عِنْدَ رَجُلٍ وَمِائَةُ امْرَأةٍ عِنْدَ رَجُلٍ أَكْثَرُ أمْ تِسْعُ نِسْوَةٍ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ " فَسَكَتُواْ ".

(٠/٠)

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ } ؛ معناهُ : مِنَ اليهودِ مَن آمَنَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : عبدُاللهِ بنُ سَلاَمٍ وأصحابُه ؛ ومنهم من أعرضَ عن الإيْمانِ به. وَقِيْلَ : معناهُ : مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بهذا الْخَبَرِ عن داودَ وسليمانَ ، ومنهم من كَذبَ به ، { وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً } ؛ أي وَقُوداً لِمَنْ كفرَ بهِ ؛ أي إنْ صَرَفَ اللهِ عن اليهودِ بعضَ العذاب في الدُّنيا مثل الطَّمْسِ وغيرِه ، فقد أبدَلَهم عذابَ جهنَّمَ في الآخرةِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً } ؛ أي إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ سَوفَ نُدْخِلُهُمْ نَاراً. وقرأ حُميد بن قيسٍ : (نَصْلِيهِمْ) بفتحِ النون ؛ أي نَشْوِيْهِمْ مِن قولِهم : شاةٌ مَصْلِيَّةٌ ؛ أي مَشْوِيَّةٌ ، ونُصبتِ النارُ بنَزعِ الخافض على هذه القراءةِ ؛ تقديرهُ : بنَار.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا } ؛ أي كُلَّمَا أحْرِقَتْ جلودُهم جَدَّدْنَا لَهم جلوداً غيرَها بيضاءَ كالقراطيسِ ، وذلك أنَّهم كلَّما احْتَرَقُوا حَسَّت عليهم النارُ ساعةً ثم تَزَايَدَتْ سعيراً وَبَدَأوا خَلْقاً جديداً فيهم الرُّوحُ ثم عادَتْ النَّارُ تُحْرِقُهُمْ ؛ فهذا دَأبُهُمْ أبداً. قال الحسنُ : (تَنْضَجُ جُلُودُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ ألْفَ مَرَّةٍ ، كُلَّمَا أكَلَتْهُمُ النَّارُ وَأنْضَجَتْهُمْ ؛ قِيْلَ لَهُمْ : عُودُوا ؛ فَيَعُودُونَ كَمَا

كَانُوا). وعن مجاهدٍ قَالَ : (مَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَلَحْمِهِ دُودٌ لَهَا حَلْبَةٌ كَحَلْبَةِ حُمُرِ الوَحْشِ). وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " غِلَظُ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعاً ، وَضِرْسُهُ مِثْلُ أحُدٍ " قيل : كيفَ جاز أن يعذِّبَ اللهُ جِلْداً لَم يَعْصِهِ ؟ قيل : إنَّ العاصِي والمتألِّمُ واحدٌ وهو الإنسانُ لا الجلدُ ؛ لأن الجلودَ إنَّما تَأْلَمُ بالأرواحِ ، والدليلُ على أنَّ القصدَ تعذيبُ الإنسانِ لا تعذيبُ الجلودِ قولهُ تعالى : { لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ } ؛ ولَم يقل ليذوقَ العذابَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : تبدل جلودٌ هي تلك الجلودُ المتحرقة ، وذلك أنَّ (غيرَ) على ضربين : بتضَادٍّ و (غير) بلا تضادٍّ ، فالتضادُّ مثلُ قولِكَ : الليلُ غيرُ النَّهار ، والذكرُ غير الأنثى ، والثاني مثل قولِكَ لصائغٍ : صُغْ لي من هذا الخاتمِ خاتماً غيرَهُ ، فيكسره ويصوغُ لكَ خاتماً ، والخاتَمُ المصوغُ هو الأوَّلُ ، إلاّ أن الصياغةَ قد تغيَّرت ، والقصةُ واحدةٌ.

وقالت الحكماءُ : كما أنَّ الجلد بَلِيَ قبلَ البعثِ كذلك يبدلُ بعد النُّضج. وقال السُّدِّيُّ : (يُبْدَلُ مِنْ لَحْمِ الْكَافِرِ يُعَادُ الْجِلْدُ لَحْماً وَيَخْرُجُ مِنَ اللَّحْمِ جِلْدٌ آخَرُ ؛ لأنَّهُ جِلْدٌ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيْئَةً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً } ؛ أي غالباً في أمرِهِ ، لا يَمْلِكُ أحدٌ مَنْعَهُ من إنزالِ وعدِّهِ ، ذو حِكْمَةٍ فيما حَكَمَ من النار للكفَّار.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ أي بساتينَ تجري من تحتِ شجرها وغُرَفها الأنْهارُ ، { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ } ؛ في الْخَلْقِ ، { وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً } ؛ أي ظِلاً دائماً وهو ظِلُّ الأشجار والقصور ؛ ظلٌّ لا حرَّ معه ولا بَرْدَ ، وليس كلُّ ظلٍّ يكون ظَلِيلاً. وقِيْلَ : الظَّلِيْلُ الكثيفُ الذي لا تَنْسَخُهُ الشَّمسُ.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } ؛ وذلك : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ أتَى الْبَيْتَ لِيَدْخُلَهُ ؛ فَسَأَلَ عَنِ الْمِفْتَاحِ ؛ فَقِيلَ : هُوَ مَعَ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الدَّار وَكَانَ سَادِنَ الْكَعْبَةِ ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ : [هَاتِ الْمِفْتَاحَ] فَأَبَى ، فَلَوَى عَلِيٌّ رضي الله عنه يَدَهُ وَأَخَذهُ مِنْهُ وَفَتَحَ الْبَابَ وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْبَيْتَ ، وَصَلَّى فِيْهِ رَكْعَتَيْنِ ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ : بأَبي أنْتَ وَأمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إجْعَلْ لِيَ السِّدَانَةَ مَعَ السِّقَايَةِ – يَعْنِي اجْعَلْ لِي مِفْتَاحَ الْبَيْتِ – فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { نَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلِيّاً رضي الله عنه أنْ يَرُدَّ الْمِفْتَاحَ إلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ ؛ فَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَالَ عُثْمَانُ : أنَا أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؛ وَأسْلَمَ ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : مَا دَامَ هذا الْبَيْتُ أرَى اللَّبنَةَ مِنْ لَبنَاتِهِ قَائِمَةً ؛ فَإنَّ الْمِفْتَاحَ فِي أوْلاَدِ عُثْمَانَ بْنِ أبي طَلْحَةَ.

روي : " أنَّهُ لَمَّا طَلَبَ الْمِفْتَاحَ مِنْ عُثْمَانَ أبَى : فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَا عُثْمَانُ ؛ إنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَهَاتِ الْمِفْتَاحَ " فَقَالَ : هَاكَ أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؛ خُذْهُ بأمَانَةِ اللهِ. فَأَخَذ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الْمِفْتَاحَ فَفَتَحَ الْبَابَ وَمكَثَ فِي الْبَيْتِ مَا شَاءَ اللهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ نَزَلَ جِبْرِيْلُ بهَذِهِ الآيَةِ " ويدخلُ في هذا جملةُ الأمانةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ } ؛ خطابٌ لِلأَئِمَّةِ ؛ أي ويَأْمُرُكُمُ اللهُ أن تحكمُوا بين الناس بالحقِّ ، { إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ } ؛ أي نِعْمَ الذي يَأْمُرُكُمْ به من أداءِ الأَمَانَةِ والحكمَ بالحقِّ ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً } ؛ لِمَقَالَةِ الْعَبَّاسِ ؛ { بَصِيراً } ؛ بأمَانَةِ عُثمَانَ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } ؛ أي أطيعُوا اللهَ تعالى فيما أمَرَ ؛ وأطيعُوا الرسُولَ فيما بَيَّنَ. وَقِيْلَ : أطيعُوا اللهَ في الفرائضِ ، وأطيعُوا الرسولَ في السُّنَنِ.

وقولهُ تعالى : { وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } قال عكرمةُ : (هُوَ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ) لِقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم : " اقْتَدُوا مِنْ بَعْدِي بأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ " ، " وَإنَّ لِي وَزِيْرَيْنِ فِي الأَرْضِ ؛ وَوَزِيْرَيْنِ فِي السَّمَاءِ ، فَبالسَّمَاءِ جِبْرِيْلُ وَمِيْكَائِيْلُ ، وَبالأَرْضِ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ " ، " عِنْدِي بمَنْزِلَةِ الرَّأسِ مِنَ الْجَسَدِ " وقال الورَّاق : (هُمْ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٌّ لقولهِ صلى الله عليه وسلم : " الْخِلاَفَةُ بَعْدِي فِي أرْبَعَةٍ مِنْ أُمَّتِي : أبي بَكْرٍ

وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيَّ " وقال عطاءُ : (هُمْ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ وَالتَّابعُونَ بإحْسَانٍ لقولهِ تعالى : { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ }[التوبة : ١٠٠] الآية. وَقِيْلَ : هم أصحابُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كما قالَ : " أصْحَابي كَالنُّجُومِ ؛ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ " وقال جابرُ بن عبدِالله والحسنُ والضحَّاك ومجاهدُ : (هُمُ الْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ أَهْلُ الدِّيْنِ وَالْفَضْلِ) الَّذِيْنَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ مَعَالِمَ دِيْنِهِمْ ؛ وَيَأْمُرُونَهُمْ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَأَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتَهُمْ. قال ابنُ الأسودِ : (لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ العِلْمِ ، فَالْمُلُوكُ حُكَّامٌ عَلَى النَّاسِ ، وَالْعُلَمَاءُ حُكَّامٌ عَلَى الْمُلُوكِ). وقال أبو هريرةُ : (هُمْ وُلاَّةُ الْمُسْلِمِيْنَ). وقال الكلبيُّ ومقاتلُ : (هُمْ أمَرَاءُ السَّرَايَا ، كَانَ صلى الله عليه وسلم إذا بَعَثَ سَرِيَّةً أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً ، وَأَمَرَهُمْ أنْ يُطِيْعُوهُ وَلاَ يُخَالِفُوهُ).

والأظهرُ مِن هذه الأقاويلِ : أن المرادَ بهم العلماءُ لقولهِ تعالى : { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } ؛ أي فإنِ اخْتَلَفْتُمْ في شيءٍ من الحلالِ والحرام والشرائعِ والأحكام ، فردُّوه إلى أدلَّةِ الله وأدلَّة رسولهِ ، وهذا الردُّ لا يكون إلاّ بالاستدلالِ والاستخراج بالقياسِ ؛ لأن الموجودَ في نصِّ الكتاب اذا عُلِمَ وَعُمِلَ به لا يوصفُ بأنه رَدٌّ إلى الكتاب ، وإنَّما يقالُ : هو اتِّبَاعٌ للنَّصِّ ، وغيرُ العلماءِ لا يعلمونَ كيفيَّةَ الردِّ إلى الكتاب والسُّنة ولا دلائلِ الأحكامِ ، والجواب قولهُ تعالى : { إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } ؛ دليلٌ على أن الإيْمَانَ اتِّبَاعُ الكتاب والسُّنة والإجماعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } ؛ أي رَدُّ الخلافِ إلى اللهِ والرسول خيرٌ من الإصرار على الاختلافِ وأحسنُ عاقبةً لكم ، ويقالُ : أحسنُ تأويلاً من تأويلِكم الذي تُؤَوِّلُونَهُ من غيرِ رَدِّ ذلكَ إلى الكتاب والسُّنة. وعن عمرَ رضي الله عنه أنه قالَ : (الرُّجُوعُ إلَى الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ).

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ } ؛ الآيةُ. قال الكلبيُّ : (نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ يُقَالُ لَهُ بشْرٌ ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِيٍّ خُصُومَةٌ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : انْطَلِقْ نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ – لأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ وَلاَ يَجُورُ فِي الْحُكْمِ –. وَقَالَ الْمُنَافِقُ : نَنْطَلِقُ إِلَى كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ – وَهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ الطَّاغُوتَ – فَأَبَى الْيَهُودِيُّ أَنْ يُخَاصِمَهُ إلاَّ إِلَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَمَضَى مَعَهُ الْمُنَافِقُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَضَى لِلْيَهُودِيِّ ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ لَزِمَهُ الْمُنَافِقُ وَقَالَ : انْطَلِقْ بنَا إِلَى عُمَرَ ضي الله عنه فَقَالَ الْيَهُودِيُّ :

يَا عُمَرُ ؛ اخْتَصَمْتُ أنَا وَهَذا إلَى مُحَمَّدٍ فَقَضَى لِي عَلَيْهِ فَلَمْ يَرْضَ بقَضَائِهِ ، وَزَعَمَ أنَّهُ يُخَاصِمُنِي إلَيْكَ ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْمُنَافِقِ : أكَذلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : رُوَيْدَكُمَا حَتَّى أخْرُجَ إلَيْكُمَا ، فَدَخَلَ عُمَرُ وَأخَذ السَّيْفَ وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ خَرَجَ إلَيْهِمَا ؛ فَضَرَبَ بِهِ الْمُنَافِقَ حَتَّى مَاتَ ؛ وَقَالَ : هَكَذا قَضَائِي فِيْمَنْ لَمْ يَرْضَ بقَضَاءِ اللهِ وَقَضَاءِ رَسُولِهِ ، وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ. وَقَالَ جِبْرِيْلُ : إنَّ عُمَرَ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْ ْبَاطِلِ فَسُمِّيَ الْفَارُوقَ).

ومعنى الآية : ألَم ترَ يَا مُحَمَّدُ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بالْقُرْآنِ وبالكُتُب التي أُنْزِلَتْ من قبلِكم وهم المنافقونَ ، { يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ } ؛ وهو كعبُ بنُ الأشرفِ ، { وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ } ؛ بالطَّاغُوتِ ، { وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً } ؛ عَنِ الحقِّ.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (اخْتَصَمَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ إلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي أمْرٍ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَضَى لِلزُّبَيْرِ ؛ فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ؛ فَمَرَّا عَلَى الْمِقْدَادِ فَقَالَ : لِمَنْ كَانَ الْقَضَاءُ يَا ثَعْلَبَةَ ؟ فَقَالَ : قَضَى لابْنِ عَمَّتِهِ ؛ وَلَوَى شِدْقَهُ ، فَفَطِنَ يَهُودِيٌّ كَانَ مَعَ الْمِقْدَادِ فَقَالَ : قَاتَلَ اللهُ هَؤُلاَءِ ؛ يَشْهَدُونَ أنَّهُ رَسُولُ اللهِ ثُمَّ يَتَّهِمُونَهُ فِي قَضَاءٍ بَيْنَهُمْ ، وَأيْمِ اللهِ لَقَدْ أذْنَبْنَا فِي حَيَاةِ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَنَا : اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ ؛ فَقَتَلْنَا فَبَلَغَ قِتَالُنَا سَبْعِيْنَ ألْفاً فِي طَاعَةِ اللهِ حَتَّى رَضِيَ عَنَّا. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ ثَعْلَبَةَ وَلَيِّهِ شِدْقَهُ { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ } أي هَلُمُّوا إلى التَّحَاكُمِ إلى أوامرِ الله في كتابه وإلى الرسُولِ صلى الله عليه وسلم لِيَحْكُمَ بينَكم رأيتَ المنافقينَ يُعْرِضُونَ عن حُكْمِكَ إعْرَاضاً.

(٠/٠)

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَكَيْفَ إِذَآ أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } ؛ أي كيفَ يكونُ حالُهم من نَدَمٍ وجُرأةٍ إذا أصابتهم مصيبةٌ بقتلِ عُمَرَ لصاحبهم وظهور نفاقهم بما فعلوهُ من ردِّ حُكْمِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وَلَيِّ الشِّدْقِ ، { ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ } ؛ مُعْتَذِرِيْنَ ، { إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ إِحْسَاناً } ؛ تَسْهِيْلاً كيلا تَشْغَلَكَ خصومتُنا ، { وَتَوْفِيقاً } ؛ بين الخصومِ بالإلتماسِ ما يقاربُ التوسط دون الحملِ على الإعراض عن الحكمِ.

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

قال اللهُ تعالى : { أُولَائِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ؛ عن عقوبتِهم في الدُّنيا ، ويقال : أعْرِضْ عن قَبُولِ عُذْرِهِمْ ، { وَعِظْهُمْ } ؛ مع ذلك بلسانِكَ { وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً } وأعْلِمْهُمْ أنَّهم إنْ عادُوا فحقُّهم العقوبةُ والقتلُ ، والقولُ البليغ أن يبلغَ صاحبه بعبارتهِ كُنْهَ ما في قلبهِ.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ أي لِيُطَاعَ ذلك الرسولُ بأمرِ الله ، { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ } ؛ بمُطَالَبَةِ الحُكمِ إلى الطاغوتِ ، { جَآءُوكَ } ؛ أيُّهَا الرسُولُ ، { فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ } ؛ وتابوا إليه ، { وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ } ؛ عند ذلكَ ، { لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّاباً } ؛ قَابلاً للتوبةِ ، { رَّحِيماً } ؛ بهم بعدَ التوبةِ.

(٠/٠)

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ } ؛ أي لا يكونوا مؤمنينَ عند اللهِ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما وقعَ من الاختلاف بينَهم ، { ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ } ؛ أي ثُمَّ لا تَضِيْقُ صدروُهم مِمَّا قضيتَ ، وَقِيْلَ : لا يَجِدونَ شَكّاً في حُكمِكَ ، { وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } ؛ أي يُقَادُوا لحكمكَ انقياداً.

والْمُشَاجَرَةُ في المخاصمةِ مأخوذٌ من الشَّجَرِ ؛ تشبيهاً للخصومةِ في دخُول بعضِ الكلام في بعض الأشجار بالتِفَافِ بعضِها على بعضٍ.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ } ؛ (نزلت في ثابتِ بن قيسٍ لأنه قال : أمَا وَاللهِ إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِنِّي الصِّدْقَ أنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم لَوْ أمَرَنِي بقَتْلِ نَفْسِي لَقَتَلْتُ نَفْسِي) ، وكان ثابت من القليلِ الذين استثناهم الله في الآيةِ.

ومعنى الآيةِ : لو أنَّا فَرَضْنَا عليهم كما فَرَضْنَا على بني إسرائيلَ أن اقْتُلُوا أنفُسَكُمْ ، أو أمرناهم أن يخرجُوا من ديارهم لَشَقَّ ذلكَ عليهِم ولم يفعلْهُ إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ. ورُفع الـ (قَلِيْلٌ) على البدلِ من الواو ، ومعنى ما فَعَلَهُ إلاَّ قليلٌ منهم ، وقرأ أبَيُّ ابن كعبٍ وابنُ عامر (إلاَّ قَلِيْلاً مِنْهُمْ) بالنصب على معنى استثنَى قليلاً منهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ } ؛ أي لو فَعَلَ المنافقون ما يُؤْمَرُونَ به من الرِّضَى بحكمكَ ، { لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } ؛ من الْمُحَاكَمَةِ إلى غيرِكَ ، { وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً } ؛ لقلوبهم على الصَّواب ؛ لأن الحقَّ يبقَى والباطلَ يذهبُ.

(٠/٠)

وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذاً لأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْراً عَظِيماً } ؛ أي إذْ لو يفعلونَ ما يُؤمرون به لأعطيناهُم مِن عندنا ثواباً جَزِيلاً في الجنَّة ، { وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } ؛ أي إلى صِرَاطٍ مستقيمٍ ، وَقِيْلَ : معناهُ : لَهَدْيَنَاهمْ في الآخرةِ إلى طريقِ الجنَّةِ.

(٠/٠)

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـائِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ } ؛ " نزلت في ثَوْبَانَ مَوْلَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ شَدِيْدَ الْحُب لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَلِيْلُ الصَّبْرِ عَنْهُ ، فَأَتَاهُ ذاتَ يَوْمٍ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَنَحَلَ جِسْمُهُ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا غَيَّرَ لَوْنُكَ ؟ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا بي مَرَضٌ وَلاَ وَجَعٌ ، غَيْرَ أنِّي لَمْ أرَكَ فَاشْتَقْتُ إلَيْكَ فَاسْتَوْحَشْتُ ، فَهَذا الَّذِي نَزَلَ بي مِنْ أجْلِ ذلِكَ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الآخِرَةَ فَأخَافُ أنْ لاَ أرَاكَ هُنَاكَ فَإنَّكَ تُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّيْنَ ، وَإنِّي إذا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ أدْنَى مِنْ مَنْزِلَتِكَ ، وَإنْ لَمْ أدْخُلِ الْجَنَّةَ فَذاكَ حِيْنَ لاَ أرَاكَ أبَداً ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ؛ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَابْنِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أجْمَعِيْنَ "

ومعنى الآية : ومَن يُطِعِ اللهَ في الفرائضِ والرسولَ في السُّننِ ؛ فأولئِكَ مع الذينَ أنْعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النبيِّين والصدِّيقينَ ، وهم أفاضلُ الصَّحابةِ ، { وَالشُّهَدَآءِ } ؛ هم الذين اسْتُشْهِدُواْ في سبيلِ الله ، { وَالصَّالِحِينَ } ؛ وهم الذينَ اسْتَقَامَتْ أحوالُهم بحُسْنِ عملِهم ، وَالْمُصْلِحُ الْمُقَوِّمُ بحُسْنِ عَمَلِهِ. وقالَ عكرمةُ : (النَّبيُّونَ : هَا هُنَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، وَالصِّدِّيْقُونَ : أبُو بَكْرٍ ، وَالشُّهَدَاءُ : عُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ ، وَالصَّالِحُونَ : سَائِرُ الصَّحَابَةِ).

فإن قيلَ فكيفَ يكونُ المطيعون للهِ ورسولِهِ مع النبيِّين ودرجتِهم في أعلى عِلِّيِّيْنَ ؟ قِيْلَ : إنَّ الأنبياءَ ولو كانوا في أعْلى عِلِّيِّيْنَ ؛ فإنَّ غيرَهم من المؤمنينَ يَرَوْنَهُمْ وَيَزُرُوْنَهُمْ ويستمتِعونَ برؤيتِهم ، فيصلحُ اللفظ أنْ يقالَ إنَّهم معهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَسُنَ أُولَـائِكَ رَفِيقاً } ؛ أي حَسُنَ الأنبياءُ ومَن معهُم رُفَقَاءَ في الجنَّةِ ؛ أي ما أحسنَ

مُرَافَقَتَهُمْ فيها ، فذكرَ الرفيقَ بلفظِ التوحيدِ ؛ لأنه نُصِبَ على التمييزِ ، كما في قولهِ تعالى : { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً }[النساء : ٤] ويجوزُ أن يكونَ معناهُ : حَسُنَ كُلُّ واحدٍ من أوْلَئِكَ رَفِيْقاً ، كما قالَ تعالى : { ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً }[غافر : ٦٧] ولم يقل أطْفَالاً.

(٠/٠)

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ } ؛ أي ذلك الْمَنُّ من اللهِ على المطيعين ، { وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً } ؛ بهم وبأعمالِهم ومجازياً لهم بما يستحقُّونَه من ثوابٍ وكرامةٍ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١)

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ } ؛ أي أسلحتكم ، { فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ } ؛ أي مِن عدوِّكم بالأسْلِحَةِ والرِّجالِ ، ولا تَخْرُجُوا متفرِّقين ، ولكن اخرجُوا ثُبَاتٍ ، { أَوِ انْفِرُواْ جَمِيعاً } ؛ أي اخرجُوا جماعاتٍ جماعاتٍ ؛ سَرِيَّةً سَرِيَّةً كما يأمرُكم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في جهادِ عدوِّكم ، واخرجوا كلُّكم جميعاً مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم إن أرادَ الخروجَ ، والثُّباتَ : الجماعاتُ في تفرقةٍ واحدُها ثُبَةٌ ؛ أي انفرُوا جماعةً بعد جماعةٍ ، ويجوزُ أن يكون معنَى : الْحِذْرُ : السِّلاَحُ.
واستدلَّ أهل القدر بهذه الآيةِ قالوا : إنَّ الحذرَ ينفعُ ويَمنعُ عنكم مُكَايَدَةَ العدوِّ ، وإلاَّ لم يكن لأمرِهِ تعالى آتاهم بالحذر ، معناهُ : فيقالُ لَهم الائتمار بأمرِ الله والإنتهاء بنَهْيِهِ واجبٌ عليهم ؛ لأنَّهم به يَسْلَمُونَ من معصيةِ الله تعالى ؛ لأن المعصيةَ تركُ الأوامرِ والنواهي. وليسَ في الآية دليلٌ على أن حَذرَهُمْ ينفعُ من القدر شيئاً ، بل المرادُ منه طُمَأْنِيْنَةُ النفسِ لا أنَّ ذلك يدفعُ القدرَ.

(٠/٠)

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ } ؛ أي مِمَّنْ أظهرَ الإيْمان ليتشاغَلَنَّ عن الجهادِ ، ويثقِلَنَّ غيرَهُ وهو عبدُاللهِ بن أبَيٍّ وَجَدُّ بنُ قيسٍ ، وأصحابُهما مِن المنافقينَ الذين كانوا يشاركون المسلمينَ في ظاهرِ الإسلامِ كانوا ينتظرونَ هلاكَ المسلمين وهزيْمَتَهم ويتثاقَلون عن الجهادِ ، يقال : أبْطَأَ الرجُلُ اذا تأخَّرَ عنِ العمل بإطالةِ المدَّة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً } ؛ أي إنْ أصابتُكم نَكْبَةٌ أو هَزِيْمَةٌ أو قتلٌ ، قال هذا الْمُبْطِئُ : قَدْ مَنَّ اللهُ عليَّ إذْ لَم أكُنْ مَعَهُمْ حَاضِراً في تلك الغزوةِ فيصيبُني مثلَ الذي أصابَهم.

(٠/٠)

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ الله } ؛ أي وإن أصابَكم أيُّها المؤمنون ظَفَرٌ وغَنِيْمَةٌ ، { لَيَقُولَنَّ } ؛ هذا الْمُبْطِئُ نَادِماً ، { كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ياليَتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ } ؛ في الغَزْو فأُصيبَ حظّاً وافراً وغنائمَ كثيرةً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ } ؛ قال بعضُهم : هو معرضٌ بين اليمينِ وما قبلَهُ ؛ تقديرهُ : وَلَئِنْ أصَابَكُمْ فضلٌ من اللهِ ليقولَنَّ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُم ، { فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً } ؛ كأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ؛ أي يتمنَّى أن ينالَ مِن غيرِ أن يريدَ الجهادَ والقتال ، وقيلَ : هو متصلٌ بقولهِ { قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً } كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ؛ أي صِلَةٌ في الدِّين ومعرفةٌ في الصُّحبةِ ، كأنهُ لم يُعَاقِدْكُمْ قَبْلَ أن يجاهدَ معكم.
ثُمَّ أمرَ اللهُ تعالى كُلَّ مَنْ عَقَدَ الإيمانَ بالقتالِ ؛ فقال عَزَّ وجَلَّ : { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ } ؛ أي لِيُقَاتِلْ في طاعةِ الله ورضَائِهِ الذين يَبْيعونَ الحياةَ الدُّنيا بالآخرةِ وهم المؤمنونَ. وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ الخطاب لِلْمُبْطِئِيْنَ ؛ ومعنى { يَشْرُونَ } : يَخْتَارُونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ. وهذا اللفظُ من الأضدادِ ، يقالُ : شَرَيْتُ بمَعْنَى بعْتُ ، وَشَرَيْتُ بمَعْنَى اشْتَرَيْتُ ، فيكون معنى الآيةِ على هذا : آمِنُوا ثُمَّ قاتِلوا ، لإنة لا يجوزُ أن يكونَ الكافرُ مأموراً بشيءٍ يتقدَّم على الإيْمانِ.

ثم ذَكَرَ اللهُ تعالى فضلَ الْمُجَاهِدِيْنَ ؛ فَقَالَ : { وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي في الجهادِ الذي هو طاعةُ اللهِ تعالى ؛ { فَيُقْتَلْ } ؛ هو ؛ { أَو يَغْلِبْ } ؛ العدوَّ ؛ { فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } ؛ فسوفَ نُعْطِيْهِ في كِلاَ الوجهينِ ثواباً وافراً في الجنَّة ، وسَمَّى اللهُ تعالى الثوابَ عظيماً ؛ لأنه نالَ ثمناً مِن العزيزِ بأغلَى الأثْمانِ ، وقد يكون ثَمَنُ الشيءِ مثلَهُ ، ويكون وَسَطاً من الأثْمانِ.

(٠/٠)

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : أيُّ شيءٍ لكم أيُّها المؤمنون في تَرْكِ الجهادِ مع اجتماعِ الأسباب الموجبَة للتحريضِ عليهِ ، وقولهُ تعالى : { لاَ تُقَاتِلُونَ } في موضعِ نصبٍ على الحال كأنهُ قال : وَمَا لَكُمْ تَارِكِيْنَ الْجِهَادَ ؟ كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ }[المدثر : ٤٩].

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُسْتَضْعَفِينَ } ؛ في موضعِ خَفْضٍ بإضمار (في) ؛ معناهُ : وفِي بيان المستضعفينَ ؛ أي وفي نُصْرَةِ المستضعفينَ ، ويجوزُ أن يكون معناهُ : وعَنِ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ ؛ أي لِلذب عن المستضعفينَ ، { مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ } ؛ الذين هم بمَكَّةَ وَيَلْقَوْنَ فيها أذىً كثيراً وهم : سَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ وَالْوَلِيْدُ بْنُ الْوَلِيْدِ وَعبَّاسُ بْنُ رَبيعَةَ وغيرَهم ، كانوا أسْلَمُوا بمَكَّةَ فأراد عشائِرُهم من أهلِ مكَّة بعدَ هجرةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يفتنوهم عنِ الإسلامِ. يقولُ الله تعالى : مَا تُقَاتِلُونَ المشركينَ في خَلاَصِ هؤلاء الضُّعفاءِ ؛ { الَّذِينَ } ؛ يسألونَ اللهَ ؛ { يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَاذِهِ الْقَرْيَةِ } ؛ أي خَلِّصْنَا من هذه القَرْيَةِ ؛ يَعْنُونَ مَكَّةَ ؛ { الظَّالِمِ أَهْلُهَا } ؛ أي الكفَّارُ أهلُها ، { وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً } ؛ أي مِن عندك حَافِظاً يحفظُنا من أذاهُم ، { وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ } ؛ مِنْ عِنْدِكَ ؛ { نَصِيراً } ؛ أي مَانِعاً يَمْنَعُنَا منهم. فاستجابَ اللهُ دعاءَهم ، وجعلَ لَهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم حافِظاً وناصِراً بفتحِ مكة على يديهِ ، واستعملَ عليهم عَتَّابَ بنَ أُسَيْدٍ ، عتاب يُنْصِفُ الضعيفَ من الشديدِ.

(٠/٠)

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : الذين آمَنُوا بمُحَمَّدٍ والْقُرْآنِ ، يُقَاتِلُونَ في طاعةِ اللهِ بأمْرِ الله ، { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أبُو سُفْيَانَ وأصحابَهُ ، { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ } ؛ يقاتلون في طاعةِ الشيطان ، { فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً } ؛ وضَعفهُ بالوسوسَةِ إلى أوليائهِ بأنَّ الظفرَ يكون لَهم كيدُ ضعيفٍ ، وإنَّما أدخلَ على هذا اللَّفظِ (كانَ) لتبين أن صفةَ الضَّعْفِ لازمةٌ له ، وأنهُ { كَانَ ضَعِيفاً } فَخَذلَ أولياءَه ، كما خذلَهم يومَ بدر حيث قال لَهم : إنِّي بريءٌ منكُم إنِّي أرَى ما لاَ تَرَوْنَ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ والحسن والكلبيُّ : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُمْ : عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ وَطَلْحَةُ بْنُ عَبْدِاللهِ وَالْمِقْدَادُ وَغَيْرُهُمْ ، كَانُوا يَلْقَوْنَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ أذىً كَثِيْراً وَهُمْ بمَكَّةَ قَبْلَ أنْ يُهَاجِرُواْ إِلَى الْمَدِيْنَةِ ؛ فَشَكَواْ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ وَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ءأذنْ لَنَا فِي قِتَالِ هَؤُلاَءِ فَإِنَّهُمْ قَدْ آذُوْنَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " كُفُّواْ أيْدِيَكُمْ ؛ فَإِنِّي لَمْ أؤْمَرْ بِقِتَالِهِمْ ، وَأقِيْمُوا الصَّلاَةَ الْخَمْسَ ، وَأدُّواْ زَكَاةَ أمْوَالِكُمْ " فَلَمَّا خَرَجُواْ إِلَى الْمَدِيْنَةِ وَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بقِتَالِ الْمُشْرِكِيْنَ ، وَأمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالْمَسِيْرِ إِلَى بَدْر ، كَرِهَ بَعْضُهُمْ وَشُقَّ ذلِكَ عَلَيْهِمْ ". ومعنى الآية : { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ } ؛ بالمدينةِ أي فُرِضَ ؛ { إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ } ؛ وقيل معناهُ : { أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً } ؛ كقولهِ{ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ }[الصافات : ١٤٧]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ } ؛ يعني مُشْرِكِي مكَّة لِمَ فَرَضْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؛ أي الجهادَ ؛ { لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ } ؛ أي هَلاَّ تَرَكْتَنَا حتى نَمُوتَ بآجالِنا. قال الحسنُ : (لَمْ يَقُولُوا هَذِهِ لِكَرَاهَةِ أمْرِ اللهِ ، ولَكِنْ لِدُخُولِ الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ بذلِكَ) ، وقال بعضُهم : نزلَتْ في المنافقينَ ، لأن

قوله : { لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ } لا يَلِيْقُ بالمؤمنينَ ، وكذلك الحسَنَةُ من غيرِ الله. وَقِيْلَ : نزلت في قَوْمٍ من المؤمنين لم يكونُوا راسخين في العِلْمِ ، قالوا هذا القولَ ؛ لأنَّهم رَكَنُوا إلى الدُّنيا وآثرُوا نعيمَها على القتالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ } ؛ أي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : منفعةُ الدُّنيا يسيرةٌ تنقطعُ وتقضى ، والاستمتاعُ بها قليلٌ ؛ لأن الجديدَ منها إلى البلَى ، والشابُّ منها إلى الهرمِ والإنقضاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى } ؛ أي وثوابُ الآخرةِ أفضلُ لِمن اتَّقَى المعاصي ، { وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً } ؛ أي ولا يُنْقَصُونَ من جَزَاءِ أعمالِهم الذي استحقُّوه مقدارَ الفتيلِ ، وقد تقدَّم تفسيرُ الفتيلِ.

(٠/٠)

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ } ؛ أي أيْنَمَا تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ المؤمنينَ والمنافقينَ في بَرٍّ أو بَحْرٍ أو سَفَرٍ أو حَضَرٍ يَلْحَقْكُمُ الموتُ ، وإنْ كُنْتُمْ فِي حُصُونٍ مُحَصَّنَةٍ مِن حديدٍ وغيرِه ، مرتفعةٍ إلى عَنَانِ السَّماء ، والمعنى : أنكم وإنْ سُومِحْتُمْ وأخذتُم بتركِ القتال ، فإن آخِرَ أعماركم موتٌ لا تَنْجُونَ منه. وقال عكرمةُ : (مُشَيَّدَةٌ : مُحَصَّنَةٌ). وقال العينيُّ : (مُطَوَّلَةٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَاذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ } ؛ هذا حكايةُ قولِ المنافقين واليهودِ ، كانوا يقولون : ما زِلْنَا نعرفُ النَّقْصَ في ثِمارنا ومراعينا مُذْ قَدِمَ هذا الرجلُ علينا – يعنون النبيَّ صلى الله عليه وسلم – بعدَ قُدُومِهِ المدينةَ ، فذلك قوله : { وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَاذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ } أي إنْ يُصِبْهُمْ خِصبٌ ورخصُ سِعْرٍ وتتابعُ أمطار يقولوا : هذهِ من فَضْلِ الله ؛ { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } ؛ قَحْطٌ وجُدُوبَةٌ وغلاءُ سِعْرٍ ، { يَقُولُواْ هَاذِهِ مِنْ عِندِكَ } ؛ هذه من شُؤْمِ مُحَمَّدٍ وأصحابِه.

يقولُ الله تعالى : { قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ } ؛ أي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : الحسنةُ والسيِّئةُ كلُّها بقضاءِ الله وتقديرِه ، { فَمَالِ هَاؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } ؛ اليهودُ والمنافقين لا يقربونَ من فَهْمِ حديثٍ عن الله. والْفِقْهُ : هو الْفَهْمُ ، ثم اختصَّ من جهة العُرْفِ بعلم الْفَتْوَى. وقال الحسنُ : (أرادَ بالْحَسَنَةِ فِي هَذِهِ الآيَةِ : الظَّفَرَ وَالْغَنِيْمَةَ ، وَبالسَّيِّئَةِ : الْقَتْلَ وَالْهَزِيْمَةَ) وَكَانُواْ إذا غَلَبُوا قَالُواْ : هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإذا غَلَبَهُمْ الْعَدُوُّ قَالُواْ : هَذِهِ مِن خَطَأ رَأيكَ وتَدْبيرِكَ.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ } ؛ واختلفَ المفسِّرون في المخاطَب بهذه الآية ، قال أكثرُهم : هُوَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَالْمُرَادُ لَهُ عَامَّةُ النَّاسِ. وقال قتادةُ : (الْمُخَاطَبُ بهَا الإنْسَانُ) كَأَنَّهُ قَالَ : مَا أصَابَكَ أيُّهَا الإنْسَانُ مِنْ حَسَنَةٍ ؛ أيْ مِنْ خِصْبٍ وَرُخْصِ سِعْرٍ وَفَتْحٍ وَغَنِيْمَةٍ فَاللهُ تَعَالَى هَدَاكَ لَهُ وَأَعانَكَ عَلَيْهِ وَوَفَّقَكَ لَهُ ، وَمَا أصَابَكَ مِنْ قَحْطٍ وَجُدْبَةٍ وَهَزِيْمَةٍ وَنَكْبَةٍ وَكُلِّ أمْرٍ تَكْرَهُهُ ؛ فَإنَّمَا أصَابَكَ ذلِكَ بمَا كَسَبَتْ يَدَاكَ بقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى{ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }[الشورى : ٣٠]. وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " مَا مِنْ خَدْشَةِ عُودٍ وَلاَ اخْتِلاَجِ عِرْقٍ وَلاَ عَثْرَةِ قَدَمٍ إلاَّ بذنْبٍ ، وَمَا يَعْفُو اللهُ أكْثَرُ " وقال بعضُ المفسِّرين : بين هذه الآيةِ وبينَ التي قبلَها إضمارٌ تقديرُه : فَمَا لِهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً يَقُولُونَ مَا أصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ؛ لأنَّهُ مستحيلٌ أن يأمرَ اللهُ تعالى بإضافةِ الحسنَةِ والسيِّئة إلى أمرِهِ وقضائه في آيةٍ ثم يَتْلُوهَا بآيةٍ تُفَرِّقُ بينهُما بعدَ أن ذمَّ قوماً على التفرقةِ في الأُولى ، فكيف يجوزُ أن يَذِمَّ على الجمعِ في الآية الثانيةِ ، ومثلُ هذا الإضمارِ كثيرٌ في القرآنِ.

وقرئَ في الشواذِ بنصب الميم (فَمَنْ نَفْسِكَ) أي كلٌّ مِنَ اللهِ ، فمَن أنتَ ونفسَكَ حتى يُضَافَ إليكَ شيءٌ ، غير أنَّ القراءةَ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ؛ فلا يقرأ إلاَّ بما تَصِحُّ به الروايةُ ، وحاصلُ المعنى على قراءةِ العامَّة : أي مَا أصابَكَ مِنْ خَيْرٍ ونِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أصَابَكَ مِنْ بَلِيَّةٍ ، أوْ شَيْءٍ تَكْرَهُهُ فَمِنْ نَفْسِكَ ؛ أي بذنوبكم ، وأنا الذي قدَّرتُها عليكَ. قال الضحَّاك : (مَا حَفِظَ الرَّجُلُ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إلاَّ بذنْبٍ) ثم قَرَأ{ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }[الشورى : ٣٠] ، قال : (فَنِسْيَانُ الْقُرْآنِ مِنْ أعْظَمِ الْمَصَائِبِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً } ؛ أي ومِن نِعْمَةِ اللهِ عليكَ إرسالهُ إياكَ رسولاً إليهم ، { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } ؛ على أنكَ رسولٌ صادقٌ يشهدُ لك بالرسالةِ والصِّدق ، وَقِيْلَ : شَهِدَ على مقالةِ القوم أنَّ الحسنةَ من اللهِ ، والسيئةَ من عندكَ : وَقِيْلَ : معناهُ : يشهدُ أنَّ الحسنةَ والسيِّئةَ كلَّها من اللهِ.

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } ؛ أي مَن يُطِعِ الرسولَ فيما يأمرهُ فقد أطاعَ الله ؛ لأنَّ الرسولَ إنَّما يأمرُ به من عندِ اللهِ ، { وَمَن تَوَلَّى } ؛ أي أعْرَضَ عن طاعتهِ ، { فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } ؛ أي ليسَ عليك إلاّ البلاغُ وما أرسلناكَ عليهم مُسَلَّطاً تُجْبِرُهُمْ على الإيْمَانِ والطاعة وتَمنعُهم عن الكفرِ والمعصيةِ ؛ فإنك مُبَلِّغٌ وأنا العالِمُ بسرائرِهم ، وهذه الكلمةُ من آخرِ الآية منسوخةٌ بآيةِ السَّيْفِ.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ } ؛ معناهُ : أنَّ المنافقين كانوا يقولونَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أمْرُكَ طاعةٌ وقولُكَ مُتَّبَعٌ ، { فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ } ؛ فَإنْ خَرَجُوا مِن عندِكَ يا مُحَمَّد ، { بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ } ؛ أي غَيَّرَتْ جماعةٌ منهم الأمرَ الذي أمرتَهم به على وجهِ التكذيب ، يقالُ لكلِّ أمر قُضِيَ بليلٍ : قَدْ بَيَّتَ بهِ ، وإنَّما لم يقل للبيت ؛ لأنَّ كل تأنيثٍ غيرَ حقيقي يجوزُ تعبيرهُ بلفظِ التذكيرِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : قَدَّرُوا ليلاً غيرَ ما أعطوكَ نَهاراً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ } ؛ أي يَحْفَظُ عليهم ما يَفْتَرُونَ من أمرِك ، وَقِيْلَ : ما يُسِرُّونَ من النفاقِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } أي لا تُعَاقِبْهُمْ يا مُحَمَّدُ واسْتُرْ عليهم إلى أنْ يَسْتَقِيْمَ أمرُ الإسلامِ { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي ثِقْ باللهِ وفوِّضْ أمرَكَ إليه ، { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } ؛ أي حَافِظاً ، والوكيلُ : هو العالِمُ بما يُفَوَّضُ إليه من التدبيرِ.

(٠/٠)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } ؛ أي أفلا يَتَفَكَّرُونَ في الْقُرْآنِ أنه يُشْبهُ بعضُه بعضاً ويصدِّقُ بعضه بعضاً ، وأنَّ أحَداً من الخلائقِ لا يقدرُ على مِثْلِهِ ، فيعلمون أنه حَقٌّ ويعلمونَ أنه مِن عِنْدِ اللهِ ، { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً } ؛ أي تعارضاً وتَبَايُناً وبعضهُ بليغاً وبعضُه ساقطاً.

(٠/٠)

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ } ؛ يَعْنِي المنافقينَ كانوا إذا أتاهُم خبرٌ من أمرِ السَّرَايَا الذين بعثَهُم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من ظَفَرٍ وَدَوْلَةٍ وَغَنِيمَةٍ ؛ أو أتاهم عنهم خَبَرُ نَكْبَةٍ أو هَزِيْمَةٍ أفْشَوا ذلكَ الخبرَ ، وأظهروهُ قبل أن يُحَدَّثَ بهِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِيَحْذرَ بخبرِ الظَّفَرِ من ينبغِي أن يحذرَ من الكفَّار ويقوَى بخبرِ هزيْمَة المسلمينَ قَلْبُ مَن كان يَبْتَغِي نكبةَ المسلمين منهُم ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

ومعناهُ : اذا جاءَ المنافقينَ { أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ } ؛ يعني الغنيمةَ والفتحَ ، { أَوِ الْخَوْفِ } أي الهزيْمَة والقتلِ { أَذَاعُواْ بِهِ } ؛ أي أشاعُوهُ وأفْشَوهُ ، { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ } ؛ أي لم يَتَحَدَّثُوا به ولم يُفْشُوهُ حتى يكونَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو الذي يَتَحَدَّثُ بهِ. والمعنى : لو تَرَكُوا أمرَ السَّرايَا والعسكرِ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمرِ أولي الأمرِ من المؤمنينَ وهم : أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَأكَابرُ الصَّحَابَةِ حتى يكونوا هم الذين يُفْشُونَهُ ، { لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } ؛ يطلبونَ الخبرَ ويستخبرونَهُ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأكابرِ الصَّحابة أن ذلك الخبرَ صحيحٌ أم لاَ.

قال الكلبيُّ : (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ أيْ يَتَّبِعُونَهُ). وقال عكرمةُ : (يَسْأَلُونَ عَنْهُ ، أيْ لَوْ تَرَكُواْ إذاعَتَهُ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بهِ النَّبيُّ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْأَلُونَ عَنْهُ). وقال القُتيبيُّ : (لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْتَخْرِجُونَهُ ، يُقَالُ : اسْتَنْبَطْتُ الْمَاءَ إذا أخْرَجْتُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } ؛ أي لولا ما أنزلَ اللهُ عليكم من القُرْآنِ ، وبَيَّنَ لكم الآياتِ على لسانِ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، { لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي كانَ أقَلُّكُمْ يَنْجُوا من الكُفْرِ ، والمرادُ بالفضلِ ها هنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم والقُرْآنَ ، وَقِيْلَ : في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ ؛ معناه : أذاعُواْ بهِ إلاَّ قَلِيْلاً مِنَ الخبر لم يذيعوهُ ، أو قليلاً من الْمُنَافِقِيْنَ لَمْ يُذِيْعُوهُ.

(٠/٠)

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ } ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا الْتَقَى هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أحُدٍ وَكَانَ مِنْ أمْرِهِمْ مَا كَانَ ، وَرَجَعَ أبُو سُفْيَانَ إلَى مَكَّةَ وَوَاعَدَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَدْرَ الصُّغْرَى فِي ذِي الْقِعْدَةِ ، فَلَمَّا بَلَغَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم الْمِيْعَادُ ، قَالَ لِلَّناسِ : اخْرُجُوا إلَى الْعَدُوِّ ، فَكَرِهُوا ذلِكَ كَرَاهَةً شَدِيْدَةً أوْ بَعْضَهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي لا تَدَعْ بجهاد العدو ولو وحدك.

وَقِيْلَ : لا تُؤَاخَذُ بفعلِ غيرِك ، وإنَّما تُؤَاخَذُ بفعلِ نفسِك وليسَ عليك ذنبُ غيرِك ، { وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ على القتالِ لَعَلَّ اللهَ أن يَكُفَّ عنكَ قتالَ الكفَّار ، وعسَى مِن اللهِ واجبٌ ؛ لأنهُ في اللغة الإطْمَاعُ ، وإطماعُ الكريْمِ لا يكونُ إلا إنجازاً.

والفاءُ : في قوله : (فَقَاتِلْ) جوابٌ عن قولهِ : { وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً }[النساء : ٧٤] فَقَاتِلْ وحَرِّضِ المؤمنينَ على القتالِ ؛ أي حَرِّضْهُمْ على القتالِ ورَغِّبْهُمْ فيهِ. فَتَثَاقَلُوا وَلَمْ يَخْرُجُواْ مَعَه ؛ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَبْعِيْنَ رَاكِباً حَتَّى أتَي بَدرَ الصُّغْرَى ؛ فَكَفَاهُمُ اللهُ بَأسَ الْعَدُوِّ وَلَمْ يُوافِقْهُمْ أبُو سُفْيَانَ ؛ ولَمْ يَكُنْ قِتَالٌ يَوْمَئِذٍ ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي قتالَ المشركينَ وصولَتَهم ، { وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً } ؛ أي عُقُوبَةً.

(٠/٠)

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ } ؛ أي مَنْ يصلِحْ بين اثنين يَكُنْ لهُ أجرٌ وثواب مِن ذلك الإصلاحِ ، ومن يَمْشِي بالْغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ لهُ حظٌّ من

وزْرهَا وعقوبتِها ، هكذا رويَ عن ابنِ عبَّاس ، وقيلَ : معناهُ : من يوحِّدْ ويأمُرْ بالتوحيدِ يكُنْ له أجرٌ من ذلكَ ، ومن يُشْرِكْ ويأمُرْ بالشِّركِ يكن له وزْرٌ مِن ذلكَ. ويقالُ : الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ هي للمؤمنينَ ، والشفاعة السيِّئةُ الدعاءُ عليهِم ، فإنَّ اليهودَ كانوا يدعون على المؤمنينَ فَتَوَعَّدَهُمُ اللهُ بذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كِفْلٌ مِّنْهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ : (الْكِفْلُ : الإثْمُ وَالْوِزْرُ). قال الفرَّاء وأبو عبيدٍ : (الْكِفْلُ : الْحَظُّ وَالنَّصِيْبُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً } ؛ قال الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عبَّاس : (مُقِيْتاً أيْ مُقْتَدِراً مُجَازياً بالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ) ، قال الشاعرُ : وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مُسَاءَتِهِ مُقِيْتَاأي مُقْتَدِراً. وقال الزجَّاج : (الْمُقِيْتُ : الْحَفِيْظُ). قال الشاعرُ : أَلِيَ الْفَضْلُ أمْ عَلَيَّ إذا حُو سِبْتُ أنِّي عَلَى الْحِسَاب مُقِيتُوقال مجاهدُ : (الْمُقِيْتُ الشَّاهِدُ). وقال الفرَّاء : (الْمُقِيْتُ الَّذِي يُعْطِي كُلَّ إنْسَانٍ قُوْتَهُ). وجاء في الحديثِ : "كَفَى بالْمَرْءِ إثْماً أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوَّتُ – أو يُقِيْتُ – "

(٠/٠)

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (أرَادَ بالتَّحِيَّةِ السَّلاَمَ ؛ أيْ إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أحَدٌ فَأَجِيْبُوا بتَحِيَّةٍ أحْسَنَ مِنْهَا ؛ وَهُوَ أنْ تَزِيْدُواْ فِي التَّحِيَّةِ فَتَقُولُواْ : وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، يُحَيِّي بذلِكَ الْمُسَلَّمُ عَلَيْهِ ، وَالْمَلَكَيْنِ الْحَافِظَيْنِ مَعَهُ بأَبْلَغِ التَّحِيَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ رُدُّوهَآ } مَعْنَاهُ : وأجيبُوا بمثلِ الذي سَلَّمَ عليكُم. وقال بعضُهم : معناهُ : وَإذا حُيِّيتُمْ بتَحِيَّةٍ ؛ أي إذا أهْدِيَ إليكم هديةً فَكَافِئُوا بأفضلَ منها أو مِثْلِهَا ؛ لأن التحيَّةَ في اللغة الْمِلْكُ ، وكانوا يقولون قبلَ الإسلام : حَيَّاكَ اللهُ ؛ أي مَلَّكَكَ اللهُ ؛ ثم أبدلُوا بهذا اللفظِ بالسَّلامِ بعدَ الإسلامِ ، وأقِيْمَ السلامُ مقامَ قولِهم : حيَّاكَ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً } ؛ أي مُجَازِياً يعطي كلَّ شيءٍ من العِلْمِ والحفظِ والجزاءِ مقداراً يَحْسِبُهُ ؛ أي يَكْفِيهِ ، يقال : حَسْبُكَ هَذا ؛ أي اكْتَفِ به ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { عَطَآءً حِسَاباً }[النبأ : ٣٦] أي كافِياً.

(٠/٠)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ } ؛ أي لاَ إِلَهَ في الأرضِ وفي السَّماء غيرُه ، واللامُ في (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) لامُ أنفُسِهم ، كأنهُ قال اللهُ : يجمعكُم في الحياةِ والموت في قبوركم ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيْهِ ؛ أي لا شَكَّ فيهِ أنهُ كائنٌ لا محالةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً } ؛ استفهامٌ بمعنى النَّفي ، ليسَ أحدٌ أوفَى من اللهِ تعالى وَعْداً ولا أصْدَقَ منه قَوْلاً ، ولا صادقاً إلاّ ويوجدُ غيرهُ على خلافِ مُخْبَرِهِ وقتاً من الأوقاتِ إلاّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَمَنْ أصدقُ مِن اللهِ حديثاً.

(٠/٠)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ } ؛ قال ابنُ هِشَامٍ : (هَاجَرَ أنَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَدِمُواْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِيْنَةَ فَأَسْلَمُواْ ، ثُمَّ نَدِمُواْ عَلَى ذلِكَ وَأَرَادُواْ الرَّجْعَةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ : كَيْفَ نَخْرُجُ ؟ قَالُواْ : نَخْرُجُ كَهَيْأَةِ الْمُتَنَزِّهِيْنَ ، فَقَالُواْ لِلْمُسْلِمِيْنَ : إنَّا قَدِ اجْتَوَيْنَا الْمَدِيْنَةَ فَنَخْرُجُ وَنَتَنَزَّهُ – أي نَتَفَسَّحُ – فَصَدَّقُوهُمْ ، فَخَرَجُواْ فَجَعَلُواْ يُبَاعِدُونَ قَلِيلاً حَتَّى بَعُدُواْ ، ثُمَّ أسْرَعُواْ فِي السَّيْرِ إلَى مَكَّةَ حَتَّى لَحِقُواْ بهَا ، وَكَتَبُواْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أنَّا عَلَى مَا فَارَقْنَاكُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّصْدِيْقِ ، وَلَكِنَّا اشْتَقْنَا إلَى أرْضَنَا وَاجْتَوَيْنَا الْمَدِيْنَةَ.
ثُمَّ أنَّهُمْ أرَادُواْ أنْ يَخْرُجُوا فِي تِجارَتِهِمْ إلَى الشَّامِ ، فَاسْتَبْعَضَهُمْ أهْلُ مَكَّةَ وَقَالُواْ : أنْتُمْ عَلَى دِيْنِ مُحَمَّدٍ ، فَإنْ لَقُوكُمْ فَلاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ. فَخَرَجُواْ مِنْ مَكَّةَ مُتَوَجِّهِيْنَ إلَى الشَّامِ ، فَبَلَغَ ذلِكَ الْمُسْلِمِيْنَ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : مَا يَمْنَعُنَا أنْ نَخْرُجَ إلَى هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ رَغِبُواْ عَنْ دِيْنِنَا وَتَرَكُوهُ ، نَخْرُجُ إلَيْهِمْ فَنَقْتُلُهُمْ وَنَأْخُذُ مَا مَعَهُمْ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : كَيْفَ نَقْتُلُ قَوْماً عَلَى دِيْنِكُمْ ، وَكَانَ بحَضرَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ سَاكِتٌ لاَ يَنْهَى أحَدَ الْفَرِيقَيْنِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَالَّتِي بَعْدَهَا يُبَيِّنُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَأْنَهُمْ).
ومعناها : فِمَا لكُمْ من هؤلاءِ المنافقينَ حتى صِرْتُمْ في أمرِهم فرقتين من مُحِلٍّ لأموالِهم وَمُحَرِّمٍ ، { وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُواْ } ؛ أي رَدَّهُمْ إلى كُفْرِهم وضلالَتِهم بما كَسَبُوا من أعمالِهم السيِّئَةِ ، ونفاقِهم وخُبْثِ

نِيَّاتِهم ، وانتصاب (فِئَتَيْنِ) على الحالِ ؛ يقالُ : مَا لَكَ قَائِماً ؛ أي لِمَ قُمْتَ في هذه الحالةِ ، وَقِيْلَ : على خَبَرِ (صار).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ } ؛ أي تريدون يا مَعْشَرَ المخلصينَ أن تُرْشِدُوا مَن خَذلَهُ اللهُ عن دِينه وحجَّته ، وَقِيْلَ : معناهُ : أتقولونَ إنَّ هؤلاءِ مهتدون ، { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً } ؛ أي لن تَجِدَ له هَادِياً ، وَقِيْل : لن تَجِدَ لهُ طَرِيقاً إلى الْهُدَى. وقرأ عَبْدُاللهِ وأبَيّ : (واللهُ رَكَّسَهُمْ) بالتشديدِ.

(٠/٠)

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً } ؛ أي تَمَنَّى المنافقونَ والكفارُ أن تكفرُوا أنتُم بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ كما كَفَروا ، فتكونُوا أنتم وهم سواءٌ في الكفرِ ، { فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ } ؛ أي أحِبَّاءَ ، { حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ في طاعةِ اللهِ ، { فَإِنْ تَوَلَّوْاْ } ؛ فإنْ أعْرَضُوا عن الإيْمانِ والْهِجْرَةِ فَأْسِرُوهُمْ ، { فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ } ؛ في الحلِّ والْحَرَمِ ، { وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } ؛ أي حَبِيْباً في العَوْنِ والنُّصرةِ.

وهذه الآية محمولةٌ على حالِ ما كانتِ الهجرةُ فَرْضاً كما قال صلى الله عليه وسلم : " أنَا بَرِيْءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ أقَامَ بَيْنَ أظْهُرِ الْمُشْرِكِيْنَ " ثم نُسِخَ ذلك يومَ فتحَ مكَّة كما روَى ابنُ عبَّاس قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ عليه السلام يَوْمَ الْفَتْحِ : " لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِنِ اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُواْ ".

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَكُونُونَ سَوَآءً } لَمْ يدخل جوابَ التَّمنِّي ؛ لأنه جوابَهُ بالفاءِ منصوبٌ ، وإنَّما أرادَ العطفَ على معنى : وَدُّوا لو تكفرونَ وَوَدُّوا لو تكونُوا سواءً ، مثلَ قولهِ : { وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ }[القلم : ٩] أي وَدُّوا لو تُدْهنُ ووَدُّوا لو تُدْهِنُونَ ، ومثلُه{ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ }[النساء : ١٠٢] أي وَوَدُّوا لو تَميلونَ.

(٠/٠)

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ } ؛ هذا استثناءٌ لِمَنِ اتَّصَلَ من الكفار بقومٍ بينهم وبين المسلمينَ مِيْثَاقٌ ، قال ابنُ عبَّاس : (أَرَادَ بالْقَوْمِ الأَسْلَمِيِّينَ ، وَادَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَبَا بُرْدَةَ هِلاَلَ بنَ عُوَيْمِرَ الأَسْلَمِيَّ وَأَصْحَابَهُ عَلَى أَنْ لاَ يُعِينُوهُ وَلاَ يُعِيْنُوا عَلَيْهِ ، فَمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ وَلَحِقَ بِهِمْ بالأَنْسَاب أَوْ بالْوَلاَءِ) يعني : لجأ أحدٌ من الكفار في عهدِ الأسلَمِيِّينَ على حَسْب ما كان بين يدَي رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وبينَ قُريشٍ من الموادعة ؛ فدخلت خُزاعَةُ في عهدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودخلت بَنُو كِنَانَةَ في عهدِ قُرَيشٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ } ؛ معناهُ : ويَصِلُونَ إلى قومٍ جاؤُكم ضَاقَتْ صدورُهم أن يقاتِلوكُم مع قومِهم ، { أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ } ؛ معكُم وهم بَنُو مُدْلَجٍ ، { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ } ؛ لَسَلَّطَ قوم هلالِ بن عويْمِر ، وبنِي مُدْلَجٍ عليكم ، { فَلَقَاتَلُوكُمْ } ؛ كما قَتَلْتُمُوهُمْ ظالِمين لهم ، { فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ } ؛ أي فإنْ تركوكُم فلم يقاتِلُوكم مع قومِهم ، واستسلَمُوا أو خَضَعُوا بالصُّلح والوفاءِ ، { فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً } ؛ أي حُجَّةً في القتالِ وقال أهلُ النَّحْوِ : معنى { أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ } أي حَصِرَتْ. و(حَصِرَتْ) لا يكون حالاً إلاّ بعدَ ؛ قالوا : ويجوزُ أن يكون (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) خبراً بعد خبرٍ ؛ كأنه قالَ : أو جاؤُكم ، ثم أخبرَ بعدُ فقالَ : (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أنْ يُقَاتِلُوكُمْ). وفي الشواذِّ : (أَوْ جَاؤُكمُ حَصْرَةَ صُدُورُهُمْ).

وأمَّا اللامُ في { لَسَلَّطَهُمْ } فجوابُ { لَوْ شَاءَ اللهُ } ، واللاَّمُ في { فَلَقَاتَلُوكُمْ } للبدلية ، والفاءُ فاءُ عطفٍ بمنْزِلة الواو.

وقد رويَ عن عطاءٍ عنِ ابنِ عبَّاس : (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بقَوْلِهِ{ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }[النساء : ٨٩] بآيَةِ السَّيْفِ ، هِيَ مُعَاهَدَةُ الْمُشْرِكِيْنَ وَمَوَادَعَتُهُمْ مَنْسُوخَةٌ بقَوْلِهِ : { فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }[التوبة : ٥]). ولأن الله تعالى أعَزَّ الإسلامَ وأهلَهُ ؛ فلا يُقْبَلُ من مشركي العرب إلاّ الإسلامُ أو السَّيْفُ بهذه الآيةِ ، وقد أمرَنا اللهُ تعالى في أهلِ الكتاب بقتالِهم حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجزيةَ بقوله تعالى : { قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }[التوبة : ٢٩] إلى قولهِ تعالى : { وَهُمْ صَاغِرُونَ }[التوبة : ٢٩] فلا يجوزُ مُدَاهَنَةُ الكفَّار وتركُ أحدِهم على الكفرِ من غيرِ جِزْيَةٍ إذا كان بالمسلمين قُوَّةٌ على القتالِ ، وأما إذا عَجَزُوا عن مقاومتِهم وخافُوا على أنفسِهم وذراريهم جازَ لَهم مهادنةُ العدوِّ من غير جزيةٍ يؤدُّونَها إليهم ؛ لأن حَظْرَ الموادعةِ كان لسبب القوَّة ؛ فإذا زالَ السببُ زالَ الْحَظْرُ.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ } ؛ معناهُ : ستجدون قوماً آخرينَ يريدون أن يَأمَنُوكُمْ ، أي يُظهرون لكم الصُّلْحَ ، يريدونَ أنْ يأمنُوكم بكلمةِ التَّوحِيدِ ، يُظهرونَها لكم ، { وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ } ؛ أي ويأمَنُوا من قومِهم بالكفرِ في السرِّ ، { كُلَّ مَا رُدُّواْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا } ؛ كلَّما دُعُوا إلى الكُفْرِ رَجَعُوا فيهِ.

قال ابنُ عبَّاس : (هُمْ أسَدُ وَغَطَفَانُ ؛ كَانَوا حَاضِرِي الْمَدِيْنَةِ ، وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ بالإِسْلاَمِ وَهُمَا غَيْرُ مُسْلِمَيْنِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ قَوْمُهُ : بمَاذا آمَنْتَ ؟ وَلِمَاذا أسْلَمْتَ ؟ فَيَقُولُ : آمَنْتُ برَب العُودِ ، وَبرَبِّ الْعَقْرَبِ وَبربِّ الْخَنْفُسَاءِ. يُرِيْدُونَ بِهِ الاسْتِهْزَاءَ ، فَإذا لَقُواْ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم وَأصْحَابَهُ قَالُواْ : إنَّا عَلَى دِيْنِكُمْ ؛ وَأظْهَرُواْ الإسْلاَمَ ، فَأَطْلَعَ اللهُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم وَالْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى ذلِكَ بهَذِهِ الآيَةِ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ } ؛ أيْ فانْ لَمْ يتركوا قتالكم ولَمْ يَستَدِيموا لكم في الصُّلْحِ ، ولَمْ يَمنعوا أيديَهم عن قتالِكم ، { فَخُذُوهُمْ } ؛ أي إسِرُوهُمْ ، { وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ } ؛ أي حيث وَجَدْتُمُوهُمْ ، { وَأُوْلَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً } ؛ أي أهل هذه الصفة جعلنا لكم عليهم حجة ظاهرة بالقتال معهم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً }[النساء : ٩٢] أي ما كانَ لِمؤمنٍ في حُكْمِ اللهِ أن يَقْتُلَ مؤمناً بغيرِ حقٍّ إلاَّ أن يكونَ وُقُوعُ القتلِ منه على وجهِ الخطأ ، وهو ألاَّ يكونَ قاصداً قَتْلَهُ فيكونُ مرفوعَ الإثْمِ والعقاب.

واختلفَ المفسِّرون فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ ؛ قال ابنُ مسعودٍ : (فِي عَيَّاشِ بْنِ رَبِيْعَةَ الْمَخْزُومِيِّ ؛ أتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بمَكَّةَ قَبْلَ أنْ يُهَاجِرَ إلَى الْمَدِيْنَةِ فَأَسلَمَ مَعَهُ ، فَخَافَ أنْ يَعْلَمَ أهْلُهُ بإسْلاَمِهِ ، فَخَرَجَ هَارباً إلَى الْمَدِيْنَةِ ؛ فَاخْتَفَى فِي جَبَلٍ مِنْ جِبَالِهَا ؛ فَجَزِعَتْ أمُّهُ جَزَعاً شَدِيْداً حِيْنَ بَلَغَهَا إسْلاَمُهُ وَخُرُوجُهُ إلَى الْمَدِيْنَةِ ؛ فَقَالَتْ لأَبِيْهَا الْحُرَيْثِ وَأبي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ – وَهُمَا أخَوَاهُ لأُمِّهِ – : وَاللهِ

لاَ يُظِلُّنِي سَقْفٌ وَلاَ أذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً حَتَّى تَأْتُونِي بِهِ ، فَخَرَجَا فِي طَلَبِهِ ، وَخَرَجَ مَعَهُمَا الْحَرْثُ بْنُ زَيْدٍ حَتَّى أتَيَا الْمَدِيْنَةَ ، فَوَجَدَا عَيَّاشاً فِي أطُمٍ – أيْ جَبَلٍ – فَقَالاَ لَهُ : إنْزِلْ ؛ فَإنَّ أمَّكَ لَمْ يَأْوِهَا سَقْفُ بَيْتٍ بَعْدَكَ ، وَقَدْ حَلَفَتْ لاَ تَأْكُلُ طَعَاماً وَلاَ تَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى تَرْجِعَ إلَيْهَا ، وَلَكَ عَلَيْنَا ألاَّ نُكْرِهَكَ عَلَى شَيْءٍ ؛ وَلاَ نَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ دِيْنِكَ ، فَحَلَفُواْ لَهُ عَلَى ذلِكَ فَنَزَلَ إلَيْهِمْ ، فَأَوْثَقُوهُ بِنِسْعَةٍ ثُمَّ جَلَدَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ.

ثُمَّ قَدِمُواْ بِهِ عَلَى أمِّهِ ، فَلَمَّا أتَاهَا قَالَتْ لَهُ : وَاللهِ لاَ أحِلُّكَ مِنْ وثَاقِكَ حَتَّى تَكْفُرَ بالَّذِي آمَنْتَ بِهِ ، ثُمَّ تَرَكُوهُ مَطْرُوحاً مَوْثُوقاً فِي الشَّمْسِ مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ أعْطَاهُمُ الَّذِي أرَادُوا ، فَأَتَاهُ الْحُرَيْثُ بْنُ زَيْدٍ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَيَّاشُ ؛ هَذا الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ الْهُدَى لَقَدْ تَرَكْتَ الْهُدَى ، وَلَئِنْ كَانَ ضَلاَلَةً لَقَدْ كُنْتَ عَلَيْهَا ، فَغَضِبَ عَيَّاشُ مِنْ مَقَالَتِهِ ، قَالَ : واللهِ لاَ ألْقَاكَ خَالِياً إلاَّ قَتَلْتُكَ.

(٠/٠)

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي مِقْيَسِ بْنِ خَبَابَةَ ؛ وَجَدَ أخَاهُ قَتِيْلاً فِي بَنِي النَّجَّار ؛ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ لَهُ ذلِكَ ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلاً مِنْ بَنِي فِهْرٍ ، وَقَالَ لَهُ : " إئْتِ بَنِي النَّجَار فَأَقْرِئْهُمْ مِنِّي السَّلاَمَ ؛ وَقُلْ لَهُمْ : رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَأْمُرُكُمْ إنْ عَلِمْتُمْ قَاتِلَ هِشَامَ أنْ تَدْفَعُوهُ إلَى مَقِيْسٍ يَقْتَصُّ مِنْهُ ، وَإنْ لَمْ تَعْلَمُوا لَهُ قَاتِلاً أنْ تَدْفَعُواْ إلَيْهِ دِيَّتَهُ " فَأَبْلَغَهُمُ الْفِهْرِيُّ ذلِكَ ، فَقَالُواْ : سَمْعاً وَطَاعَةً للهِ وَلِرَسُولِهِ ؛ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ لَهُ قَاتِلاً ؛ وَلَكِنَّا نُؤَدِّي دِيَتَهُ ، فَأَعْطَوْهُ مَائَةً مِنَ الإبِلِ ، وَانْصَرَفَا رَاجِعَيْنِ نَحْوَ الْمَدِيْنَةِ وَبَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْمَدِيْنَةِ قَرِيْبٌ ، فَوَسْوَسَ الشَّيْطَانُ إلَى مِقْيَسٍ وَقَالَ لَهُ : أيُّ سَبَبٍ صَنَعْتَ بِقَبُولِ دِيَّةِ أخِيْكَ فَتَكُونَ عَلَيْكَ سُبَّةٌ ، أقْتُلِ الَّذِي مَعَكَ تَكُونُ نَفْسٌ مَكَانَ نَفْسٍ وَفَضْلَ الدِيَّةِ ، فَرَمَى الْفِهْرِيَّ بِصَخْرَةٍ فَشَدَخَ رَأسَهُ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ رَكِبَ بَعِيْراً مِنْهُمَا وَسَاقَ بَقِيَّتَهَا رَاجِعاً إلَى مَكَّةَ كَافِراً ، وَجَعَلَ يَقُولُ : قَتَلْتُ بِهِ فِهْراً وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ سُرَاةَ بَنِي النَّجَّار وَأرْبَابَ فَارِعِفَأَدْرَكْتُ ثَأْرِي وَاضْطَجَعْتُ مُوسَّداً وَكُنْتُ إلَى الأَوْثَانِ أوَّلَ رَاجِعِفَنَزَلَتْ هذه الآيةُ ، وَقُتِل مِقيَسُ يومَ فتحِ مكَّة.

ومعناها : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً في قتلهِ مُسْتَحِلاً لَهُ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيْهَا باستحْلالهِ لَهُ وارتدادهِ عن إسلامهِ ، { وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ } ؛ بقَتْلِهِ غيرَ قاتلِ أخيهِ ؛ { وَلَعَنَهُ } ؛ أي بَاعَدَهُ من رحمتهِ ، { وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً } ؛ بجُرْأتِهِ على اللهِ بقتلِ نفسٍ بغير حقٍّ.

واختلفَ الناسُ في حُكْمِ هذه الآيةِ ، قالتِ الخوارجُ والمعتزلة : (إنَّهَا فِي الْمُؤْمِنِ إذا قَتَلَ مُؤْمِناً ، وَهَذا

الْوَعِيْدُ لاَحِقٌ بِهِ). وقالت المرجئةُ : (إنَّهَا نَزَلَتْ فِي كَافِرٍ قَتَلَ مُؤْمِناً ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ إذا قَتَلَ مُؤْمِناً فَإنَّهُ لاَ يُخَلَّدُ فِي النَّار).

وقالت طائفةٌ من أصحاب الحديث : كُلُّ مُؤْمِنٍ قَتَلَ مُؤْمِناً فَهُوَ خَالِدٌ فِي النَّار غَيْرَ مُؤَبَّدٍ يُخْرَجُ بشَفَاعَةِ الشَّافِعِيْنَ ، وَزَعَمَتْ : أَنَّهُ لاَ تَوْبَةَ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً.

والصحيحُ : أنَّ المؤمنَ إذا قَتَلَ مؤمناً متعمِّداً لا يَكْفُرُ بذلك ولا يخرجُ من الإيْمانِ ؛ إلاَّ إذا فَعَلَ ذلك مُسْتَحِلاً لهُ ، فإنْ أقِيدَ بمن قتلَه فذلك كفارةٌ له ، وإن كان تائباً من ذلك ولم يكن مُعَاداً كانت التوبةُ أيضاً كفَّارةً له ، فإنْ ماتَ بلا توبةٍ ولا قَوْدٍ فأمرهُ إلى الله ؛ إنْ شاءَ غفرَ لهُ وإن شاءَ عذبه على فعلهِ ثم يخرجهُ بعد ذلك إلى الجنَّةِ التي وعدَهُ بإيْمَانهِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ ، وتركُ الْمُجَازَاةِ بالوعيدِ يكونُ منه تَفَضُّلاً ، وتركُ الْمُجَازَاةِ بالوعدِ يكونُ خِلْفاً ، تعالَى اللهُ عن الخلفِ عُلُوّاً كبيراً.

والدليلُ على أنَّ المؤمنَ لا يصيرُ بقتلهِ المؤمنَ كافراً ، ولا خارجاً عن الإيْمان قَوْلُهُ تَعَالَى :

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُو } ؛ قال ابنُ عبَّاس : " نَزَلَتْ فِي مِرْدَاسِ بْنِ نُهَيْكٍ ؛ كَانَ مُسْلِماً لَمْ يُسْلِمْ مِنْ قَوْمِهِ غَيْرُهُ ، فَسَمِعُوا بسَرِيَّةٍ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم تُرِيْدُهُمْ فَهَرَبُوا كُلُّهُمْ ، وأَقَامَ الرَّجُلُ فِي غَنَمِهِ ؛ لأَنَّهُ كَانَ عَلَى دِيْنِ الْمُسْلِمِيْنَ ، فَلَمَّا رَأَى الْخَيْلَ خَافَ أنْ يَكُونُواْ مِنْ غَيْرِ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَأَلْجَأَ غَنَمَهُ إلَى عَاقُولٍ مِنَ الْجَبَلِ وَهُوَ الْعِوَجُ ، فَلَمَّا سَمِعَهُمْ يُكَبِّرُونَ عَرَفَ أنَّهُمُ الصَّحَابَةُ ؛ فَكَبَّرَ وَنَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ؛ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، فَغَشَاهُ أسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَقَتَلَهُ وَسَاقَ غَنَمَهُ ، وَكَانَ أمِيْرُ السَّرِيَّةِ غَالِبَ بْنَ فُضَالَةَ اللَّيْثِيّ ، ثُمَّ رَجَعُواْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذلِكَ وَجْداً شَدِيْداً وَقَالَ : " قَتَلْتُمُوهُ إرَادَةَ مَا مَعَهُ " فأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ؛ فَقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أسَامَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ اسْتَغْفِرْ لِي ، قَالَ : " فَكَيْفَ بلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ! ؟ " قَالَ ذلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ بَعْدَ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ ، وَأَمَرَهُ أنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً ".

وعن الحسن : (أنَّ أنَاساً مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ لَقُوا أنَاساً مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ ، فَشَدَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَمَعَهُ مَتَاعٌ ، فَلَمَّا غَشِيَهُ السَّيْفُ قَالَ : إنِّي مُسْلِمٌ ، فَكَذبَهُ ثُمَّ أوْجَرَ السِّنَانَ وَأخَذ مَتَاعَهُ ، وَكَانَ وَاللهِ قَلِيْلاً ، فَأُخْبرَ بذلِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

قالَ جُنْدُبُ بْنُ سُفْيَان : " وَلَقَدْ كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِيْنَ جَاءَ السَّيْفُ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ بَيْنَما نَحْنُ نَطْلُبُ الْقَوْمَ وَقَدْ هَزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى إذْ لَحِقْتُ رَجُلاً بالسَّيْفِ ، فَلَمَّا أحَسَّ السَّيْفَ وَاقِعٌ بِهِ ، قَالَ : إنِّي مُسْلِمٌ ؛ إنِّي مُسْلِمٌ ؛ فَقَتَلْتُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " قَتَلْتَ مُسْلِماً! " قَالَ : يَا نَبيَّ اللهِ ؛ إنَّهُ قَالَ ذلِكَ مُتَعَوِّذاً ، فَقَالَ : " فَهَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ! فَنَظَرْتَ أصَادِقاً هُوَ أمْ كَاذِباً " قَالَ : لَوْ شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ مَا كَانَ يُعْلِمُنِي ؛ هَلْ قَلْبُهُ إلاَّ بضْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ ، قَالَ : " فَأنْتَ قَتَلْتَهُ ؛ لاَ مَا فِي قَلْبِهِ عَلِمْتَ ؛ وَلاَ لِسَانَهُ صَدَّقْتَ ؛ إنَّمَا يُعَبرُ عَنْهُ لِسانُهُ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ اسْتَغْفِرْ لِي ، قَالَ : " لاَ أسْتَغْفِرُ لَكَ " قَالَ : فَمَا لَبثَ الْقَاتِلُ أنْ مَاتَ فَدَفَنُوهُ ؛ فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ إلَى جَانِب قَبْرِهِ ، فَعَادُواْ فَحَفَرُواْ لَهُ وَأمْكَنُوا فَدَفَنُوهُ ؛ فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ ثَلاَث مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأى ذلِكَ قَوْمُهُ اسْتَحْيَوا وَحَزِنُوا وَأخَذُواْ بِرِجْلِهِ فَأَلْقَوْهُ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَاب ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لاَ ؛ إنَّهَا لَتَنْطَبقُ عَلَى مَنْ هُوَ أعْظَمُ جُرْماً مِنْهُ ، وَلَكِنْ أرَادَ اللهُ أنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ حُرْمَةَ الدَّمِ ".

(٠/٠)

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ } ؛ أي لا يستوِي في الفَضْلِ والثَّواب القاعدونَ عنِ الجهادِ من المؤمنين الأصحَّاء ؛ الذين لا ضَرَرَ بهم من المرضِ والزَّمَانَةِ ؛ ولا عُذْرَ يَمنعُهم من الجهادِ ، { وَالْمُجَاهِدُونَ } ؛ في طاعةِ الله بالإنفاقِ من أموالِهم والخروج بأنفُسِهم.

رويَ : أنَّهُ نَزَلَ أوَّلاً (لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ) فَجَاءَ ابْنُ أمِّ مَكْتُومٍ وَرَجُلٌ آخَرُ مَعَهُ وَهُمَا أعْمَيَانِ ، فَقَالاَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أمَرَ اللهُ بالْجِهَادِ وَفَضَّلَ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ ، وَحَالُنَا عَلَى مَا تَرَى ، فَهَلْ لَنَا مِنْ رُخْصَةٍ ؟ وَاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَجَاهَدْنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ { غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ } أي غير أولي الضرر فِي الْبَصَرِ ، فَجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الأجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِيْنَ.

وروَى ابنُ أبي لَيْلَى ؛ قال : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ (لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ) قَالَ ابْنُ أمِّ مَكْتُومٍ : اللَّهُمَّ أنْزِلْ عُذْرِي ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ { غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ } فَوُضِعَتْ بَيْنَهُمَا ، وَكَانَ بَعْدُ ذلِكَ يَغْزُو وَيَقُولُ : إدْفَعُواْ إلَيَّ اللِّوَاءَ ؛ وَيَقُولُ : أقِيْمُونِي بَيْنَ الصَّفَّيْنِ).

وعن زيد بن ثابت قال : (كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي ، وَقَدْ أمْلَى عَلَيَّ قَوْلُهُ : { لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } فَعَرَضَ ابْنُ أمِّ مَكْتُومٍ فَثَقُلَتْ فَخِذُ رَسُولِ اللهِ صلى

الله عليه وسلم عَلَى فَخِذِهِ حَتَّى كَادَتْ تَنْحَطِمُ ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ { غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ }.

ومَن قرأ (غَيْرَ أوْلِي الضَّرَر) بالنصب فهو نصبٌ على الاستثناءِ ، كأنَّهُ قالَ : إلاَّ أوْلِي ، كما يقالُ : جاءَنِي القومُ غيرَ زيدٍ. ويجوزُ أن يكونَ على الحالِ ؛ أي لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ فِي حَالِ صِحَّتِهِمْ وَالمُجَاهِدُونَ ، وهذا كما يقالُ : جاءَنِي زيدٌ غيرَ مريضٍ ؛ أي صَحِيْحاً.

ومن قرأ (غَيْرُ) بالرفعِ ، فيجوزُ الرفعُ في استثناءِ الإثباتِ من النَّفي ، ويجوزُ أن يكونَ (غَيْرُ) صفةٌ للقاعدين ، وإنْ كان أَصلُ (غَيْرُ) أن تكونَ صفةً كما هو نكرةٌ. المعنى : لاَ يَسْتَوِي القاعدونَ الذي هُم غَيْرُ أولِي الضَّرَر والْمُجَاهِدُونَ في الفَضْلِ والثَّواب ، وإن كانوا كلُّهم مؤمنين.

واختارَ بعضُهم قراءةَ الرفعِ ؛ لأنَّ معنى الصِّفةِ على لفظةِ (غَيْرُ) أغلبُ من معنى الاستثناء ، واختارَ بعضُهم قراءةَ النصب لأن قولَه { غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ } نزلَ بعد قولهِ : (لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سبيلِ اللهِ) فيكونُ معنى الاستثناءِ به أَلْيَقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً } ؛ أي فَضِيْلَةً ومَنْزِلَةً ؛ { وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى } ؛ أي وَكِلاَ الفريقين الْمُجَاهِدُ والقاعدُ وعدَهم اللهُ الْحُسْنَى يعني الْجَنَّةَ بالإيْمان. وفي هذا دليلٌ أنَّ الجهادَ فرضٌ على الكفايةِ ؛ لأنه لو كان فَرْضاً على الأعيانِ لَمْ يَجُزْ أن يكونَ القاعدُ عنه موعودٌ بالْحُسنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً } ؛ أي فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهدين على القاعدينَ عنِ الجهادِ بغيرِ عُذر ثواباً حَسَناً في الجنَّة ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (أجْراً) نُصِبَ على التَّفسيرِ. وقال الأخفشُ : (عَلَى الْمُقَدَّر ؛ تَقْدِيْرُهُ : آجَرَهُمُ اللهُ أجراً).

والفائدةُ في تكرار لفظ التفضِيل : أنَّ في الأول بيانُ تفضيلِ مَن جاهدَ بالمال والنفسِ جميعاً ؛ وفي آخرِ الآية بيانُ تفضيلِ الْمُجَاهِدِ مُطْلقاً ، ويدخلُ فيه الْمُجَاهِدُ بالمالِ والنَّفْسِ ، والْمُجَاهِدُ بالمالِ دونَ النفس ، وبالنفس دونَ المالِ.

(٠/٠)

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً } ؛ هذا بدلٌ من قولهِ تعالى (أجْراً) أو صفةٌ له ؛ وهو موضع نصبٍ. وعن ابن مُحَيْرِيْزٍ أنهُ قال : (فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ سَبْعِيْنَ دَرَجَةً ؛ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيْرَةَ سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً لِلْجَوَادِ الْمُضَمَّرِ).

قولهُ : { وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً } ؛ أي غَفُوراً لذنب مَن جاهدَ ، رَحِيْماً إذ ساوَى في وعدِ الْحُسنى بينَ

مَن له العذرُ وبين مَن جاهدَ.

فإنْ قِيْلَ : كيفَ ذكرَ التفضيلَ في هذه الآية بدرجاتٍ ، وفي الآيةِ التي قبلها بدرجةٍ ؟ قُلْنَا : قالَ بعضُهم : أراد بذكرِ الدرجَة في الآيةِ الأُولى : الفضيلةَ والكرامةَ في الدُّنيا ، وبذكرِ الدرجاتِ درجاتِ الجنَّة منال في النَّعيمِ ، بعضُها أعلى من بعضٍ ، وذكرَ المغفرةَ لبيانِ خُلُوصِ نعيمِهم عنِ الكَدَر ، كما رويَ في الخبرِ : (أنَّ اللهَ يُنْسِيْهِمْ فِي الْجَنَّةَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الذُّنُوب فِي الدُّنْيَا حَتَّى لاَ يَلْحَقَهُمُ الْحَيَاءُ) ، وذكرَ الدرجةَ لبيانِ أنَّ اللهَ أعطاهُم ذلكَ النفعَ العظيم على جهةِ النِّعْمَةِ مع ما يضافُ إليه من الفضلِ بالزيادة في النِّعْمةِ. وقال بعضُهم : أرادَ بالتفضيلِ في الدرجةِ في الآية الأُولى تفضيلَ الْمُجَاهِدِيْنَ على القاعدينَ المعذورينَ ، وبالآيةِ الثانية تفضيلَهم على القاعدين الذين لا عُذْرَ لَهم.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)

قوله عزّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ تَكَلَّمُواْ بالإِسْلاَمِ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ – أيْ أظْهَرُوا الإِسْلاَمَ وَأسَرُّواْ النِّفَاقَ – فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ خَرَجُواْ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ إِلَى الْمُسْلِمِيْنَ ، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِيْنَ قَالُواْ وَهُمْ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ : غَرَّ هَؤُلاَءِ دِيْنُهُمْ ، فَقُتِلُواْ يَوْمَئِذٍ فَضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) ، وَقَالَتْ لَهُمْ : لِمَاذَا خَرَجْتُمْ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ وَتَرَكْتُمُ الْهِجْرَةَ؟! فَكَانَ سُؤَالُ الْمَلاَئِكَةِ لَهُمْ بهَذا عَلَى سَبِيْلِ التَّقْرِيْعِ.

ويجوزُ أن يكونَ معناهُ : فِيمَ كُنْتُمْ في المشركينَ أمْ فِي المسلمينَ ؟ { قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي مَقْهُورُونَ في أرضِ مكَّة ، فأخرَجُونا معهم كَارهينَ ، قالتِ الملائكةُ : { قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً } ؛ يعني أرضَ المدينةِ واسعة أمِيْنَةً ، { فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا } ؛ أي إليها ، وتخرجُوا من بين أظْهُرِ المشركينَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } نُصِبَ على الحالِ بمعنى تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ في حال ظُلْمِهِمْ لأنْفسِهم بالشِّركِ والنِّفَاقِ ، والأصلُ (ظَالِمِيْنَ) إلاَّ أن النونَ حُذِفَتْ استخفافاً وهي ثانيةٌ في المعنى ، فيكونُ هذا في معنى النكرةِ وإنْ أضيفَ إلى المعرفةِ ، كما في قولهِ تعالى : { هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ }[المائدة : ٩٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ } أي تَقْبضُ أرواحَهم عند الموتِ ، وإنَّما حُذفت التاءُ الثانية لاجتماع التَّاءين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ } ؛ أي أهلَ هذه الصِّفة مصيرُهم ومنْزِلتهم جهنمُ ؛ { وَسَآءَتْ

مَصِيراً } ؛ لِمن صارَ إليها ، واختلفوا في خَبَرِ : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } ؛ قال بعضُهم : خبرهُ : { قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ } ، أي قالوا لهم : فيما كنتم ، قال بعضُهم خبرهُ : { فَأُوْلَائِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ }. وفي قولهِ تعالى : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا } دليلٌ أنهُ لا عذرَ لأحدٍ في المقام على المعصيةِ في بَلَدِهِ لأجلِ الْمَالِ والوَلَدِ والأهلِ ، بل ينبغي أن يُفارقَ وَطَنَهُ إن لم يُمكنه إظْهَارُ الْحَقِّ فيهِ ، ولِهذا رويَ عن سعيدِ بن جُبير أنه قالَ : (إذا عُمِلَ بالْمَعَاصِي فِي أرْضٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا) ، ورويَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " مَنْ فَرَّ بدِيْنِهِ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ ، وَإنْ كَانَ شِبْراً اسْتَوْجَبَ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَكانَ رَفِيْقَ ابْرَاهِيْمَ وَمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم "

(٠/٠)

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً } ؛ استثناءٌ من قولهِ تعالى : { فَأُوْلَائِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ }[النساء : ٩٧] والمعنَى : إلاّ مَن صَدَقَ أنه مُسْتَضْعَفٌ من الشُّيوخِ والوِلْدَانِ ونِسَاءٍ لا يَجدونَ نَفَقَةَ الخروجِ إلى المدينة ولا يُمكنهم الخروجُ إليها ، ولا يعرفونَ الطريقَ حتى يُهاجروا ، والمعنَى : إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ المخلصينَ الْمُقْهُورِيْنَ بَمَكَّةَ لم يستطيعوا الْهِجْرَةَ ، ومُنِعُوا من اللُّحُوقِ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وهم يريدونَ اللُّحُوقَ بِهِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً } ؛ قال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ لاَ يَعْرِفُونَ طَرِيْقَ الْمَدِيْنَةِ). وقالُ ابنُ عبَّاس : (كُنْتُ أنَا وَأمِّي مِنَ الَّذِيْنَ لاَ يَسْتَطِيْعُونَ حِيْلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبيلاً ، وَكُنْتُ غُلاَماً صَغِيراً يَومَئِذٍ ، فَنَحْنُ مِمَّنِ اسْتَثْنَانَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ).

(٠/٠)

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأُوْلَائِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة من المستضعفين ، عَسَى اللهُ أنْ يَتَجَاوَزَ عنهُم ، و { عَسَى } مِن اللهِ كلمةُ إيجابٍ ؛ لأنه أرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ، والفائدةُ في ذِكْرِ هذا

اللفظِ أنْ يكونَ العبدُ بين الخوفِ والرَّجاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً } ؛ أي لَم يَزَلْ عَفُوّاً عن عبادهِ غَفُوراً لَهم.

(٠/٠)

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً } ؛ أي مَن يَخْرُجْ في سبيلِ الله الذي أمرَ اللهُ بالْهِجْرَةِ فيهِ وهو سبيلُ المدينةِ ؛ يَجِدْ في الأرض مُتَحَوَّلاً كثيراً وَمُتَزَحْزَحاً عَمَّا يكرهُ. وقولهُ تعالى : { وَسَعَةً } أي سَعَةً في الرِّزْقِ. وقال قتادةُ : (سَعَةً فِي إظْهَار الدِّيْنِ) وإنَّما قال ذلكَ كان يلحقُهم من الضِّيْقِ من جهةِ الكفَّار في إظهار دِينهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً } سَمِعَهَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي اللَّيْثِ شَيْخٌ كَبِيْرٌ يُقَالُ لَهُ جُنْدُعُ بْنُ ضَمِرَةَ فَقَالَ : أنَا وَاللهِ مِمَّنِ اسْتَثْنَانَا اللهُ تَعَالَى فَإنِّي لاَ أجِدُ حِيْلَةً ، وَاللهِ لاَ أبِيْتُ لَيْلَةً بَمَكَّةَ ، فَخَرَجُواْ بِهِ يَحْمِلُونَهُ عَلَى سَرِيْرِهِ ؛ فَأَتَواْ بِهِ التَّنْعِيْمَ فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ ، فَصَفَّقَ بِيَمِيْنِهِ عَلَى شِمالِهِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذِهِ لَكَ وَهَذِهِ لِرَسُولِكَ أبَايِعُكَ عَلَى مَا بَايَعَكَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَمَاتَ حَمِيْداً.

فَبَلَغَ ذلِكَ أصْحَابَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَكَانُواْ يَقُولُونَ : لَوْ بَلَغَ إلَيْنَا لَتَمَّ أجْرُهُ ، وَضَحِكَ الْمُشْرِكُونَ وَقَالُواْ : مَا أدْرَكَ مَا طلَبَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ { وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً }. أي مهاجِراً قومَهُ وأهلَه وولدَه إلى طاعةِ الله وطاعةِ رسوله ؛ { ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ } ؛ في الطريقِ ؛ { فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } ؛ فقد وجبَ ثوابهُ على اللهِ الْمَلِيءُ الوفِيُّ بوعدهِ ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً } ؛ بما كان منهُ في الشِّرْكِ ؛ { رَّحِيماً } ؛ بهِ في الإسلامِ.

(٠/٠)

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلَاوةِ } ؛ أي إذا سافرْتُم في الأرضِ ؛ لأن الخروجَ إلى الصحراءِ أو القصدَ إلى القرية القريبةِ لا يسمَّى ضَرْباً في الأرضِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } أي ليسَ عليكم حَرَجٌ وَمَأْثَمٌ في أن تَقْصُرُوا من الصلاةِ ، يعني من أربعِ رَكَعَاتٍ إلى ركعتين ، { إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ } ؛ أي إنْ عَلِمْتُمْ أنْ يَغْتَالَكُمُ ، { الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ ويقتلُوكم ، { إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً } ؛ أي عَدُوّاً ظاهِرَ العداوة ، يُقبدون عداوتَهم لكم.

وفي الآيةِ ذكرُ القَصْرِ من الصلاةِ بين شَرْطَيْنِ ، وأجمعتِ الأُمَّةُ أن أصلَ القَصْرِ لا يَتَعَلَّقَ بهما وأن كلَّ واحدٍ منهما يؤثِّر في القصرِ نوعَ تأثيرٍ ، فتأثيرُ السَّفرِ في القصرِ في العددِ في الصَّلاة الرباعيَّة ، وتأثيرُ الخوفِ في القصرِ في أركان الصَّلاة إذا خافَ إنْ قامَ في الصلاة أن يراهُ العدوُّ ، أو خاف أن ينزل عن الدابَّة أن يدركهُ العدوُّ ، وكان لهُ ترك القيامِ ، وأنْ يُومِئَ على الدابَّة ، فيحتملُ أن حرفَ العطفِ مضمراً في قولهِ : { إِنْ خِفْتُمْ } كأنهُ قال : وإنْ خِفْتُمْ أن يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفَرُوا فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ.

وقال الحسنُ : (صَلاَةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ ، فَإذا قامَ الْحَرْبُ فَرَكْعَةٌ) وهذا اللفظُ يقتضي القصرَ الذي هو في غاية في القصرِ متعلقٌ بشرطين على مذهبِهِ. ورويَ : " أنَّ رَجُلاً سَأَلَ عُمَرَ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ : كَيْفَ يَقْصُرُ النَّاسُ وَقَدْ أمِنُواْ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ ؛ حَتَّى سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ ذلِكَ فَقَالَ : " صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ بهَا عَلَيْكُمْ ألاَ فَاقْبَلُواْ صَدَقَةَ اللهِ عَلَيْنَا " يقتضي إسقاطَ الفرضِ عنَّا. وفي قولهِ صلى الله عليه وسلم : " فَاقْبَلُواْ صَدَقَتَهُ " دليلٌ أنَّ القصرَ عَزِيْمَةٌ لا رُخْصَةٌ ؛ لأن ظاهرَ الأمرِ على الوجوب ، ولِهذا قال أصحابُنا : إنَّ المسافرَ إذا صَلَّى الظهرَ أربعاً ، ولم يقعُد في الثانيةِ قَدْرَ التَّشَهُّدِ فَسَدَتْ صلاتُه ، كمصلِّي الفجرِ أربعاً.

(٠/٠)

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ } ؛ الآيةُ ، قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا رَأى الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه

وسلم وَأَصْحَابَهُ قَامُواْ إِلَى صَلاَةِ الظُّهْرِ وَهُوَ يَؤُمُّهُمْ ؛ نَدِمُواْ عَلَى تَرْكِهِمْ الإِقْدَامَ عَلَى قِتَالِهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : دَعُوهُمْ ؛ فإنَّ بَعْدَهَا صَلاَةٌ هِيَ أحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَوْلاَدِهِمْ – يُرِيْدُونَ الْعَصْرَ – فَإِذا رَأَيْتُمُوهُمْ قَامُواْ إِلَيْهَا فَشُدُّوا عَلَيْهِمْ ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام بِهَذِهِ الآيَةِ وَأَطْلَعَ اللهُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَصْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ ، وَعَنْ هَذا كَانَ إِسْلاَمُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيْدِ حِيْنَ عَرَفَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم اطَّلَعَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ قَصْدِ الْمُشْرِكِيْنَ فِي السِّرِّ فِيْمَا بَيْنَهُمْ).

ومعنى الآيةِ : وإذا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ معَ المؤمنينَ في الغَزْو فابتدأتَ في صلاةِ الخوفِ ؛ فَلْيَقُمْ جَمَاعَةٌ منهُم معكَ في الصلاةِ ؛ وَلْتَكُنْ أسلحتُهم معَهم في صلاتِهم ؛ لأنَّ ذلك أهْيَبُ للعدوِّ ، فإذا سَجَدَتِ الطائفةُ التي معكَ وصَلَّتْ ركعةً ، فلينصرِفُوا إلى المصاف وليقفُوا بإزَاءِ العَدُوِّ ؛ { وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ } ؛ وهمُ الذينَ كانوا بإزاءِ العدوِّ ، ولم يصلُّوا معكَ في الركعةِ الأُولى ؛ فليصلُّوا معكَ الركعةَ الأُخرى ، ولْتَكُنْ أسلحتُهم معَهم في الصَّلاةِ ، ولم يذكرْ في الآية لكلِّ طائفةٍ إلاّ ركعةً واحدةً.

وفي صلاةِ الخوفِ خلافٌ بين العلماء ؛ قال بعضُهم : إنَّها غير مشروعةٍ بعدَ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو روايةٌ عن أبي يوسف وهو قولُ الحسنِ بن زياد ؛ لأنَّ في هذه الآيةِ ما يدلُّ على كون النبيِّ صلى الله عليه وسلم شَرَطٌ في إقامةِ صلاة الخوف ؛ ولأنَّها إنَّما جازَتْ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم لِيَسْتَدْرِكَ الناسُ فضيلةَ الصلاةِ خَلْفَهُ ؛ لأنَّ إمامةَ غيرِهِ لَمْ تكن لتقومَ مقامَ إمامتِهِ.

وذهبَ أكثرُ العلماء إلى أنَّ صلاةَ الخوف مشروعةٌ بعد النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأنَّ الخطابَ في هذه الآيةِ وإنْ كان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فالأئمَّةُ بعدَه يقومون مقامَه كما في قولِهِ تعالى : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً }[التوبة : ١٠٣] ونحوِ ذلك من الآياتِ.

واختلفوا في كيفيَّة صلاةِ الخوف ، فقال أبُو حَنِيْفَةَ ومحمدٌ : (يَجْعَلُ الإِمَامُ النَّاسَ طَائِفَتَيْنِ ؛ طَائِفَةٌ بإزَاءِ الْعَدُوِّ ، وَطَائِفَةٌ مَعَهُ ؛ فَيُصَلِّي بِهِمَا رَكْعَةً رَكْعَةً ، ثُمَّ تَنْصَرِفُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ إِلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ ؛ وَتَجِيْءُ الأُخْرَى فَيُصَلِّي بِهِمْ رَكْعَةً ، وَيَتَشَهَّدُ وَيُسَلِّمُ. ثُمَّ تَرْجِعُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ إِلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ بِغَيْرِ سِلاَمٍ ، وَتَأْتِي الأُوْلَى فَتَقْضِي الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ وحْدَاناً بِغَيْرِ قِرَاءَةٍ ، فَإِذا سَلَّمَتْ وَقَفَتْ بإزَاءِ الْعَدُوِّ ، وَجَاءَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ فَتَقْضِي الرَّكْعَةَ الأُوْلَى وحْدَاناً بِقِرَاءَةٍ.

وعن أبي يوسُف : (إذا كَانَ الْعَدُوُّ فِي وَجْهِ الْقِبْلَةِ ؛ وَقَفَ الإِمَامُ وَجَعَلَ النَّاسَ خَلْفَهُ صَفَّيْنِ ؛ فَافْتَتَحَ بِهِمُ الصَّلاَةَ مَعاً ، فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَةً ؛ فإذا سَجَدَ الإِمَامُ سَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الأَوَّلُ ، وَوَقَفَ الثَّانِي يَحْرِسُونَهُمْ ، فَإِذا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي ؛ وَتَأَخَّرَ الأَوَّلُ ، وَيَقُومُ الصَّفُّ الثَّانِي فَيَرْكَعُ بِهِمْ جَمِيْعاً ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَسْجُدُ الصَّفُّ الْمُتَقَدِّمُ سَجْدَتَيْنِ ، وَالصَّفُّ الآخَرُ يَحْرِسُونَهُمْ ، ثُمَّ يَسْجُدُ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ سَجْدَتَيْنِ لأَنْفُسِهِمْ ؛ ثُمَّ يَتَشَهَّدُ الإِمَامُ وَيُسَلِّمُ بِهِمْ جَمِيْعاً).

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ } ؛ يعني صَلاَةَ الخوفِ إذا فَرَغْتُمْ منها فَاذْكُرُوا اللهَ ؛ أي صَلُّوا قِيَاماً للصحيحِ ؛ وقُعُوداً للمريضِ ؛ وَعَلَى جُنُوبكُم للمرضَى والجرحَى الذين لا يستطيعون الجلوسَ. وَقِيْلَ : معناهُ : فَاذْكُرُوا اللهَ بتوحيدِه وتسبيحه وشُكْرِهِ على كلِّ حالٍ. قال ابنُ عبَّاس : (لَمْ يَعْذُر اللهُ أحَداً فِي تَرْكِ ذِكْرِهِ إلاَّ الْمَغْلُوبَ عَلَى عَقْلِهِ).
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ } ؛ أي رَجَعْتُمْ من سفرِكم وزالَ عنكمُ الخوفُ والمرض والقتالُ { فَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ } أي أتِمُّوها أربعاً بركوعِها وسُجودِها وسائرِ شروطها ، { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً } ؛ أي فَرْضاً مَفْرُوضاً مُوَقَّتاً أوقاته ، ويقالُ : معلوماً فَرْضُهُ للمسافرين ركعتان ولِلْمُقِيْمِ أربعُ ركعاتٍ. وقال الأعمشُ : (مَوْقُوتاً ؛ أيْ مُؤَقَّتاً).

(٠/٠)

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ } ؛ أي لا تَضْعُفُوا في طلب ابتغاء القوم أبي سفيان وأصحابه لِمَا أصابَكم من القتلِ والجراحات يوم أُحُدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ } ؛ أي إنْ كُنْتُمْ تَأْلَمُونَ مِن الجِرَاحِ فَلَهُمْ مثلُ ذلك ، والمعنَى : إنْ كان لكم صَارِفٌ عن الحرب وهو أنكم تألَمُونَ مِن الجراحِ فلهم مثلُ ذلك من الصَّارِفِ ، ولكم أسبابٌ داعية إلى الحرب ليست لَهم ، وهو أنَّكم ترجونَ الثوابَ والنَّصْرَ من اللهِ ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً } ؛ بمصالِحكُم { حَكِيماً } ؛ فيما يَأْمُرُكُمْ به.

(٠/٠)

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَار يُقالُ لَهُ طُعْمَةُ بْنُ أبَيْرِق ؛ سَرَقَ دِرْعاً مِنْ جَارٍ لَهُ يقالُ لَهُ : قتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ، وَكَانَتِ الدِّرْعِ فِي غِرَارَةٍ وَجِرَابٍ فِيْهِ دَقِيْقٌ ، فَانْتَثَرَ الدَّقِيْقُ مِنَ الْمَكَانِ الّذِي سَرَقَهُ إِلَى بَاب مَنْزِلِهِ ، فَفُطِنَ بِهِ أَنَّهُ هُوَ السَّارِقُ ؛ فَمَضَى بالدِّرْعِ إِلَى يَهُودِيٍّ يُقَالُ لَهُ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ فَأَوْدَعَهُ إِيَّاهَا ، فَالْتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ ، فَحَلَفَ لَهُمْ مَا أخَذهَا وَلاَ لَهُ عِلْمٌ ، فَقَالَ أصْحَابُ الدِّرْعِ : لَقَدْ أدْلَجَ عَلَيْنَا وَأخَذهَا ، وَطَلَبْنَا أثَرَهُ حَتَّى دَخَلْنَا دَارَهُ ، وَلَقِيْنَا الدَّقِيْقَ مُنْتَثِراً ، فَلَمَّا حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُواْ أثَرَ الدَّقِيْقِ حَتَّى انْتَهَوا إِلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ وَطَلَبُوهُ ، فَقَالَ : دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أبَيْرِق ، وَشَهِدَ لَهُ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذلِكَ ، فَقَالَ قَوْمُ طُعْمَةَ : انْطَلِقُواْ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَنُكَلِّمُهُ فِي صَاحِبنَا نُعذُرُهُ وَنَتَجَاوَزُ عَنْهُ ، فَإِنَّ صَاحِبَنَا بَرِيْءٌ مَعْذُورٌ. فَأَتَواْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَكَانُواْ أهْلَ لِسَانٍ وَبَيَانٍ ، فَسَأَلُوهُ أنْ يَعْذُرَهُ عِنْدَ النَّاسِ ؛ فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَعْذُرَهُ وَيُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

وفي رواية عن ابنِ عبَّاس : (أنَّ طُعَمَةَ سَرَقَ دِرْعاً ؛ وَكَانَ الدِّرْعُ فِي جِرَابٍ فِيْهِ نِخَالَةٌ ، فَخَرَقَ الْجِرَابَ حَتَّى كَانَ يَتَنَاثَرُ النِّخَالَةُ بطُولِ الطَّرِيْقِ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى دَارَ زَيْدِ بْنِ السَّمِيْنِ الْيَهُودِيِّ وَتَرَكَهُ عَلَى بَاب دَارِهِ ، وَحَمَلَ الدِّرْعَ إِلَى بَيْتِهِ ، فَلَمَّا أصْبَحَ صَاحِبُ الدِّرْعِ جَاءَ إِلَى زَيْدِ بْنِ السَّمِيْنِ عَلَى أثَرِ النِّخَالَةِ ، وَحَمَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَقْطَعَ يَدَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). إنا أنزلنا إليك يا مُحَمَّدٌ القُرْآنَ إنْزالاً بالحقِّ ، وَقِيْلَ : (بالْحَقِّ) أي بالأمرِ والنَّهي والفصلِ لتحكمَ بين الناسِ بما أعلمَكَ اللهُ وأوحَى إليكَ ، { وَلاَ تَكُنْ } ؛ يَا مُحَمَّدُ ؛ { لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } ؛ أي لِطُعْمَةَ وقومِهِ مُعِيْناً.

(٠/٠)

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ } ؛ أي تُبْ إلى اللهِ واستغفرْهُ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ من قطعِ يد زَيْدِ بن السَّمين. وقال الكلبيُّ : (مِنْ هَمِّكَ بالْيَهُودِيِّ أنْ تَضْرِبَهُ). وقال مقاتلُ : (وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ جِدَالِكَ الَّذِي جَادَلْتَ عَنْ طُعْمَةَ) ، { إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً } ؛ لِمَنْ يستغفرُهُ ؛ { رَّحِيماً } ؛ بالتَّائبين.

(٠/٠)

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } ؛ ولا تُخَاصِمْ عن الذين يَظْلِمُونَ أنفسهَم بالخيانةِ والسَّرقة ورمي اليهوديِّ بها ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً } ؛ أي خَائِناً في الدِّرعِ ؛ { أَثِيماً } ؛ في رَمْيِهِ اليهوديَّ. وَقِيْلَ : الْخَوَّانُ : المكتسبُ للإثْمِ ، والآثِمُ الفاجرُ بالكذب ورمي البريءِ ، وإنَّما قال : (يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ) وإنْ كانوا خَانُوا غيرَهم ؛ لأن مضرَّةَ خيانتِهم راجعةٌ إليهم ، كما يقالُ : فَمَنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ مَا ظَلَمَ إلاَّ نَفْسَهُ ، وإنَّما قال : (خَوَّاناً) ولم يقل خَائِناً لعظيمِ أمرِ الخيانَةِ.

(٠/٠)

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } ؛ معناهُ : يستخفِي قومُ طُعْمَةَ ؛ أي يُسِرُّونَ من الناسِ وهم يعلمون أنهُ سارقٌ ولا يستَتِرُون من اللهِ ؛ أي لا يُمكنهم الاستخفاءُ منه ، فإنَّ سِرَّهُمْ وعلانيتَهم عند الله ظَاهِرٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ مَعَهُمْ } وهو شاهدٌ لأفعالِهم { إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } أي يُدَبِرُونَ ، ويقولون بالليلِ قَوْلاً لا يرضاهُ اللهُ ؛ وهو اتِّفاقُ قول طُعْمَةَ على أنْ يَرْمُوا اليهوديَّ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً } ؛ أي عالِماً لا يفوتهُ شيء كما لا يفوتُ الْمُحِيْطَ بالشيءِ.

(٠/٠)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { هَا أَنْتُمْ هَاؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أرادَ أن يقطعَ طُعْمَةَ في السرقةِ بعد هذه الآيات ؛ فجاءَ قومُه شَاكِّينَ في السِّلاحِ فجاجلُوا عنه وهربُوا به ، فأنزل اللهُ هذه الآية ، ومعناها : هَا أَنْتُمْ يَا قومَ طُعْمَةَ خاصمتُم النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن طعمةَ وعن خيانتهِ في دار الدُّنيا.

وفي قراءة أبيّ : (جَادَلْتُمْ عَنْهُ فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إذا أخَذهُ بعَذَابِهِ وأَدْخَلَهُ النَّارَ) ؛ { أَمْ مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } ؛ يتوكَّلُ بهم ويصلحُ أمرَهم ويحفظَهم من عذاب الله.

(٠/٠)

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ } ؛ أي ومَن يَعْمَلُ سوءاً " ويرمي " به غيرَه نحو السَّرقةِ والقتلِ والقذْفِ ، أو أنه يَظْلِمُ نفسَه نحو الكذب الكذب واليمين الفاجِرَةِ وشرب الْخَمْرِ وتركِ الفرائض ؛ { ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ } ؛ بالتوبةِ ؛ { يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً } ؛ للمستغفرينَ التائبين ؛ { رَّحِيماً } ؛ بهم بعدَ التوبةِ. وإنَّما شُرطت التوبة ؛ لأن الاستغفارَ لا يكونُ توبةً بالإجماع ما لم يَقُلْ معهُ : تُبْتُ وأسأتُ ولا أعودُ إليه أبداً ؛ فَاغْفِرْ لِي يا رب. وَقِيْلَ : معناهُ : مَن يعمل سوءاً بسَرِقَةِ الدرعِ ، أو يظلم نفسَه برميهِ البريءَ بالسرقةِ.

وَقِيْلَ : معناهُ من يعمل سُوءاً أو شِرْكاً { أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ } يعني ما دونَ الشِّركِ ، { ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ } أي يتوبَ إلى اللهِ ، { يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً }. وَقِيْلَ : أرادَ بالسُّوء : الكبيرةَ ، ويَظْلِم النفسَ : الصغيرةَ.

وعن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ؛ قالَ : (حَدَّثَنِي أبُو بَكْرٍ وَصَدَقَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قَالَ : مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْباً ثُمَّ يَتَوَضَّأَ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ إلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ ، وَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ { وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ } الآيةُ).

(٠/٠)

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ } ؛ أي مَنْ يعمَلْ معصيةً فإنَّما عقوبته على نفسهِ ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } ؛ أي لَمْ يزل عَلِيْماً بكلِّ ما يكونُ ، حَكِيماً فيما حَكَمَ به من القَطْعِ على السارقِ. وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً) يعني بيَمِيْنِهِ بالباطلِ ، فَإِنَّما يَضُرُّ به نفسَهُ ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً } بسارقِ الدِّرعِ ، { حَكِيماً } حَكَمَ بالقطعِ على طُعْمَةَ بالسَّرقةِ.

وقد روي : أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؛ عَرَفَ قَوْمُ طُعْمَةَ كُلُّهُمْ أَنَّهُ هُوَ الظَّالِمُ ، فَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِ وَقَالُواْ لَهُ : اتَّقِ اللهَ وَائْتِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَبُوءُ بالذنْب ، فَقَالَ : لاَ ؛ وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ مَا سَرَقَهَا إِلاَّ الْيَهُودِيُّ. فنزل قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً } ؛ أي وَمن يعمل معصيةً بغيرِ عمدٍ أو متعمِّداً ثُمَّ يَرْمِ بَرِيْئاً ؛ فقد استوجبَ عقوبةَ الْبُهْتَانِ برميهِ غيرَهُ بشيء لم يفعلَهُ { وَإِثْماً مُّبِيناً } أي ذنْباً بَيِّناً ظَاهِراً.

وَقِيْلَ : معناهُ : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً) أي بيمينهِ الكاذبة (أَوْ إِثْماً) بسرقةِ الدِّرْعِ وَرَمْيِ اليهودي. والْبُهْتَانُ : بَهُتَ الرَّجُلِ بمَا لَمْ يَفْعَلْهُ. وقال الزجَّاج : (الْبُهْتَانُ الْكَذِبُ الَّذِي يُتَحَيَّرُ مِنْ عِظَمِهِ).

(٠/٠)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ } ؛ أي لَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عليكَ يا مُحَمَّدُ بالنبوَّة والإسلامِ ؛ وَرَحْمَتُهُ بإرسال جبريلَ عليه السلام إليكَ بالقُرْآن الذي فيه خَبَرُ ما غاب عنكَ لقصدتَ من قومِ طُعْمَةَ أن يُخْطِئُوكَ ويحملوكَ أن تَحْكُمَ بما هو غيرُ واجبٍ في الباطنِ ، وأن تُبَرِّئَ الخائنَ من غيرِ حقيقةٍ ؛ { وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ } ؛ أي وما يكون إضْلالُهم إلاَّ على أنفسِهم ، { وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ } ؛ ولا ينقصونَكَ شيئاً مع عِصْمَةِ الله تعالى إيَّاكَ ؛ { وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ؛ أي القُرْآنَ ومعرفةَ الحلالِ والحرامِ ؛ { وَعَلَّمَكَ } ؛ بالْوَحْيِ ؛ { مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } ؛ قَبْلَهُ ؛ { وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً } ؛ بالنبوَّة والإسلامِ.

وفي هذه الآياتِ دلالةٌ أنه لا يجوزُ لأحدٍ أن يخاصِمَ عن غيرهِ في إثباتِ حقٍّ أو نفيهِ وهو غيرُ عالِمٍ بحقيقةِ أمرهِ ، وأنه لا يجوزُ للحاكمِ الْمَيْلُ إلى أحدِ الخصمين ، وإن كان أحدُهما مُسلماً والآخرَ كافراً ، وأن وجودَ السرقةِ في يدَيّ إنسانٍ لا يوجبُ الحكمَ بها عليهِ.

(٠/٠)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ } ؛ أي لا خيرَ في كثيرٍ من أسرار قومٍ طُعْمَةَ فيما يريدون بينَهم إلاّ نَجْوَى مَن أمرَ بصدقةٍ فتصدَّق بها ، ويجوزُ أن يكون معنى (إلاّ مَنْ أمَرَ) الاستثناء ليس من الأوَّل على معنى (لكن) فيكون موضع (مَنْ أمَرَ) نصباً على الإضمار ، والأوَّل موضعهُ خفضٌ.

وذهب الزجَّاج : (إلَى أنَّ النَّجْوَى فِي اللُّغَةِ : مَا تَفَرَّدَ بِهِ الْجَمَاعَةُ وَالاثْنَانِ ؛ سِرّاً كَانَ ذلِكَ أوْ ظَاهِراً).

وقال : (مَعْنَى : نَجَوْتُ الشَّيْءَ إذا خَلَّصْتَهُ وَأفْرَدْتَهُ ، وَنَجَوْتُ فُلاناً إذا اسْتَسَرْتُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ مَعْرُوفٍ } أي أوْ أمرٍ بمعروفٍ ، ويسمى البرُ كلهُ معروفاً ، قال صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ، وَأَوَّلُ أهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً أهْلُ الْمَعْرُوفِ ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ } يعني الإصلاحَ بين المتخاصمين ، وإصلاحَ ذاتِ البَيْنِ ، قال صلى الله عليه وسلم : " ألاَ أخْبِرُكُمْ بأفْضَلِ دَرَجَةٍ مِنَ الصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ " قَالُواْ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " إصْلاَحُ ذاتِ الْبَيْنِ ، وَفَسَادُ ذاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ ، فَلاَ أقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّيْنَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : من يفعل ذاك البرِّ والصلاحَ والصدقةَ لطلب مَرْضَاةِ اللهِ تعالى ، لا لِلرِّيَاءِ والسُّمعةِ ، { فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ } ؛ نُعْطِيْهِ ؛ { أَجْراً عَظِيماً } ؛ أي ثَوَاباً وَافِراً في الجنَّة.

(٠/٠)

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ نَزَلَتْ فِي

طُعَمَةَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ ، وَعَلِمَ قَوْمُهُ أَنَّهُ ظَالِمٌ ، وَخَافَ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ الْقَطْعَ وَالْفَضِيْحَةَ ؛ هَرَبَ إِلَى مَكَّةَ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، ومعناها : ومن يخالفِ الرسولَ في التوحيدِ والحدُودِ مُعَانداً من بعدِ ما تَبَيَّنَ له حكمُ اللهِ ، ويتَّبع ديناً غيرَ دينِ المؤمنين وهو دينُ أهلِ مكَّة ؛ { نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى } ؛ أي نَكِلُهُ في الآخرةِ إلى ما تولَّى. قِيْلَ : وَنَتْرُكُهُ إلى اختارَ لنفسهِ في الدُّنيا ؛ أي لا يتولَّى اللهُ نَصْرَهُ ولا معونتَه ، { وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ } ؛ أي وَنُلْزِمُهُ دخولَ جهنَّم في الآخرةِ ، { وَسَآءَتْ } ؛ جهنَّمُ ؛ { مَصِيراً } ؛ أي لِمن صارَ اليها.

فَلَمْ يَتُبْ طُعْمَةُ وَلَمْ يَنْدَمْ ، وَأَقَامَ عَلَى كُفْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَقَبَ بَيْتَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ؛ فَسَقَطَ عَلَيْهِ حَجَرٌ فَنَشَبَ فِيْهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَدْخُلَ وَلاَ يَخْرُجَ حَتَّى أَصْبَحَ ؛ فَأَخَذَهُ لِيَقْتُلَهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : دَعُوهُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ لَجَأَ إِلَيْكُمْ وَتَحَرَّمَ بِكُمْ فَاتْرُكُوهُ ؛ فَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ ، فَخَرَجَ مَعَ قَوْمٍ مِنَ التُّجَّارِ نَحْوَالشَّامِ ؛ فَنَزَلُواْ مَنْزِلاً فَسَرَقَ بَعْضَ مَتَاعِهِمْ وَهَرَبَ ، فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ ؛ فَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلُوهُ ؛ فَصَارَ قَبْرُهُ تِلْكَ الْحِجَارَةَ.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَآءُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي وَحْشِيٍّ قَاتِلُ حَمْزَةَ رضي الله عنه). والمعنى : إنَّ الله لا يغفرُ شِرْكَ الْمُشْرِكِ به إنْ ماتَ بغير توبةٍ ؛ ويغفرُ ما دون الشِّرْكِ لِمن يشاءُ من أهلِ الإسلامِ من غيرِ توبةٍ.

وقال الضحَّاك عن ابنِ عبَّاس : (إنَّ شَيْخاً مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا نبيَّ اللهِ ؛ إِنِّي شَيْخٌ مَنْهَمِكٌ فِي الذُّنُوب وَالْخَطَايَا ؛ إلاَّ أَنِّي لاَ أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً مُذْ عَرَفْتُهُ وَآمَنْتُ بِهِ ؛ ولَمْ أَتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً ، وَلَمْ أَقَعْ عَلَى الْمَعَاصِي جُرْأَةً عَلَى اللهِ وَلاَ مُكَابَرَةً لَهُ ، وَلاَ تَوَهَّمْتُ طَرْفَةَ عَيْنٍ أَنْ أَعْجِزَ اللهَ هَرَباً ، إِنِّي لَنَادِمٌ تَائِبٌ مُسْتَغْفِرٌ ، فَمَا لِي عِندَ اللهِ؟. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { نَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَآءُ }. { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً } ؛ أي فقد ذهَبَ عن الصواب والْهُدَى ذهاباً بعيداً ، وَحُرِمَ الخيرَ كلَّه.

والفائدةُ في قوله { بَعِيداً } أنَّ الذهابَ عن الجنَّة على مراتبَ أبعدُها الشِّرْكُ باللهِ تعالى.

(٠/٠)

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً } ؛ أي إن يعبدُ أهل مكَّةَ من دون الله إلاّ الأصنامَ وَالأوثانَ ، وسمَّاهَا إناثاً ؛ لأنَّهم سَمَّوها باسمِ الإنَاثِ : اللاَّتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاتَ ، فعبدُها مع اعتقادِهم بنُقصَانِ مراتب الإناثِ عن الذُكور ؛ لأنَّ الإناثَ من كلِّ جنسٍ أرَاذلُهُ ، وَقالُ : إنَاثاً ؛ أي مَوَاتاً ؛ لأنَّ الْمَوَاتَ كلَّها يُخْبرُ عنها كما يخبرُ عن الإناثِ ، يقالُ : هذه الأَحْجَارُ تُعْجِبُنِي ؛ ((كما تقولُ : هذه المرأة تُعجبني)).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً } ؛ أي ما يريدون بِعِبَادَةِ الأوثان إلاَّ عبادةَ الشَّيطانِ ، وَالْمَرِيْدُ : الْعَاتِي الْخَارجُ عَنِ الطّاعَةِ ، ويسمَّى الْمَرِيْدُ مَرِيْداً لِتَعَرِّيْهِ عَنِ الْخَيْرِ ، يقال : شجرةٌ مَرْدَاءُ ؛ أي لا وَرَقَ عليها ، وغلامٌ أمْرَدٌ : إذا لم يكن على وجههِ شعرٌ.

(٠/٠)

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً } أرادَ به الشيطانَ أبعَدَهُ من رحمتهِ إلى عقابهِ بالحكم لهُ بالخلودِ في جهنَّم ، ويسقطُ بهذا قولُ من قالَ : كيفَ يَصحُّ أن يقالَ : (لَعَنَهُ اللهُ) وهو في الدُّنيا لا يخلُو من نِعْمَةٍ تَصِلُ إليه من الله في كلِّ حال ؟ الجواب لا يعتدُّ بتلك النعمة مع الْحُكْمِ له بالخلودِ في النَّار.

قوله تعالى : { لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً } أي قالَ إبليسُ : لأَتَّخِذنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْباً معلُوماً ، فكلُّ ما أطِيْعَ فيه إبليسُ فهو مفروضٌ له.

والفرضُ في اللغة : الْقَطْعُ ؛ ومنهُ الْفُرْضَةُ أي الثُّلْمَةُ ، والفرضُ في القوس : ما شَدَّ به الوترُ ، والفريضةُ في العباداتِ : الأمرُ الْحَتْمُ الْقَاطِعُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً }[البقرة : ٢٣٧] أي جعلتم لَهُنَّ قطيعةً من المالِ ، وأما قولُ الشاعر : إذا أكَلْتَ سَمَكاً وَفَرْضاً ذهَبْتَ طُولاً وذَهَبْتَ عَرْضَافالفرضُ هنا التَّمْرُ ، سُمي فرضاً لأنه يؤخذُ من فرائضِ الصَّدقةِ.

(٠/٠)

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ } ؛ حكايةُ قول إبليسَ ؛ أي لأُضِلَّنَّهُمْ عن الحقِّ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ أنَّهُ لا جَنَّة ولا نارَ ولا بعثَ ولا حسابَ ، ولأُرِيحنَّهم طولَ الحياةِ في الدُّنيا ، { وَلأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ } ؛ أي بتَشْقِيْقِ آذانِ الأنعَامِ ؛ وهي الْبُحِيْرَةُ التي كانوا يفعلونَها نُسُكاً وعبادةً للأوثانِ ، والقطع. { وَلأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وقتادة والحسنُ والضحَّاك : (فَلْيُغَيِّرُنَّ دِيْنَ اللهِ) نَظِيْرُهُ{ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ }[الروم : ٣٠] أي لدينِ الله ، كقولهِ : { فَلاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }[الروم : ٣٠]. وقال عكرمةُ : (مَعْنَاهُ : فَلِيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ بالْخَصْيِ وَالْوَشْمِ وَقَطْعِ الآذانِ وَفَقْئِ الْعُيُونِ). قال مجاهدُ : (كَذبَ عِكْرِمَةُ ؛ إنَّما هُوَ دِيْنِ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً } ؛ أي مَن يَتَّخِذْهُ ذناصِراً من دون اللهِ فقد غُبنَ غُبناً ظاهراً ؛ لأنه خَسِرَ الجنَّةَ والنعيمَ الذي فيها.

فإن قيل : كيفَ عَلِمَ إبليسُ أنهُ يَتَّخِذُ من عبادِ الله نصيباً ؟ فيه أجوبةٌ ؛ منها : أنَّ اللهَ لَمَّا خاطبَهُ بقولهِ{ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }[هود : ١١٩] عَلِمَ إبليسُ أنهُ يَنَالُ من ذرِّيةِ آدمَ ما تَمَنَّى. ومنها : أنه لَمَّا وَسْوَسَ لآدمَ فنَالَ منهُ ما نالَ ، طَمِعَ في ذرِّيته. ومنها : أن إبليسَ يلَمَّا عَايَنَ الجنَّة والنارَ عَلِمَ أنَّ لَهَا سُكَّاناً من الناسِ).

وقوله : { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ } ؛ أي يَعِدُهُمْ أن لاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ ؛ وَيُمَنِّيْهِمْ طُولَ البقاءِ في الدُّنيا ودوامَ نعيمِها ويُؤْثِرُوهَا على الآخرةِ ، { وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً } ؛ أي بَاطِلاً ، والْغُرُورُ : إيْهَامُ النَّفْعِ فيما فيه ضررٌ.

(٠/٠)

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفةِ مستقرُّهم جهنَّمُ ، { وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً } ؛ أي مَخْلَصاً ، يقال : حَاصَ يَحِيْصُ حيْصاً ؛ إذا عَدَلَ عن الشيءِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ أي أنْهَارُ الماءِ واللَّبنِ والخمْرِ والعسلِ ؛ { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } ؛ أي مقيمينَ في الجنَّةِ إلى الأبدِ ، وإنَّما ذكرَ الطاعةَ مع الإيْمانِ وجمعَ بينهُما : فقال : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } يُبَيِّنُ بطلانَ مَنْ يَتَوَهَّمُ أنه لا يَضُرُّ المعصيةَ والإخْلاَلُ بالطاعةِ مع الإيْمانِ ؛ كما تنفعُ الطاعةُ مع الكفرِ أو لِيُبَيِّنَ استحقاقَ الثواب على كلِّ واحدٍ من الأمرين.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً } ؛ انتصبَ (وَعْدَ) على المصدر ، تقديرهُ : وَعَدَ لَهمُ اللهُ هذا وَعْداً حَقّاً كائناً ؛ { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً } ؛ أي ليسَ أحدٌ أصدقَ مِنَ اللهِ قَوْلاً ووَعْداً.

(٠/٠)

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ } ؛ أي ليس ثوابُ الله تعالى بأمَانِيِّكُمْ ، فإنَّ (لَيْسَ) يقتضِي اسْماً ، واختلفُوا في المخاطَبين بهذه الآيةِ, قال قتادةُ والضحَّاك : (إنَّ أهْلَ الْكِتَاب وَالْمُسْلِمِيْنَ افْتَخَرُواْ ، فَقَالَ أهْلُ الْكِتَاب : نَبيُّنَا قَبْلَ نَبيِّكُمْ ؛ وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابكُمْ ؛ وَنَحْنُ أوْلَى باللهِ مِنْكُمْ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : نَحْنُ أوْلَى باللهِ مِنْكُمْ ؛ نَبيُّنَا خَاتَمُ النَّبيِّيْنَ ؛ وَكِتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُب الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).
وقال مجاهدُ : (الْمُخَاطَبُونَ بهَا عَبَدَةُ الأوْثَانِ ؛ فإنَّهُمْ قَالُواْ : لاَ نُبْعَثُ وَلاَ نُحَاسَبُ ، وَقَالَ أهْلُ الْكِتَاب : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودَةً ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ }. { مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } ؛ ولا يَنْفَعُهُ تَمَنِّيْهِ ، والمرادُ بالسُّوءِ الكُفْرُ.
وقال بعضُهم : المخاطَب بها المسلمونَ ؛ أي (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) أي ليسَ بأمَانِيِّكُمْ يا معشرَ المسلمين أنْ لا تُؤَاخَذُواْ بسُوءٍ بعد الإيْمانِ ، { وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ } : لاَ يَدْخُلُ الجنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أوْ نَصَارَى ، من يعمَلْ معصيةً يُجْزَ بذلكَ ولا ينفعه تَمنِّيه.

روي : أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؛ قَالَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : " يَا رَسُولَ اللهِ ؛ كَيْفَ الْفَلاَحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أبَا بَكْرٍ ؛ أَلَسْتَ تَمْرَضُ ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ ؟ أَلَسْتَ تُصِيْبُكَ اللأْوَاءُ ؟ " قَالَ : بَلَى ، " فَهُوَ مَا تُجْزَونَ بِهِ ".

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنهُ قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ شُقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ ، فَشَكَوْاْ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : " قَارِبُواْ وَسَدِّدُواْ ". يقالُ : كلُّ ما يصيبُ المؤمنَ كفَّارَةٌ حتى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا في قدميهِ ، والنَّكْبَةَ يَنْكَبُهَا ".

قال عطاءُ : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } قَالَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : " هَذِهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ يَا رَسُولَ اللهِ ؛ وَأَيَّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءاً ، وَإِنَّا لَمَجْزِيُّونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ؟! قَالَ : " إِنَّمَا هِيَ الْمُصِيْبَاتِ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا ". فَقَالَ أبُو هُرَيْرَةَ : فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } بَكَيْنَا وَحَزِنَّا وَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا أَبْقَتْ هَذَهِ الآيَةِ مِنْ شَيْءٍ ، " أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَكُمَا أُنْزِلَتْ ؛ وَلَكِنْ يَسِّرُواْ وَقَارِبُواْ وَسَدِّدُواْ ؛ إِنَّهُ لاَ يُصِيْبَ أَحَدُكُمْ مُصِيْبَةً فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَفَّرَ عَنْهُ بِهَا خَطِيْئَةً ؛ حَتَّى الشّوكَةَ يُشَاكُهَا فِي قَدَمِهِ ".

وقال الحسنُ في قولهِ تعالى : { مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } قال (الْكَافِرُ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلاَ يُجَازَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ بِأَحْسَنِ عَمَلِهِ وَيُتَجَاوَزُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) ثُمَّ قَرَأَ{ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[الزمر : ٣٥] وقَرَأَ{ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ }[سبأ : ٣٥].

ولولا السُّنة لأمكنَ ان يقالَ : إنَّ الآيةَ تنزلت في الكفَّار ؛ لأنَّ في سياقِ الآية : { وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } ؛ ومَنْ لم يكن لهُ يومَ القيامةِ وليٌّ ولا نصيرٌ كان كافراً ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد ضَمِنَ نصرَ المؤمنين في الدَّارَين فقالَ تعالى : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ }[غافر : ٥١]. ولكنَّ الخطابَ إذا وَرَدَ مُجْمَلاً ، وبَيَّنَ الرَّسُولُ عليه السلام كَانَ الْحُكمُ لِبَيَانِهِ لاَ لِلآيَةِ ؛ إِذِ البَيَانُ إِلَيْهِ صلى الله عليه وسلم ، قال اللهُ تعالى : { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ }[النحل : ٤٤].

(٠/٠)

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ } ؛ أي وهو مصدِّقٌ بالثواب والعقاب ، { فَأُوْلَـائِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } ؛ في الآخرةِ ، { وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } ؛ أي ولا يُنقَصون مما استحقوهُ من جزاء أعمالهم مقدارَ النَّقيرِ ، وهو النُّقرَةُ التي تكون في ظهرِ النَّواة.

(٠/٠)

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } ؛ معناهُ : أيُّ أحدٍ منكُم أصْوَبُ طريقةً وسِيْرَةً ، مِمَّنْ أخلصَ عملَهُ وطاعتَهُ للهِ وهو مُحْسِنٌ في الاعتقادِ والعملِ فيما بينَهُ وبين ربِهِ واتَّبَعَ دينَ إبراهيمَ حَنِيْفاً ؛ أي مَائِلاً عن كلِّ دِيْنٍ سوَى الإسلامِ.

وَقِيْلَ : الْحَنِيْفُ : المستقيمُ في سُلُوكِ الطَّرِيقِ الذي أُمِرَ بسلوكِهِ. ومعنى الْمُحْسِنُ : ما رويَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ الإحْسَانِ فَقَالَ : " أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } ؛ قال الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عبَّاس : (خَلِيْلاً أيْ صَفِيّاً). وَقِيْلَ : في معنى قوله : { خَلِيلاً } وَجْهَانِ : أحدُهما الإصطفاءُ بالْمَحَبَّةِ ، والإختصاصُ بالإسراءِ دون مَن لم تكن له تلك المنْزلةُ ، والثاني : من الْخِلّةِ وهو الحاجةُ ، فخليلُ اللهِ : المحتاجُ إليه ؛ المنطقعُ بحوائجهِ إلى اللهِ تعالى دونَ غيرِه ، وقد يُسمَّى الفقيرُ خَلِيْلاً ، قال زهيرُ : وإنْ أتَاهُ خَلِيْلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرَمُأي ولا ممنوعٌ.

فإذا أُريدَ به الوجهَ الأول ؛ جازَ أنْ يقالَ : إبراهيمُ خَلِيْلُ اللهِ ؛ واللهُ خَلِيْلُ إبراهيمَ. وإذا أُريدَ الوجهُ الثاني ؛ لم يَجُزْ أن يوصفَ اللهُ تعالى بأنهُ خَلِيْلُ إبراهيمَ ، وجاوز وصفهُ بأنَّهُ خليلُ اللهِ.

وعن جابرِ بن عبدِالله رضي الله عنه عَن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " اتَّخَذ اللهُ إبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً لإطْعَامِهِ الطَّعَامَ ؛ وَإفْشَائِهِ السَّلاَمَ ؛ وَصَلاَتِهِ باللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ " فإنْ قيلَ : لِمَ كان اتِّباعُ ملَّةِ إبراهيمَ أوْلَى من اتِّباعِ مِلَّةَ غيرِهِ من الأنبياءِ مثلَ عيسَى ومُوسَى ؟ قِيْلَ : إنَّ الفِرَقَ كلَّهم متَّفقونَ على تَعْظيمِهِ ، ووجوب اتِّباعِ مِلَّتِهِ ، وهو كان يدعُو إلى الْحَنِيْفِيَّةِ دونَ اليهوديَّة والنصرانيَّةِ.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ إمَّا قالَ هكذا لِيُبَيِّنَ أنَّ إبراهيمَ مع كونهِ

خليلَ اللهِ وأنهُ لَمْ يَتَّخِذْهُ لحاجتهِ إليهِ ، لكنَّهُ اتَّخذهُ خليلاً جزاءً على عملهِ. وقال بعضُهم إنَّما قالَ ذلكَ لأنَّهُ لَمَّا أمرَ الناسَ بطاعتهِ حَثَّهُمْ على الطَّاعةِ بما يوجبُ الرغبةَ فيها ؛ وهو كونهُ مَالِكَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً } ؛ أي عَالِماً بكلِّ شيءٍ ، قادِراً على كلِّ شيء مِن كلِّ وجهٍ ، فلا يخرجُ شيءٌ عن مقدورهِ.

(٠/٠)

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَآءِ الَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي أُمِّ كَجَّةِ امْرَأَةِ أَوْسِ بْنِ ثَابِتٍ وَبَنَاتِهَا مِنْهُ ؛ لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بتَوْرِيثِهِنَّ مِنْ أَوْسٍ ، أَقْبَلَ عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّارِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إِنَّكَ قَدْ وَرَّثْتَ النِّسَاءَ وَالْبَنَاتَ وَالصِّغَارَ ؛ وَلَمْ نَكُنْ نَحْنُ نوَرِّثُ إِلاَّ مَنْ قَاتَلَ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ وَحَازَ الْغَنِيْمَةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ويقالُ : إنَّها نزلَت بعدَ نزولِ قولهِ تعالى : { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ }[النساء : ١١] إلى قولهِ{ عَلِيماً حَكِيماً }[النساء : ١١] قَبْلَ نزولِ فَرْضِ الزَّوجاتِ ، فجاؤوا إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَسْتَفْتُونَهُ في ميراثِ أُمِّ كجة امْرَأَةِ الْمُتَوَفَّى ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ووعدَهم أن يُفْتِيهِمْ في ميراثِ الزوجاتِ ؛ فأتَاهُمْ في ذلكَ بقولهِ تعالى : { وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ }[النساء : ١٢] إلى آخرِ الآيةِ.

ومعنى الآية : يَسْتَفْتُونَكَ يا مُحَمَّدُ في أمرِ النِّسَاءِ وما يجبُ لَهنَّ من الميراثِ ؛ قُلِ اللهُ يُبَيِّنُ لكم ميراثَهُن ، والذي يَقْرَأُ عليكُم في كتاب الله في أوَّلِ هذه السُّورةِ ، يُفْتِيْكُمْ ويُبَيِّنُ لكم ما سَأَلْتُم { عنه في بناتِ أمِّ كجة اللاَّتِي لا تُعْطُوهُنَّ مَا فُرِضَ لَهُنَّ من الميراثِ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ }[النساء : ١١].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ } ؛ أي ترغبون عَنْ نِكَاحِهِنَّ لِدَمَامَتِهِنَّ فلا تعطوهُنَّ نصيبَهن من الميراثِ لِمَنْ يَرْغَبُ فيهنَّ غيرُكم ؛ وذلكَ أنَّ بَنِي أعْمَامِ تِلْكَ الْبَنَاتِ كَانُوا أَوْلِيَاءَهُنَّ ؛ وَكَانُواْ لاَ يُعْطُونَهُنَّ حَظَّهُنَّ مِنَ الْمِيْرَاثِ ، وَيَرْغَبُونَ أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ ، وَهذا قول ابنِ عبَّاس وابنِ جُبير وقتادةَ ومجاهدٍ. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا والحسنِ : (أنَّ مَعْنَاهُ : وَتَرْغَبُونَ فِي أنْ تَتَزَوَّجُونَهُنَّ لِجَمَالِهِنَّ وَلاَ تُعْطُوا لِهُمْ مَا

أوْجَبَ اللهُ لَهُنَّ مِنَ الصَّداقِ). وفي كِلاَ القولين دليلٌ على جوازِ نِكَاحِ الأولياءِ لليتامَى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ } ؛ أي وفي (الْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الْوِلْدَانِ) أي في مِيْرَاثِ اليتامَى. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ } ؛ أي وَفِي (أنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بالْقِسْطِ) في أموالِهم وحقوقِهم بالعدلِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً } ؛ أي مَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ في أمرِ اليَتَامَى والضِّعَافِ ؛ { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً } يَجْزِيْكُمْ على ذلكَ.
واختلفَ أهلُ النَّحوِ في موضعِ { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } فذهبَ أكثرُهم إلى أنهُ مَوْضِعُ رَفْعٍ ؛ تقديرهُ : وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكتاب يُفْتِيْكُمْ. وقال بعضُهم : هو في موضعِ خَفْضٍ تقديرهُ : وَفِي مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ، إلاَّ أن هذا الوجهَ أضعفُ من الأوَّل ؛ لأنه لا يصحُّ عطفُ الظاهرِ على المضمرِ بحرفِ الجرِّ من دونِ إعادة حرفِ الجرِّ.

(٠/٠)

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً } ؛ الآية نزلت في خُوَيْلَةَ ابْنَةِ مُحمدِ بن مَسْلَمَةَ وفي زوجِها سعدِ بن الربيعِ ؛ تزوَّجَها وهي شابَّةٌ ؛ فلما عَلاَهَا الْكِبَرُ جَفَاهَا وتزوَّج عليها شابَّةً آثرَها عليها ، فشَكَتْ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمح فنَزلت هذه الآيةُ ، هذا قولُ الكلبيُّ وجماعةٍ من المفسِّرين.
وقال سعيدُ بن جُبير : (كَانَ رَجُلٌ لَهُ امْرَأَةٌ قَدْ كَبرَتْ ؛ وَكَانَ لَهَا سِتَّةُ أوْلاَدٍ ، فَأَرَادَ أنْ يُطَلِّقَهَا وَيَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ : لاَ تُطَلِّقْنِي عَلَى أوْلاَدِي ؛ وَاقْسِمْ لِي فِي كُلِّ شَهْرَيْنِ أوْ أكْثَرَ إنْ شِئْتَ ، وَإنْ شِئْتَ لاَ تُقْسِمْ ، فَقَالَ : إنْ كَانَ يَصْلُحُ ذلِكَ فَهُوَ أحَبُّ إلَيَّ ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ لَهُ ذلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).
ومعناها : (وإنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ) أي عَلِمَتْ مِن زوجِها بُغضاً ، أو إعْراضاً بوجهِهِ عنها لإيثار غيرها عليها.
قال الكلبيُّ : (يَعْنِي : تَرَكَ مُجَامَعَتَهَا وَمُضَاجَعَتَهَا وَمُجَالَسَتَهَا وَمُحَادَثَتَهَا ؛ فَلاَ جُنَاحَ عَلَى الزَّوْجِ وَالْمَرْأَةِ أنْ يُصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً مَعْلُوماً بتَرَاضِيْهِمَا ؛ وَهُوَ أنْ يَقُولَ لَهَا الزَّوْجُ : إنَّكِ امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتِ فِي السِّنِّ ؛ وَأَنَا أُرِيْدُ أنْ أتَزَوَّجَ عَلَيْكِ امْرَأَةً شَابَّةً أوثِرُهَا عَلَيْكِ فِي الْقَسْمِ لَهَا لشَبَابِهَا أوْ أزِيْدُ فِي نصِيْبِهَا مِنَ الْقَسْمِ ، فَإنْ رَضِيْتِ وألاَّ سَرَّحْتُكِ بالأحْسَنِ وَتَزَوَّجْتُ أُخْرَى. فَإنْ رَضِيَتْ بذلِكَ فَهِيَ الْمُحْسِنَةُ ، وَحَلَّ لِلزَّوْجِ

ذلِكَ).

كَمَا رُوِيَ " عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ سَوْدَةَ ؛ فَسَأَلَتْهُ لِوَجْهِ اللهِ أَنْ يُرَاجِعَهَا وَتَجْعَلَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ فَفَعَلْ ". ومثلُ هذا الصُّلْحِ لا يقعُ لازماً ؛ لأنَّها إذا أبَتْ بعدَ ذلكَ إلى المقاسَمَة على السؤالِ كان لَها ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصُّلْحُ خَيْرٌ } ؛ أي خيرٌ من الإقامةِ على النُّشُوز. وَقِيْلَ : خيرٌ من الفِرْقَةِ. ودخولُ حرفِ الشَّرطِ على السمِ في قولهِ تعالى : { وَإِنِ امْرَأَةٌ } فعلى تقديرِ فِعْلٍ مُضْمَرٍ ؛ أي : وَإِنْ خَافَتْ امْرَأَةٌ خَافَتْ ، أو على التقديمِ والتأخير ، كأنه قالَ : وَإِنْ خَافَتِ امرأةٌ مِنْ بَعْلِهَا نُشوزاً ، وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن امْرُؤٌ هَلَكَ }[النساء : ١٧٦] ، { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ }[التوبة : ٦] وهذا لا يكونُ إلاَّ في الفعلِ الماضي ؛ كما يقالُ : إنِ اللهُ أمكنَني ففعلتُ كذا ، فأمَّا في المستقبلِ فيصُحُّ أن يُفَرَّقَ بين الَّتِي للجزاءِ وبين لفظِ الاستقبال ، فيقالُ : إنِ امرأةٌ تَخَفْ ؛ لأنَّ (إنْ) تحرمُ المستقبلَ فلا يفصلُ بين العاملِ والمعمول.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ } ؛ أي جُبلَتِ الأنفسُ على الشُحِّ ، فَشُحُّ المرأةِ الكبيرة مَنَعَهَا من الرِّضَا بدون حقِّها ، وتركِ بعضِ نصيبها من الرجلِ لغيرِها ، وشُحُّ الرجلِ بنصيبهِ من الشَّابَّةِ يَمْنعُهُ من توقيرِ نصيب الكبيرةِ من القَسْمِ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ } ؛ أي إن تُحسنوا العِشْرَةَ وتتَّقُوا الظُّلْمَ على النساء ؛ { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } ؛ من الإحسانِ والْجُودِ ، عالِماً بخيرِ عمِلكم ، والسوءِ فيجزيكُم على ذلكَ.

(٠/٠)

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ } ؛ أي ولن تَقْدِرُوا أن تُسَاوُوا بين النساءِ ولو اجتهدتُم في العدلِ ، كما رُوِيَ " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ ثُمَّ يَقُولُ : " اللَّهُمَّ إنَّ هَذَا قَسْمِي فِيْمَا أمْلِكُ ؛ فَلاَ تُؤَاخِذْنِي بَما لاَ أمْلِكُ " وأرادَ به التسويةَ وَالْمَحَبَّةَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ } ؛ أي لا تَميلُوا إلى الشابَّة والجملَةِ بالفعلِ كلَّ الميلِ في الفقةِ والقسمة والإقبالِ عليها ، فتتركُوا العجوزَ بغيرِ قسمة كالْمَنْبُوذةِ وَالْمَحْبُوسَةَ لا أيْمَ ولا ذاتَ بعلٍ. وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إلَى أحَدَاهُمَا ؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شَقَّيْهِ مَائِلٌ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ } ؛ أي وإنْ تُصْلِحُواْ ما أفْسَدْتُمُوهُ بإفرادِ الْمَيْلِ ، فتَعْدِلُوا في القسمةِ بينَهُنَّ ، وتتَّقوا الْجَوْرَ والعقوبةَ فيه ، { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً } ؛ لِمَا سَلَفَ منكُم من الظُّلْمِ عليهُنَّ رَحِيْماً بكم بعد التوبةِ.

(٠/٠)

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ } ؛ أي معناهُ : أنَّ الزوجَ والمرأةَ إذا تَفَرَّقا دون حقوقِ الله التي أوجبهَا عليهما ؛ أغْنَى اللهُ كُلاًّ من سَعَتِهِ مِن رزقِهِ ؛ الزوجَ بامرأةٍ أخرى ، والمرأةَ بزوجٍ آخرَ ؛ { وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً } ؛ لَهُما في النِّكاحِ ؛ { حَكِيماً } ؛ حَكَمَ على الزوجِ بالإمساك بالمعروفِ أو التسريحِ بالإحسان. وَقِيْلَ : معناهُ : وكانَ اللهُ واسعَ الْمُلْكِ جَوادَاً لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ، وحُكْمُهُ فيما يَحْكُمُ من الفِرْقَةِ يجعلُ لكلِّ واحدٍ منهُما مَن يسكنُ إليه وَيَتَسَلَّى به عن الأوَّل.
ومِنْ حُكْمِ هذه الآيةِ : أنَّ الرجلَ إذا قَسَمَ لنسائهِ لا يجبُ عليه وطئُ واحدةٍ منهُنَّ ؛ لأنَّ الوطءَ لَذةٌ لهُ فهي حَقُّهُ ، فإذا تركهُ لم يُجْبَرْ عليهِ ، وليس هو كَالْمُقَامِ والنفقةِ ، وعمادُ القَسِمْ الليلُ ، ولا يُجامعُ المرأةَ في غيرِ يومِها ، ولا يدخلُ بالليلِ على التي لم يَقسِمْ لَها ، ولا بأسَ أن يدخلَ عليها بالنهار في حاجةٍ ويعودَها في مرضِها في ليلةِ غيرِها ، فإنْ فَعَلَتْ فلا بأسَ أن يُقيم حتى تَشْفَى أو تَموت ، فإن أرادَ أن يَقْسِمَ لَيليتين ليلتين أوْ ثَلاثاً كانَ لهُ ذلكَ.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ كُلُّهُمْ عبيدُ وإمَاؤُهُ ، { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ } ؛ أي أمَرْنَا أهلَ التوراةِ في التَّوراة ، وأهلَ الإنْجِيْلِ في الإنجيلِ ، وأهلَ كل كِتَابٍ في كتابهم ، { وَإِيَّاكُمْ } أي ووصَّيْنَاكم يا أمَّةَ مُحَمَّدٍ في كتابكم ؛ { أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ وأطيعوهُ في النِّسَاءِ واليتامَى وأحكامِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَكْفُرُواْ } ؛ أي وإن تَجْحَدُوا وصيَّةَ اللهِ سُبحَانَهُ وتَعَالَى فلم تَعْلَمُوا بها ، { فَإِنَّ للَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } ؛ من الملائكةِ ، { وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ مِن الْجِنِّ والإنسِ وسائر الْخَلْقِ ، { وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً } ؛ عن عبادَتِكم ، لا يضرُّهُ كُفْرُ من كَفَرَ منكم ، ولا ينفعهُ طاعةُ مَن أطاعَ منكم ، { حَمِيداً } ؛ مَحْمُوداً في ذاتِهِ وفي خَوَاصِّ ملائكتهِ وعبادِه ، حَمَدْتُمُوهُ أو لم تَحْمِدُوهُ. وَقِيْلَ : حامداً لِمن وَحَّدَهُ وأطاعَهُ.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ تَنْبِيْهٌ بعد تنبيهٍ ؛ كأنهُ تعالى نَبَّهَهُمْ عن غَفْلَتِهِمْ بأنه حَفِيْظٌ على أعمالِهم كي يَتَحَفَّظوا ولا يتهاوَنُوا لِمَا أُمِرُوا من أمرِ الله تعالى ، وليس شيءٌ من هَذِهِ الأَلْفَاظِ تَكْرَارٌ فِي كِتَاب اللهِ تعالى ، ولكنْ كلُّ واحدٍ منها مَقْرُونٌ بفَائِدَةٍ جَدِيْدَةٍ ، والفائدةُ في قولهِ تعالى : { وَللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } بأنَّهَا الأمرُ بالاتِّكَالِ عَلى اللهِ تعالى ، والثِّقَةِ به وتفويضِ الأُمُورِ إليه ، ولذلكَ عَقَّبَهُ بقولهِ تعالى : { وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } ؛ أي حَافِظاً لأعمالكم كَفِيلاً بأرزاقِكم.

(٠/٠)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ } ؛ أي كَمَا يَمْلِكُ الموجودَ من السَّموات ولأنهُ تعالى قال من قَبْلُ : { وَإِن تَكْفُرُواْ }[النساء : ١٣١] فكأنهُ قالَ : إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيُّهَا الكفَّارُ وَيَأتِ بقوم آخَرِيْنَ أطْوَعَ منكم ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذلِكَ قَدِيراً } ؛ وكان اللهُ على إهْلاَكِكُمْ وخَلْقِ غَيْرِكُمْ قادِراً.

(٠/٠)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ } ؛ أي مَن كان يريدُ بعملهِ منفعةَ الدُّنيا ، فَلْيَعْمَلْ ولا يَقْتَصِرْ على طلب الدُّنيا ، فإنَّ ثوابَ الدُّنيا واصلٌ إلى الْبَرِّ والفاجرِ ، والمؤمنِ والكافر ، ولكن لِيَكَلَّفْ طلبَ الآخرةِ التي لا تُنال إلاَّ بالعملِ ، { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً } ؛ لِكَلاَمِ عبادهِ ، { بَصِيراً } ؛ بما في قلوبهم ، وفي الآيَةِ تَهديدٌ للمنافقين الْمُرَائِيْنَ. وفي الحديثِ : " إنَّ فِي النَّار وَادِياً تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمَ كُلَّ يَوْمٍ أرْبَعُمِائَةِ مَرَّةٍ أعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِيْنَ " وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : مَن كان يريدُ بعملهِ عِوَضاً من الدُّنيا ولا يريدُ به وجهَ اللهِ ؛ أثَابَهُ اللهُ عليهِ من عَرَضِ الدُّنيا ما أحبَّهُ ؛ وَدَفَعَ منهُ فيها ما أحبَّ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ للَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ } ؛ أي قُومُوا بالعدلِ وقُولُوا الحقَّ ، والقَوَّامُ بالقِسْطِ المستعملُ له على حَسَبَ ما يجبُ من إنصافهِ من نفسه ، وإنصافِ كلِّ مظلومٍ من ظالِمه ، ومنعُ كلِّ ظالِمٍ من ظُلْمِهِ ، ولفظُ القَوَامِ لا يكون إلاَّ للمبالغةِ.

وَالْقِسْطِ وَالإِقْسَاطُ : العَدْلُ ، يقالُ : أقْسَطَ الرجلُ إقْسَاطاً إذاعدَلَ ، وَأَتَى بالْقِسْطِ وَقَسَطَ يَقْسِطُ قِسْطاً إذا جَارَ ، قال اللهُ تعالى : { وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[الحجرات : ٩] أي اعدِلُوا ، وقالَ تعالى : { وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً }[الجن : ١٥] أي الجائِرُون.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { شُهَدَآءَ للَّهِ } نُصِبَ على أحدِ ثلاثةِ أوجُهٍ ؛ أحدُها : أنه خبرٌ ثَانٍ ، كما يقالُ : هذا حُلْوٌ حَامِضٌ. والثاني : على الحالِ ، كما يقالُ : هذا زيدٌ راكباً. والثالث : على أنه صِفَةُ الْقَوَّامِيْنَ ، فإن قوَّامين نَكِرَةٌ ، وشُهَدَاءَ نَكِرَةٌ ، والنكرةُ تنعتُ بالنَّكرةِ. ومعنى { شُهَدَآءَ للَّهِ } أي شَهِدُوا بالحقِّ للهِ على ما كان مِن قريبٍ أو بعيدٍ.

وَقِيْلَ : معنَى الآية : كُونُوا قَوَّامِيْنَ بالعدلِ في الشَّهادةِ على مَن كانت وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ أوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبينَ في الرَّحِمِ ؛ فأقيمُوها عليهم للهِ ولا تَخافُوا غَنِيّاً لِغِنَاهُ ، ولا ترحَمُوا فقيراً لِفَقرِهِ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً } ؛ أي فلا تَتْرُكُوا الحقَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ } أي قولُوا الحقَّ وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ ، والشهادةُ على النفسِ إقرارٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ } أي على وَالِدِيكُمْ وعلى أقربائِكُم ، وفي هذا بيانُ أنَّ شهادةَ الابن على الوالدين لا تكونُ عُقُوقاً ، ولاَ يَحِلُّ للابن الامتناعُ عن الشهادةِ على أبَوَيْهِ ؛ لأنَّ في الشهادِ عليهما بالحقِّ مَنْعاً لَهما عن الظُّلْمِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا } ؛ معناهُ : إن يكن المشهودُ عليه غَنِيّاً أو فقيراً فاللهُ أحقُّ بالغنيِّ والفقيرِ من عبادهِ من أحدِهم بوالدَيهِ وقَرَابَاتِهِ وأرحمُ وأرْأَفُ ، فَأقيمُوا الشهادةَ للهِ ، لا تَميلُوا في الشهادةِ رحمةً للفقيرِ ، ولا تقصدوا إقامتَها لاحتمال غِنى الغنيِّ ؛ أي لأجلِ غِنَاهُ ، وعن هذا قال صلى الله عليه وسلم : " أُنْصُرْ أخَاكَ ظَالِماً أوْ مَظْلُوماً " قِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ كَيْفَ يَنْصُرُهُ ظَالِماً ؟ قَالَ : " أنْ تَرُدَّهُ عَنْ ظُلْمِهِ فَإنَّ ذلِكَ نَصْرُهُ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ } ؛ معناهُ : ولا تتَّبعوا الهوَى لِتَعْدِلُوا ، وهذا كما يقالُ : لاَ تَتَّبِعِ الهوَى لِرِضَى رَبكَ. وَيُقَالُ : معناهُ : لا تَتَّبعُوا أنْ لا تعدِلُوا ، ويقالُ : كراهةَ أنْ تعدلُوا ، وهذا كقولهِ تعالى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ }[النساء : ١٧٦] ويقالُ : معنى تَعْدِلُوا : تَمِيْلُوا من الْحَقِّ إلى الْهَوَى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ } ؛ من قرأ (تَلْوُوا) بواوَين فمعناهُ : أن تُمَاطِلُوا في إقامةِ الشَّهادَةِ وتُقَلِّبُوا اللسانَ لتفسِدُوا الشهادةَ ، أوْ تُعْرِضُوا عن إقامةِ الشَّهادةِ مأخوذٌ مِن لَوَى فُلاَنٌ فِي دِيْنِهِ ؛ أي دَافَعَ ، ومنه قولهُ صلى الله عليه وسلم :

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ } ؛ قال الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابن عبَّاس : " نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ ؛ وَأسَدِ بْنِ كَعْبٍ وَأَخِيْهِ أُسَيْدٍ ؛ وَثَعْلَبَةِ بْنِ قَيْسٍ ؛ وَسَلاَمِ ابْنِ أُخْتِ عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ ؛ وَسَلَمَةِ ابْنِ أخِيْهِ ؛ وَيَامِيْنِ بْنِ يَامِيْنَ ، فَهَؤُلاَءِ مُؤْمِنُو أهْلِ الْكِتَاب ، أتَوْا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّا نُؤْمِنُ بكَ وَبكِتَابكَ وَبمُوسَى وَالتَّوْرَاةِ وَبعُزَيْرٍ ، وَنَكْفُرُ بمَا بمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُب وَالرُّسُلِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " بَلْ آمِنُواْ باللهِ وَبرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَبالرُّسُلِ كُلِّهِمْ وَبكِتَابهِ الْقُرْآن وَبُكِّ كِتَابٍ أنْزَلَهُ اللهُ " قَالُواْ : لاَ نَفْعَلُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".
ومعناها : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ } بمُحَمَّدٍ والقُرْآنِ ومُوسى والتَّوراةِ { آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } مُحَمَّدٍ {

وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ } يعني الكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ التَّوراةَ والإنْجِيْلَ والزَّبُورَ وسائرَ الكُتُب الْمُنَزَّلَةِ ، { وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً } ؛ أي أخْطَأَ خَطأً بَعِيْداً ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إنَّا نُؤْمِنُ باللهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْقُرْآنِ ؛ وَكُلِّ كِتَابٍ كَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ ؛ وَكُلِّ رَسُولٍ كَانَ مِنْ قَبْلُ ؛ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ ، كما فَرَّقَتِ اليهودُ والنصارَى.

ومعنى الآية : يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ آمِنُوا بموسَى والتوارةِ وعيسَى والإنْجِيلِ آمِنُواْ بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ. قال أبُو العاليةِ وجماعةٌ من المفسِّرين : (هَذِهِ الآيَةُ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ ، وَتَأْوِيْلُهَا : يَا أيُّهَا الَّذِيْنَ آمِنُواْ آمِنُواْ ؛ أيْ أقِيْمُواْ وَاثْبُتُواْ عَلَى الإيْمَانِ). وقال بعضُهم : إنَّها خطابٌ للمنافقينَ ؛ ومعناها : يا أيُّها الذينَ آمَنُوا في الْمَلأ آمِنُواْ في الْخَلاءِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } أي من يَجْحَدْ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى وبملائكتهِ وكُتُبهِ ورسُلِهِ والبعثِ بعدَ الموتِ ؛ فقد أخْطَأَ خَطأً بَعِيْداً عنِ الحقِّ والصواب.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً } ؛ اختلفَ المفسِّرون في هذه الآيةِ ، فَقِيْلَ : إنَّ المرادَ بهم اليهودُ. قال الكلبيُّ : (آمِنُواْ بمُوسَى ؛ ثُمَّ كَفَرُواْ بَعْدَ مَوْتِهِ ثُمَّ آمَنُواْ بعُزَيْرٍ عليه السلام ، ثُمَّ كَفَرُواْ بَعْدَ عُزَيْرٍ بعِيْسَى عليه السلام ، ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ). وقال مقاتلُ : (آمَنُواْ بمُوسَى عليه السلام ، ثُمَّ كَفَرُواْ بَعْدَ مَوْتِهِ ، ثُمَّ آمنُوا بعِيْسَى عليه السلام ، ثُمَّ كَفَرُواْ بَعْدَ مَا رُفِعَ إلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ أقَامُواْ عَلَى كُفْرِهِمْ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ). وَقِيْلَ : آمنُوا بموسى عليه السلام ، ثم كفرُوا بعدَه بعيسَى عليه السلام ، ثم كفرُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم قبلَ أن يُبْعَثَ ، ثُم كفروا به بعدَ ما بُعِثَ ، ثم أقاموا على كفرهِم. وقال قتادةُ : (آمَنَ الْيَهُودُ بمُوسَى ثُمَّ كَفَرُواْ بهِ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ ، ثُمَّ آمِنُواْ بالتَّوْرَاةِ ، ثُمَّ كَفَرُواْ بَعْدَ ذلِكَ بعِيْسَى ، ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً بنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ } ؛ أي ما دَامُوا عل كُفْرِهم ؛ { وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً } ؛ أي ولا يُوَفِّقُهُمْ طَرِيقاً إلى الإسلامِ ، ولكن يَخْذِلُهُمْ مُجَازاةً لَهم على كُفْرِهم. فإنْ قيلَ : إنَّ الله لا يغفرُ كُفْرَ مَرَّةٍ ؛ فما الفائدةُ في قوله { ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ } ؟ قِيْلَ : إنَّ الكافرَ إذا آمَنَ غُفِورَ لَهُ كفرُه ، فإذا كَفَرَ بعد إيْمانهِ لم يُغْفَرْ لهُ كفرُه الأول ، وهو مُطَالَبٌ بجَمِيْعِ كُفْرِهِ.

(٠/٠)

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } ؛ خَوِّفِ المنافقين عَبْدَاللهِ بْنَ أُبَيٍّ وأصحابَه ، ومن يكونُ على سبيلِهم إلى يومِ القيامة بأنَّ لَهم عذاباً وَجِيْعاً يخلصُ وجعه إلى قلوبهم.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي هم الذين يتَّخذونَ اليهودَ أحبَّاء فيب العَوْنِ والنُّصْرَةِ من دون المؤمنينَ المخلصين الموحِّدين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ } ؛ هذا استفهامٌ بمعنى الإنكار ؛ أي كيفَ يطلبون عند الكفَّار العزَّة وهم أذلاَّءُ في حُكْمِ اللهِ تعالى : { فَإِنَّ العِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً } ؛ أي فإنَّ القوةَ وَالْمَنَعَةَ للهِ جميعاً ، فمن أرادَ طَلَبَ العزَّةِ فليطلُبْها من اللهِ تعالى ؛ لأنه المقدِّرُ بجميع مَن لهُ العزَّةُ مِن خلقهِ لِجميع العزَّةِ لَهُ.

(٠/٠)

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } ؛ أي قد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْقُرْآنِ سُورَةَ الأنْعَامِ بمَكَّةَ أنْ سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُجْحَدُ بها ، وَيُسْخَرُ مِنْهَا فلا تَجْلِسُواْ مَعَهُمْ حتَّى يكونَ خَوْضُهُمْ في حديثٍ غيرِ القُرْآنِ ، وأرادَ بذلك المذكورَ في الأنعامِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ }[الأنعام : ٦٨].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ } ؛ أي من جَالَسَهُمْ راضياً بما هُم عليه من الكُفْرِ والاستهزاءِ بآياتِ الله فهو مِثْلُهُمْ في الكُفْرِ ؛ لأن الرِّضَا بالكفرِ والاستهزاء كُفْرٌ ، ومَن جَلَسَ معهُم سَاخِطاً لذلكَ منهم لم

يَكْفُرْ ، ولكنه يكونُ عاصِياً بالقعودِ معهم ؛ فيكونُ معنى قولهِ تعالى : { إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ } أي في أصْلِ العِصْيانِ وإن لم تبلُغْ معصيةُ المؤمنين معصيةَ الكفَّارِ ، إذا لم يكن جلوسُ المؤمنينَ معهم لإقامةِ فَرْضٍ أو سُنَّةٍ ، أما إذا كان جلوسُه هنالكمَ لإقامةِ عبادَةٍ وهو سَاخِطٌ لتلكَ الحالِ لا يقدرُ على تغييرها ، فلا بأسَ بالجلوسِ. كما روي عن الحسن : (أَنَّهُ حَضَرَ هُوَ وَابْنُ سِيْرِيْنَ ؛ فَذَكَرَ ذلِكَ لِلْحَسَنِ فَقَالَ : إِنَّا كُنَّا مَتَى رَأَيْنَا بَاطِلاً تَرَكْنَا حَقّاً ؛ أشُرِعَ ذلِكَ فِي دِيْنِنَا!).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً } ؛ أي يَجْمَعُهُمْ فِي جهنَّم مجازاةً لَهم لاجتماعهم في الدُّنيا للاستهزاءِ ، فمن شاءَ لا يكونُ معهم في جهنَّم فلا يكونُ معهم في الدُّنيا.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ } ؛ أي هم الذين يَنْتَظِرُونَ بكم الدَّوَائِرَ ، ويرامون أحوالَكم يعني المنافقين ، وَالْمُتَرَبصُ لِلشَّيْءِ : هُوَ الْمُتَوَقِّعُ لأَسْبَابه ، ويسمَّى الْمُحْتَكِرُ مُتَرَبِصاً لِتَوَقُّعِهِ غَلاَءَ السِّعْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ } ؛ أي اذا كان لكم ظَفْرٌ ودَوْلَةٌ وغَنِيْمَةٌ ، { قَالُواْ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ } ؛ أي قالَ المنافقون : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ على دِينِكم فَأَعطُونا من الغنيمةِ ، { وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ } ؛ أي ظُهُورٌ على المسلمين ؛ { قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي قالَ المنافقون : أَلَمْ نُخْبِرْكُمْ بعَزِيْمَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ونُطْلِعْهكُمْ على سِرِّهِمْ ونكتُبْ ذلكَ إليكُم ونحذِّرُكم عنهُم ونُجِبْهم عنكُم ونُواليكُم ، { فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ فاللهُ يقضِي بينَ المؤمنين والمنافقينَ والكفار { وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً } ؛ أي لم يجعلِ اللهُ لليهود ظهوراً على المؤمنينَ.

وَقِيْلَ السبيلُ : الْحُجَّةُ ، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين مِن اليهودِ وغيرِهم حُجَّةً على المسلمينَ في الدُّنيا والآخرةِ ، وَقِيْلَ : معنى السَّبِيْلِ : الدَّوْلَةُ الدَّائِمَةُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لن يُدْخِلَ اللهُ الكافرينَ الجنةَ ؛ فيقولون للمؤمنين : ما أغْنَى عنكُم تَعَبُكُمْ في الدُّنيا ، وما ضَرَّنَا كُفْرُنَا بعد أن تَسَاوَيْنَا.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } ؛ أي يُخَادِعُونَ أولياءَ اللهِ بإظهارهم الإيْمانِ وإبطانِهم الكفرَ ؛ ليحقِنُوا بذلك دماءَهم ويشاركُوا المسلمين في غنائمِهم ، وجعلَ اللهُ مُخَادعةً أوليائِهِ مخادعةً لهُ كما قال تعالى{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ }[الفتح : ١٠].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ خَادِعُهُمْ } أي مُجَازِيْهِمْ جزاءَ أعمالِهم ؛ وذلك أنَّهم على الصِّراطِ يُعْطَوْنَ نُوراً كما يغطَى المؤمنونَ ؛ فإذا مَضَوا بِهِ على الصِّراطِ طُفِئَ نورُهم ، ويبقى المؤمنون ينظرُون بنورهم ، فينادُون المؤمنينَ : أنْظِرُونَا نَقْتَبسْ من نوركم ، فيناديهم الملائكة على الصِّراطِ : ارجعوا وراءَكم فالتمسُوا نوراً ، وقد علمُوا أنَّهم لا يستطيعون الرجوعَ ، قال : فيخافُ المؤمنونَ حينئذٍ أن يُطْفَأَ نورُهم فيقولون : ربَّنَا أتْمِمْ لنا نورَنا ، واغْفِرْ لنا إنَّكَ على كُلِ شيءٍ قديرٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ } ؛ يعني المنافقينَ ؛ { قَامُواْ كُسَالَى } ؛ أي مُتَثَاقِلِيْنَ لا ير يدون بها وَجْهَ اللهِ تعالى ، { يُرَآءُونَ النَّاسَ } ؛ ولا يريدُون الصلاةَ إلاّ مُرَاءَةً للناسِ خَوْفاً منهم ، { وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي لا يُصَلُّونَ للهِ إلاّ قليلاً رِيَاءً وسُمْعَةً ، ولو كانوا يريدون بذلكَ القليلِ وجهَ اللهِ لكانَ كثيراً.

(٠/٠)

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ } ؛ نصبَ على الذمِّ ؛ ومعناهُ : مُتَرَدِّدِيْنَ بين كُفْرِ السِّرِّ وإيْمانِ العلانيةِ ، ليسُوا من المؤمنين فيجبُ لَهم ما يجبُ للمسلمين ؛ وليسُوا من الكفَّار فيجبُ عليهم ما يجبُ على الكفَّار. وَقِيْلَ : معناهُ : مُتَحَيِّرِيْنَ بين الكفرِ والإيْمان ، { لاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ } ؛ أي ليسُوا من المؤمنينَ فيجبُ عليهم ما يجبُ عليهم ، وليسُوا من الكفَّار فيؤخَذُ منهم ما يؤخذُ من الكفَّارِ ؛ أي ما هُم بمؤمنين مُخلصين ، ولا مشركينَ مصرِّحين بالشِّركِ.
وكان صلى الله عليه وسلم يَضْرِبُ مَثَلاً لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ وَالْكَافِرِيْنَ كَمَثَلِ ثَلاَثَةٍ دُفِعُواْ إِلَى نَهْرٍ ؛ فَقَطَعَهُ الْمُؤْمِنُ ؛ وَوَقَفَ الْكَافِرُ ؛ وَنَزَلَ فِيْهِ الْمُنَافِقُ ، حَتَّى إذا تَوَسَّطَهُ عَجَزَ ؛ فَنَادَاهُ الْكَافِرُ : هَلُمَّ إليَّ لاَ تَغْرَقْ ، وَنَادَاهُ الْمُؤْمِنُ : هَلُمَّ إِلَيَّ لِتَخْلَصَ. فَمَا زَالَ الْمُنَافِقُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا حَتَّى إذا أتَى عَلَيْهِ مَاءٌ فَغَرَّقَهُ ، فَكَانَ الْمُنَافِقُ لَمْ يَزَلْ فِي شَكٍّ حَتَّى يَأْتِيْهِ الْمَوْتُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً } ؛ أي من يَخْذِلُهُ اللهُ عن الْهُدَى ، فلن تَجِدَ له يا مُحَمَّدُ طريقاً إلى الْهُدَى.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي لا تفعلُوا أيُّها المؤمنونَ كفعلِ المنافقين ، { أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً } ؛ أي أتُرِيدُونَ أنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ حجَّةً ظاهرةً توجِبُ العقوبةَ عليكم في الدُّنيا والآخرةِ, والسُّلْطَانُ في اللغة : هُوَ الْحُجَّةُ ؛ يقالُ للأميرِ : سُلْطَانٌ ؛ يرادُ بذلك أنه حُجَّةٌ.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } ؛ أي في الطَّبَقِ الأسفلِ ؛ وهي الْهَاوِيَةُ لِمَكْرِهِمْ وخيانتهم للنبيِّ صلى الله عليه وسلم مع إبْطَانِ الكُفر ، قال أبو عُبيد : (جَهَنَّمُ أدْرَاكٌ مَنَازِلُ ، كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنْهُ دَرْكٌ). ومن قرأ (الدَّرْكِ) بإسكان الرَّاء ، وهو لغةٌ : وأكثرُ القرَّاء على فتحِها. الدَّرَكَاتُ في النّار مثلُ الدرجَاتِ في الجنَّة ، كل ما كان من درجاتِ الجنَّة أعلَى ؛ فثوابُ مَن فيه أعظمُ ، وما كان من دَرَكَاتِ النار أسفلَ ؛ فعقابُ مَن فيه أشَدُّ. وسُئل ابنُ مسعودٍ عن الدَّرْكِ الأسْفَلِ ؛ فقالَ : (هُوَ تَوَابِيْتُ مِنْ حَدِيْدٍ ؛ مُبْهَمَةٌ عَلَيْهِمْ لاَ أبْوَابَ لَهَا).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً } ؛ أي مانعاً يَمنع عنهُم العذابَ ، وعن عبدِالله بنِ عمرَ ؛ (أنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ : الْمُنافِقُونَ ؛ وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أصْحَاب الْمَائِدَةِ ؛ وَآلَ فِرْعَونَ). قال اللهُ تعالى في أصحاب المائدة : { فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ }[المائدة : ١١٥] وقالَ : { أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }[غافر : ١١٥] وقالَ : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }. فإن قِيْلَ : مَا وجهُ التَّوْفِيْقِ بين هذه الآيةِ وبينَ قولهِ تعالى : { أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }[غافر : ٤٦] ؟ قِيْلَ : لا يَمتنعُ أن يجتمعَ القومُ في موضعٍ واحد ويكون عذابُ بعضِهم أشدَّ من عذاب بعضٍ ، ألا ترَى أن البيتَ الداخلَ في الحمَّامِ يجتمعُ فيه الناس ، فيكون بعضُهم أشدَّ أذىً بالنار ؛ لكونه أدنَى إلى موضعِ الوَقُودِ. وكذلك يجتمعُ القوم في القعودِ في الشَّمس ، ويتأذى الصَّفْرَاويُّ منها أشدُّ وأكثر من تأذِي السَّوْدَاوِيِّ.

والْمُنَافِقُ فِي اللغة : مأخوذ من النَّفَقِ ؛ وهو السِّرْبُ ؛ أي استَتَرَ بالإسلامِ كما يَسْتَتِرُ الرجلُ بالسِّرْب.
وَقِيْلَ : هو مأخوذٌ من قولِهم : نَافَقَ الْيَرْبُوعُ ؛ إذا دخل نَافِقَاءَهُ ؛ فإذا طُلِبَ من النَّافِقَاءِ خرج من النافقاء ؛ والنَّفْقَاءُ ؛ والقَاصِعَةُ ؛ والرَّاهِطَاءُ ؛ وَالدَّامَّاءُ حُجْرَةُ اليربوعِ.

(٠/٠)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ } ؛ أي لا الذين تَابُوا من النِّفَاقِ ، وأصلحُوا العملَ فيما لبينهم وبين ربهم وتَمسَّكوا بتوحيدِ الله ودِينه ، { وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ } ؛ وأخلصُوا توحيدَهم وعملَهم ، { للَّهِ } ؛ أي أخلصُوا ذلك من شَوْب الرِّيَاءِ ، وطلب عَرَضِ الدُّنيا ، { فَأُوْلَائِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ في الجنَّة والثواب ، لا يضرُّهم النفاقُ السابق إذا أصلَحُوا وتابُوا. قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً } ؛ وهو الجنَّة.
ولَمَّا حُذِفَتِ الياءُ من (يُؤْتَ) في الخطِّ ، كما حذفت في اللفظ بسكونِها وسكون اللام في اسم اللهِ ، فكذلكَ{ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ }[العلق : ١٨] و{ يَدْعُ الدَّاعِ }[القمر : ٦]. ويحتملُ أن يكون معنَى الآية : بَيَانُ زيادةِ الثواب لِمَنْ يَسْبقُ منه كفرٌ ولا نفاق ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً }. (وَسَوْفَ) كلمة تَرْجِيَةٍ وإطْمَاعٍ ؛ وهي من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إيجابٌ ؛ لأنه أكرمُ الأكرمين ، وَوَعْدُ الكريمِ إنجازٌ.

(٠/٠)

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ } ؛ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ المنافقين هم الذينَ أوقعُوا أنفسَهم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار ، واستحقُّوا ذلك بنفاقِهم ، وإنه ليسَ في حكمةِ الله تعذيبُ مَن شَكَرَ وآمَنَ ، وإنَّما في حكمتهِ أن يَجْزِيَ كلَّ عامل بما عَمِلَ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ } أي ما حَاجَتُهُ إلى تعذيبكم أيُّها المنافقونَ إن وحَّدتُم في السِّرِّ وصدَقتُم في إيْمانكم.
ويقالُ معنى : { إِن شَكَرْتُمْ } نِعَمَ اللهِ { وَآمَنْتُمْ } بِهِ وبكتبه ورُسُلِهِ. وَقِيْلَ : فيه تقديمٌ وتأخير ؛ أي إن آمنتُم وشكرتُم ؛ لأنَّ الشُّكْرَ لا يقعُ مع عدمِ الإيْمان. وبيَّنَ اللهُ تعالى أن تعذيبَ عبادهِ لا يزيدُ في مُلْكِهِ

، وأن تركَ عقوبتِهم على فعلهم لا يُنْقِصُ من سُلْطَانِهِ.
قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً } ؛ أي شَاكِراً للقليلِ من أعمالكم ؛ مُثِيْباً عليها ؛ يقبلُ اليَسِير ؛ ويعطي الجزيلَ عليها بأضعافِها لكم ؛ واحدةٌ إلى عشرةٍ إلى سبعمائة إلى ما شاءَ اللهُ من الأضْعَافِ.
والشُّكرُ من العبدِ : هو الاعترافُ النِّعمة الواصلةِ إليه مع صِدْقٍ من التعظيمِ ، والشُّكْرُ من اللهِ تعالى : هو مجازاتهُ العبدَ على طاعتهِ.

(٠/٠)

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ } ؛ قال ابن عبَّاس : (مَعْنَاهُ : لاَ يُحسبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالدُّعَاءِ الشَّرِّ عَلَى أحَدٍ إلاَّ أنْ يَظْلَمَ فِيْهِ ؛ فَيَدْعُو عَلَى ظَالِمِهِ فَلاَ يُعَابُ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ مَأْذُونُ لَهُ فِي أنْ يَشْكُو ظَالِمَهُ وَيَدْعُو عَلَيْهِ).
ويقالُ : (إلاَّ مَنْ ظُلِمَ) استثناءٌ منقطع ؛ معناهُ : لكن المظلومُ يجهر بظَلاَمَتِهِ تَشَكِّياً. وفي تفسير الحسنِ : (لاَ يُحِبُّ اللهُ الْمُشْتِّمَ فِي الانْتِصَار إلاَّ مَنْ ظُلِمَ ، فَلاَ بَأْسَ لَهُ أنْ يَنْتَصِرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ بِمَا يَجُوزُ لَهُ الانْتِصَارُ بِهِ فِي الدِّيْنِ). ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ }[الشعراء : ٢٢٧]. قال الحسنُ : (لاَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ((إذا قِيْلَ لَهُ)) : يَا زَانِي ، أنْ يَقُولَ بمثْلِ ذلِكَ أوْ نَحْوِهِ مِنْ أنْوَاعِ الشَّتْمِ).
وقال مجاهدُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الضَّيْفِ إذا لَمْ يُضَفْ وَمُنِعَ حَقَّهُ ، فَقَدْ أُذِنَ لَهُ أنْ يَشْكُو) ، والضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أيَّامٍ.
ومن قرأ [إلاَّ مَنْ ظَلَمَ] بنصب الظاء ، فمعناهُ لكن الظالِمُ يجهرُ بذلك ظُلماً واعتداءً. وَقِيْلَ : لكن الظالِمُ إجْهَرُوا لهُ بالسُّوءِ من القولِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً } ؛ أي { سَمِيعاً } لدُعاءِ الْمَظْلُومِ ؛ { عَلِيماً } بعقوبةِ الظالِمِ. ويقالُ : (سَمِيْعاً) لجميع المسمُوعات ؛ { عَلِيماً } لجميع المظلُومات. فقولهُ تعالى : { إِلاَّ مَن ظُلِمَ } في موضع نصبٍ على الاستثناء المنقطعِ.

(٠/٠)

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً } ؛ معناه : إنْ تُظْهِرُوا خيراً أو تُسِرُّوهُ أو تعفُوا عن مَظْلَمَةٍ ظُلِمْتُمْ بها ؛ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا. العَفُوُّ : كَثِيْرُ الْعَفْوِ من غيرِ

حَصْرٍ ، والقديرُ والقادر بمعنى واحدٍ ؛ أي أنَّ اللهَ قادرٌ على العقوبة به ، ثم يعفُو عن عبادهِ مع قدرته على الانتقامِ. وَقِيْلَ : معنَى الآية : إن تَرُدُّوا جواباً حَسَناً أو تَسْكُتُوا عن الظالِمِ ولا تُحَقِّرُوهُ ولا تؤاخذوه بظُلْمِهِ ؛ فإن يُعفَ عن الظالِمِ ذنوبُهُ ؛ فإن عَفْوَ اللهِ عن معاصيكم أكثرُ من عفوِكم عمن ظلمَكم.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً } ؛ نزلت هذه الآية في اليهودِ والنَّصارى ؛ آمنتِ اليهودُ بموسى والتوارةِ ؛ وكفرَتْ بعيسى والإنجيلِ ، وآمنَتِ النصارَى بعيسى والإنجيلِ ؛ وكفرت بموسى والتوارة وبمُحَمَّدٍ والقُرْآنِ ؛ وكلُّهم كَفَرَ بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ ، فأعْلَمَ اللهُ : أنْ ليسَ من الإيْمان بالبعضِ ، والكفرِ بالبعضِ دينٌ يُتَّخَذُ ذلك طريقاً.

(٠/٠)

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً } ؛ اي أهلُ هذه الصِّفة هُمُ الْكَافِرُونَ البتَّةَ ، وانتصبَ قولهُ (حَقًّا) على المصدر ؛ والفائدةُ في قوله : (حَقًّا) بيانُ أنَّ إيْمانَهم بالبعضِ لا ينفعُهم ، ولا يسلبُ اسمَ الكفرِ عنهم.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } ؛ يعني في الإيمان والتصديقِ ؛ { أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ } ؛ أي ثوابَهم ، وسُمِّي الثوابُ أجراً ؛ لأنه مُسْتَحقٌّ كالأُجرة ، { وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }.

(٠/٠)

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَآءِ } ؛ أي يسألك يا مُحَمَّدُ كعبُ بنُ الأشرفِ وجماعةٌ من اليهود أن تُنَزِّلَ علَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ أي يسألك يا مُحَمَّدُ كعبُ بنُ الأشرفِ وجماعةٌ من اليهود أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ جُمْلَةً واحدةً كما أنْزِلَتِ التوراةُ على موسى ، وهذا حينَ قولوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنْزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذلِكَ } ؛ أي لا تَعْجَبْ من مسألَتِهم بعدما رَأَوا الآياتِ أعظمَ من ذلك ، { فَقَالُواْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } ؛ أي مُعَايَنَةً ظاهرةً مكشفةً ؛ وهم السَّبعون الذين كانوا معه عند الجبلِ حين كلَّمَهُ اللهُ ، فسألوهُ أن يَرَوا ربَّهم رؤيةً يدركونَهُ بأبصارهم في الدُّنيا. وقال أبو عُبيد : (مَعْنَى الآيَةِ : قَالُواْ جَهْرَةً أرنَا اللهَ) فَجَعَلَ جَهْرَةً صِفَةً لِقَوْلِهِمْ ؛ قال : (لأنَّ الرُّؤْيَةَ لاَ تَكُونُ إلاَّ جَهْرَةً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } ؛ أي أخذتْهُم النارُ عقوبةٌ لَهم بسؤالِهم موسى ما لَمْ يستحقُّوه.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } ؛ أي عَبَدُوا العجلَ من بعد ما جاءتْهُم الدَّلالاتُ على توحيدِ الله ، وفي هذا بيانُ جَهْلِ اليهودِ وتَعَنُّتِهِمْ وعِنَادِهِمْ ، وأيُّ جَهْلٍ أعظمُ من اتِّخَاذِ العِجْلِ إلَهاً ، بعد ظُهُور المعجزاتِ وثُبوتِ الآيات البيِّنات.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَعَفَوْنَا عَن ذلِكَ } ؛ أي تَجَاوَزْنَا عنهم بعد توبتِهم مع عِظَمِ جنايتِهم وجريْمَتهم ولم نَسْتَأْصِلْهُمْ ، دلَّ اللهُ تعالى بذلكَ على سَعَةِ رحمتهِ ومغفرته وتَمام نِعْمَتِهْ ومِنَّتِهِ ، بيَّنَ ذلك أنهُ لا جريْمَة تضيقُ عنها مغفرةُ اللهِ ، وفي هذا مَنْعٌ من القُنُوطِ واستدعاءٌ إلى التوبة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً } ؛ أي أعطيناهُ حُجَّةً على مَن خالفَهُ بيِّنةً ظاهرةً ؛ وهي اليَدُ والعصَا.

(٠/٠)

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ } ؛ أي ورفعنَا فوقَ رؤوسِهم الجبلَ بإقرارهم بالله وبنبوَّة موسَى ، وذلك حين أبَوا قَبُولَ التَّوراةِ ، فرفعَ اللهُ فوقَهم الطُّورَ ، فقبلُوها فَخَرُّوا سُجَّداً ، فرفعَ اللهُ الطُّورَ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً } ؛ أي قلنا لَهم : ادخُلُوا بابَ أريْحَا إذا دخلتمُوها خاشعينَ للهِ مُنْحَنِيَةً أصلابُكم ، فدخلوا زَحْفاً وبدَّلُوا ما قِيْلَ لَهم. ويقالُ أراد بالباب : البابَ الذي عَبَدُوا فيه العِجْلَ ، أمَرَهُم اللهُ أن يدخلوه بعدَ تَوْبَتِهِمْ عن عبادةِ العِجْلِ ساجدين للهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فيصيرُ ذلك كفَّارَةً لعبادةِ العجل.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ } ؛ أي قُلْنَا لَهَم مع هذا أيضاً : لا تَسْتَحِلُّوا أخْذ السَّمَكِ في يوم السَّبتِ. ومن قرأ (لاَ تَعَدُّوا) بتشديد الدَّال ؛ فأصلهُ : لا تَعْتَدُوا ؛ فَأُدْغِمَتِ الدالُ في الدال وأقيم التشديدُ مقامه. والقراءةُ بالتخفيف من عَدَا يَعْدُو عُدْوَاناً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً } ، إقْرَاراً وثيقاً شَدِيداً يعني العَهْدَ الذي أخذهُ الله في التَّوارةِ فَأَبَوْاْ إلاّ مُضِيّاً على المعصيةِ وخُرُجاً عن الطاعةِ استخفافاً بأمرِ الله.

(٠/٠)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ } ؛ فَبنَقْضِهِمُ الميثاقَ الذي أُخِذ عليهم في التَّوراةِ وبجَحْدِهِمْ القُرْآنَ والإنْجِيْلَ وبما في التَّوراةِ من نَعْتِ الإسلامِ وصِفَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقتلِهم الأنبياءَ بغيرِ جُرْمٍ ، { وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ } ؛ أي في أوْعِيَةٍ لا تَعِي شيئاً ، بقولُ الله تعالى : { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ } ؛ أي ليسَ كما قالُوا ، ولكن خَتَمَ اللهُ على قلوبهم مجازاةً على كفرهم ، { فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي إلاّ إيْماناً قليلاً لا يَجِبُ أن يسمَّوا به مؤمنين ، فذلك أنَّهم آمنُوا ببعضِ الرُّسُلِ والكتُب دون البعضِ.

وقال الحسنُ : (فِي هَذَا تَقْدِيْمٌ وَتأخِيْرٌ ؛ مَعْنَاهُ : بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بكُفْرِهِمْ إلاَّ فقَلِيْلاً فَلاَ يُؤْمِنُونَ ، وَالْمُرَادُ بالْقَلِيْلِ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَمَنْ تَابَعَهُ }. أما دخولُ (مَا) في قوله تعالى { فَبِمَا نَقْضِهِم } فمعناه التأكيدُ ؛ كأنه قالَ : فَبِنَقْضِهِمُ الْعَهْدَ ، وجوابُ قولهِ تعالى { فَبِمَا نَقْضِهِم } مضمرٌ في الآية ؛ تقديرهُ :

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيْثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ، هذا لأنَّ أولَ الآيةِ ذمٌّ على الكفرِ ، ومَن ذمَّهُ اللهُ فقد لَعَنَهُ ، يعني مَن ذمَّهُ على الكُفْرِ. ويقالُ : إن الجالبَ للباقي قولَهُ : { فَبِمَا } قولهُ تعالى مِنْ بَعْدُ{ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ }[النساء : ١٦٠] فقوله تعالى { فَبِظُلْمٍ } بدلٌ من { فَبِمَا نَقْضِهِم } ، وجوابُهما جميعاً{ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ }[النساء : ١٦٠].

(٠/٠)

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً } ؛ عَطْفٌ على ما تقدَّم ؛ أي وَبجَحْدِهِمْ عِيْسَى وَالإنْجِيْلَ وَمُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم وَرَمْيِهِمْ مَرْيَمَ بالزِّنَا ؛ وَهُوَ الْبُهْتَانُ الْعَظِيْمُ.
وذلك : أنَّ عِيْسَى عليه السلام اسْتَقْبَلَ رَهْطاً مِنَ الْيَهُودِ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : قَدْ جَاءَ السَّاحِرُ بْنُ السَّاحِرَةِ ؛ وَالْفَاعِلُ بْنُ الْفَاعِلَةِ ، فَقَذَفُوهُ وَأُمَّهُ ، فَلَمَّا سَمِعَ بذلِكَ عِيْسَى ، قَالَ : اللَّهُمَّ أنْتَ رَبي وَأنَا عَبْدُكَ ؛ بِقُدْرَتِكَ خَرَجْتُ وَبِكَلِمَتِكَ خَلَقْتَنِي ، وَلَم أُتَّهَمْ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، اللَّهُمَّ الْعَنْ مَنْ سَبَّنِي وَسَبَّ وَالِدَتِي. فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَمَسَخَ ذَلِكَ الرَّهْطُ الَّذِيْنَ سَبُّوهُ وَسَبُّوا أُمَّهُ خَنَازِيْرَ ، وَكَانُواْ رَمَوا أُمُّهُ بِيُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ مَانَانَ.

(٠/٠)

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذَلِكَ أنَّهُ لَمَّا مُسِخَ الرَّهْطُ الَّذِيْنَ سَبُّواْ عِيْسَى وَأُمُّه ، فَمَسَخَ اللهُ مَنْ سَبَّهُمَا قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ ؛ وَدَخَلَ بَيْتاً فِي سَقْفِهِ رَوْزَنَةٌ – أيْ كُوَّةٌ – فَرَفَعَهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام إلَى السَّمَاءِ ؛ وَأمَرَ يَهُودِيّاً مِلِكُ الْيَهُودِ رَجُلاً يُقَالُ لَهُ طِيْطَانُوسُ أنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ فَيَقْتُلَهُ ؛ فَدَخَلَ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَأَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ شَبَهَ عِيْسَى عليه السلام ، فَلَمَّا خَرَجَ إلَى أصْحَابِهِ قَتَلُوهُ وَهُمْ يَظُنُّونَ أنَّهُ عِيْسَى ، ثُمَّ صَلَبُوهُ.
فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَتَلْنَاهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ وَجْهَهُ وَجْهَ عِيْسَى وَجَسَدَهُ جَسَدَ صَاحِبِنَا ، فَإنْ كَانَ هَذا عِيْسَى فَأَيْنَ صَاحِبُنَا ؟ وَإنْ كَانَ هَذَا صَاحِبُنَا فَأَيْنَ عِيْسَى ؟ فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وَاخْتَلَفُواْ فِيْهِ ، ثُمَّ بَعَثَ عَلَيْهِمْ طَاطُوسَ بْنُ اسْتِيبَانْيُوسُ الرُّومِيُّ فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيْمَةً).

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { رَسُولَ اللَّهِ } قولُ اللهِ خاصَّة لا قولَ اليهودِ ، وكانت اليهودُ تُقول : عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ ، قال اللهُ تعالى : { رَسُولَ اللَّهِ } أي يَعْنُونَ الذي هو رَسُولُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَاكِن شُبِّهَ لَهُمْ } ؛ أي ومَا قَتَلُوا عيسَى وما صَلَبُوهُ ولكن أَلْقَى اللهُ على طِيْطَانُوسُ شَبَهَ عِيْسَى فقتلوهُ ؛ وَرُفِعَ عِيْسَى إلى السَّماءِ. قال الحسنُ : إنَّ عِيْسَى عليه السلام قَالَ لِلْحَوَارِيِّيْنَ : أَيُّكُمْ يَرْضَى أنْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلَ فَيَدْخُلَ الجنَّةَ ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْحَوَارِيِّيْنَ فَقَالَ : أنَّا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَأَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ شَبَهَ عِيْسَى ؛ فَقُتِلَ وَصُلِبَ ، وَرَفَعَ اللهُ عِيْسَى إلَى السَّمَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ } ؛ أي مِنْ قَتْلِهِ ، قال الكلبيُّ : (اخْتِلاَفُهُمْ فِيْهِ : أنَّ الْيَهُودَ قَالُواْ : نَحْنُ قَتَلْنَاهُ وَصَلَبْنَاهُ ، وَقَالَ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى : بَلْ نَحْنُ قَتَلْنَاهُ وَصَلَبْنَاهُ ، فَمَا قَتَلَهُ هَؤُلاَءِ وَلاَ هَؤُلاَءِ ، بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ إلَى السَّمَاءِ).

ويقال : إنَّ الله تعالى لَمَّا ألقَى شَبَهَ عِيسَى على طيطانوسُ ألقاهُ على وجههِ دون جَسَدِهِ ، فَلَمَّا قَتَلُوا طيطانوس ؛ نَظَرُوا إليهِ فإذا وجههُ وجهُ عيسَى وجسَدُه غيرُ جَسَدِ عيسَى ، فقالوا : إن كان هذا عيسَى ، فأينَ صاحبُنا ؟ وإن كانَ صاحِبُنا فأينَ عيسَى ؟ فقال اللهُ تعالى : { مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً } ؛ نَعْتٌ كمصدرٍ محذوف تقديرهُ : وَمَا عَلِمُوهُ عِلْماً يَقِيْناً.

(٠/٠)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } ؛ أي بَلْ رَفَعَهُ الله إلى السَّماء ، وإنَّما سَمَّى ذلكَ رَفْعاً إليه ؛ لأنه رُفِعَ إلى موضعٍ لا يَملكُ فيه أحدٌ شيئاً إلاّ (اللهُ). قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً } ؛ قد ذكرنا معناهُ غيرَ مرَّة ، وفائدةُ ذكرِهِ ها هنا : بيانُ قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نَجَاةِ من يساءُ ، وبيانُ حكمتهِ فيما فعلَ ويفعلُ وحَكَمَ ويحكمُ ، فلما رَفَعَ اللهُ عيسى عليه السلام كَسَاهُ الرِّيْشَ وألبسَهُ النورَ وقطعَ عنهُ شهواتِ الْمَطْعَمِ والْمَشْرَبِ وطارَ مع الملائكةِ ؛ فهو معهم حولَ العرشِ فكأنه إنْسِيّاً ملكياً سَمَاوِيّاً أرْضِيّاً. قال وهبُ بن مُنَبِهٍ : (يُبْعَثُ عِيْسَى عَلَى رَأسِ ثَلاَثِيْنَ سَنَةٍ ، وَرَفَعَهُ اللهُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً ، وَكَانَتْ نُبُوَّتُهُ ثَلاَثَ سِنِيْنَ).

(٠/٠)

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } ؛ لمَّا ذكرَ اللهُ تعالى اختلافَ اليهودِ والنَّصارى في عيسَى ؛ بَيَّنَ بعدهُ أن هذا الشّكَّ سيزولُ عن كل كتابيٍّ ، فقالَ تعالى : { وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ } أي ما أحدٌ مِن أهلِ الكتاب إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بعيسَى قبلَ لأن يَموتَ الكتابيُّ يعني : إذا عَايَنَ اليهوديُّ أمرَ الآخرةِ وَحَضَرَتْهُ الوفاةُ ؛ ضَرَبَتِ الملائكةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ ؛ وقالت : أتاكَ عيسى نبيّاً فَكذبْتَ بهِ ؛ فيؤمنُ حين لا ينفعهُ إيْمانهُ ، ويقول للنصرانيِّ : أتاكَ عيسى عليه السلام نَبيّاً فَكَذَبْتَ عبدَاللهِ ورسولَهُ ، فزعمتَ أنهُ هو اللهُ وابن اللهِ ، فيؤمنُ بأنهُ عبدُاللهِ حين لا ينفعهُ إيْمانهُ.

وَقِيْلَ : معناهُ : قبلَ موتِ عيسَى ، وهذا قولُ الحسنِ وقتادةَ والربيعِ ؛ جعلوا هاتَين الكنايَتين في (بهِ) و (مَوْتِهِ) راجعينَ إلى عيسَى عليه السلام ، والقولُ الأولُ هو قول عكرمةَ ومجاهدُ والسُّدِّيُّ ؛ جعلوا الهاءَ في قولهِ (به) راجعةً إلى عيسَى ، وفي قوله (مَوْتِهِ) راجعةً إلى الكتابيِّ الذي يؤمنُ به إذا عايَن الموتَ ، وهي روايةٌ عنِ ابن عبَّاس ؛ قالوا : (لاَ يَمُوتُ يَهُودِيٌّ وَلاَ صَاحِبُ أَوْ أَكَلَهُ سَبْعٌ أَوْ مِيْتَةٍ كَانَتْ) حَتَّى قيلَ لابنِ عبَّاس : (أَرَأَيْتَ إِنْ خَرَّ مِنْ فَوْقِ بَيْتٍ ؟ قال : تَكَلَّمَ بِهِ الْهَوْيِ ؛ قِيلَ لَهُ : رَأَيْتَ لَوْ ضُرِبَتْ عُنُقُ أَحَدِهِمْ ؟ قَالَ : تَلَجْلَجَ بِهِ لِسَانُهُ). يدلُّ على صحَّة هذا التأويلِ قراءةُ أُبَيٍّ (قَبْلَ مَوْتِهِمْ).

قال شَهْرُ بن الْحَوْشَب : (قَالَ لِيَ الْحَجَّاجُ يَوْماً : إِنَّ آيَةً مِنْ كِتَاب اللهِ مَا قَرَأْتُهَا إِلاَّ تَلَجْلَجَ لِي فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ ، قُلْتُ : وَمَا هِيَ ؟ قالَ : { وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ } وَإِنِّي لأُوْتَى بالأَسِيرِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فَمَا أَسْمَعُهُ يَقُولُ شَيْئاً.

قُلْتُ : إِنَّ الْيَهُودِيَّ إِذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ ؛ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ ؛ وَتَقُولُ لَهُ : يَا عَدُوَّ اللهِ ؛ أَتاكَ عِيْسَى عَبْداً نَبيّاً فَكَذبْتَ بهِ ، فَيَقُولُ : إِنِّي آمَنْتُ بهِ إِنَّهُ عَبدٌ نَبيٌّ ، فَيُؤْمِنُ بهِ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُهُ إِيْمَانُهُ ، وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ لِلنَّصْرَانِيِّ : يَا عَدُوَّ اللهِ ؛ أَتَى عِيْسَى عَبْداً نَبيّاً فَكَذَبتَ بهِ وَقُلْتَك إِنَّهُ اللهُ وَابْنُ اللهِ ، فَيَقُولُ : إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُهُ إِيْمَانُهُ.

قَالَ الْحَجَّاجُ : وَمَنْ حَدَّثَكَ بهَذا الْحَدِيْثِ ؟ قُلْتُ : حَدَّثَنِي بهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ ، قَالَ : – وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ – ثُمَّ نَكَتَ فِي الأَرْضِ بقَضِيبَةٍ سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأَسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : أَخَذْتَهَا مِنْ مَعْدَنِهَا.

قَالَ الْكَلْبِيُّ : فَقُلْتُ لِشَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ : وَمَا الَّذِي أَرْدَتَ بقَوْلِكِ لِلْحَجَّاجِ : حَدَّثَنِي بذلِكَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ يَكْرَهُهُ ، وَيَكْرَهُ مَنْ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أَغِيْظَهُ).

وحُجَّةُ من قال : إنَّ الهاءَ في قوله { مَوْتِهِ } راجعةٌ إلى عيسَى : ما رويَ في الخبرِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : [أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بعِيْسَى ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبيٌّ ، وَيُوْشِكُ أَنْ يَنْزِلَ فِيْكُمْ حَكَماً عَدلاً ، فَإِذا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، كَأَنَّ رَأَسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، فَيَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ ؛ وَيُرِيْقُ الْخَمْرَ ؛ وَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ ؛ وَيُذْهِبُ السَّحَرَةَ ؛ وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ ؛ وَتَكُونُ السَّجْدَةُ وَاحِدَةً للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ مَسِيْحَ الضَّلاَلَةِ الْكَذَابَ الدَّجَّالَ ؛ حَتَّى لاَ يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب وَقْتَ نُزُولِهِ إِلاَّ يُؤْمِنُ بهِ ، وَتَقَعُ الأَمَنَةُ فِي زَمَانِهِ حَتَّى تَرْتَعَ

الإبلُ مَعَ الأُسُودِ ؛ وَالْبَقَرُ مَعَ النُّمُورِ ؛ وَالْغَنَمُ مَعَ الذِّئَاب ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بالْحَيَّاتِ ، لاَ يُؤْذِي بَعْضُهُمْ بَعضاً ، ثُمَّ يَلْبَثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً ثُمَّ يَمُوتُ ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُوهُ).

(٠/٠)

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } ؛ أي فَبكُفْرِ اليهودِ وجُرمِهم حرَّمنا عليهم أشياءَ كانت طَيِّبَةً لَهم في التوراةِ ؛ منها : لُحُومُ الإبلِ وألبانُها والشُّحومُ ، وكانوا إذا أصابُوا ذنباً عظيماً حَرَّمَ اللهُ عليهم طعاماً طَيِّباً ، { وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً } ؛ معناهُ : بسبب مَنْعِهِمُ الناسَ عن دينِ الله وهو الإسلامُ ، وَ ؛ بسَبَب ؛ { وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ } ؛ وقد نُهوا عن ذلك في التَّوراة ، وَ ؛ بسبب ؛ { وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ } ؛ أكلِ أموال الناس بالظُّلمِ ، وأخذِ الرِّشَا في الحكمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } ؛ أي خَلَقْنَا وهيَّأْنا للكافرينَ منهم عذاباً وَجِيْعاً يَخْلُصُ وجعهُ إلى قلوبهم ، وإنَّما خصَّ الكافرينَ لبيانِ أن مَن يؤمنُ منهم غيرُ داخلٍ في هذا الوعيدِ.

ثُمَّ استثنىَ اللهُ تعالى منهم مَن آمَنَ ، فقال تعالى : { لَّاكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ } ؛ أي لكن التائبون مِن أهلِ الكتاب وهم عبدُالله بنُ سلامٍ وأصحابُه ، وسَمَّاهم { الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } لثباتِهم في العِلْمِ وتَبَحُّرِهِمْ فيه ؛ لا يضطربون ولا تَميلُ بهم الشُّبَهُ ، بمنْزِلة الشجرةِ الرَّاسخةِ بعروقِها في الأرض.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ } أي والمؤمنونَ مِن غير أهل الكتاب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدِّقون بما نزل إليكَ من الفُرْقَانِ ، وما فيه من تَحريم هذهِ الأشياء عليهم ، ويصدِّقون بما أُنْزِلَ من قبلِكَ على الأنبياءِ من الكُتُب ، { وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ } ؛ يجوزُ أن يكونَ معناهُ : يؤمنونَ بالنبيِّين المقيمينَ الصلاةَ ، فيكون قولهُ { وَالْمُقِيمِينَ } نَسَقاً على قولهِ{ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ }[النساء : ٦٠].

ويجوزُ أن يكون نَصْباً على المدحِ على معنى : أعْنِي الْمُقِيْمِيْنَ الصَّلاَة ؛ وَهُمْ : { وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } ؛ كما يقال : جاءني قومُكَ الْمُطْعِمُونَ فِي الْمَحَلِّ ؛ وَالْمُعِيْنُونَ فِي الشَّدَائِدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً } ؛ أي الْمُصَدِّقُونَ باللهِ وبالبعثِ بعدَ الموتِ أولئكَ سنعطيهم ثَواباً وافِراً في الجنَّة.

(٠/٠)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)

قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزّ : { إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ } ؛ أي أنْزِلْنَا جبريلَ عليكَ بهذا القُرْآنِ كما أوحينَا إلى نوحٍ ؛ فأمرَ بالاستقامةِ على التَّوحيدِ ودعوةِ الخلقِ إليه ، وكما أوحيْنَا إلى النبيِّين مِن بعدِ نوحٍ أوحينَا إليكَ. قِيْلَ : إنَّ نوحاً عليه السلام عَمَّرَ ألفَ سنةٍ لم تَنْقُصْ لهُ سِنٌّ ولا قوَّة ، ولم يَشِبْ له شعرٌ ، ولم يبلُغْ أحدٌ من الأنبياءِ في الدذَعوةِ ما بَلَغَ ، ولم يَصْبرْ على أذى قومهِ ما صَبَرَ ، وكان يدعُو قومَهُ لَيلاً ونَهاراً ، وسِرّاً وإعْلاناً ، وكان الرجلُ من قومهِ يضربهُ فيُغْمَى عليه ، فإذا أفَاقَ دَعَا وَبَلَّغْ ، وَقِيْلَ : هو أوَّلُ مَن تَنْشَقُّ عنهُ الأرضُ يومَ القيامةِ بعد مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ } ؛ وهم بنو يعقوبٍ عليه السلام وهم اثْنَا عشرَ رَجُلاً ، وَ ؛ إلَى ؛ { وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا } ؛ أي أعْطَيْنَا ؛ { دَاوُودَ زَبُوراً } ؛ والزَّبُورُ : هو الكتابُ ، مأخوذٌ من الزُّبْرِ ؛ وهو الكتابةُ ، ومن قرأ زُبُوراً بضَمِّ الزَّاي وهو الأعمشُ وحمزةُ وابن وثَّاب ؛ فمعناهُ : الكتُبُ على الْجَمْعِ.
فإن قيلَ : كيفَ قدَّمَ اللهُ ذكر عِيْسَى على ذِكْرِ أيُّوبَ ويونُسَ وهارونَ وسليمان وداوُدَ ، وهو مِنْ بعدِهم ؟ قِيْلَ : لأنَّ الواوَ للجمعِ دون الترتيب ، فتقديمُ ذِكْرِهِ في الآيةِ لا يوجبُ تقديْمَهُ في الْخَلْقِ والإرسال ، والفائدةُ في تقديْمهِ في الذكرِ : الردُّ على اليهودِ ، وَلِغُلُوِّهِمْ في الطَّعْنِ وفي نَسَبِهِ ، فقدَّمهُ اللهُ في الذكرِ ؛ لأن ذلك أبلغَ في كُتُب اليهودِ وفي تَنْزِيْهِهِ مِمَّا رُمِيَ به ونُسِبَ إليهِ.

(٠/٠)

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ } ؛ عَطْفُ على{ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ }[النساء :

١٦٣] ، كأنه قالَ : إنا أرسلناكَ مُوحِيْنَ إليكَ ، وأرسلنا رُسُلاً قد قَصَصْنَا عليكَ ، ويجوزُ أن يكون مَنْصُوباً بالفعلِ الذي بعدَه ، كأنهُ قالَ : وقد قَصَصْنَا رُسُلاً عليكَ ، ومعناه : قَصَصْنَاهُمْ ؛ أي سَمَّيْنَاهُمْ لكَ في القُرْآنِ ، وعرَّفناكَ قِصَّتَهُمْ ، { وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ } ؛ أي وأرسلنَا رُسُلاً لم نُسَمِّهِمْ لكَ وأمرناهم بالاستقامةِ على التَّوْحِيْدِ ودعوةِ الْخَلْقِ إلى الله.

وعن أبي ذرٍّ قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ كَمْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ ؟ وَكَمْ كَانَ الْمُرْسَلُونَ ؟ قَالَ : (كَانَتْ الأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مَائَةَ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفاً ، وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ ثَلاَثَمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ).

وعن كعب الأحبار أنه قالَ : (الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ألفَا ألفٍ ومائتا الفٍ وخمسَةٌ وعشرون ألفاً ، والمرسلُ ثلاثُمائة وثلاثة عشر. وكان داودُ عليه السلام قد أُنْزِلَ عليه الزبورُ ، وكان يَنْزِلُ إلى البرِّيَة ويقرأ الزبورَ ؛ فيقومُ معه علماءُ بني إسرائيلَ خَلْفَهُ ؛ ويقومُ الناسُ خَلْفَ العلماءِ ، وتقومُ الْجِنُّ خلفَ الناسِ ، وتجيءُ الدوابُ التي في الجبالِ إذا سَمعت صوتَ داودَ فَيَقُمْنَ بين يديه تَعَجُّباً لِمَا يسمعنَ من صوتهِ ، وتجيءُ الطيرُ حتى يُظَلِّلْنَ على داودَ في خلائقِ لا يحصيهنَّ إلاّ اللهُ يُرَفْرِفْنَ على رأسهِ ، وتجيءُ السِّبَاعُ حتى تحيطَ بالدواب والوحشِ لما يسمعنَ ، ولما قَارَنَ الذنْبَ لم يَرَ ذلك ، فقيلَ لهُ : ذلكَ أنْسُ الطاعةِ ، وهذه وَحْشَةُ المعصيةِ.

وعن أبي موسَى الأشعريِّ قالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لَوْ رَأَيْتَنِي الْبَارِحَةَ وَأَنا أَسْتِمِعُ لِقِرَاءَتِكَ ، لَقَدْ أُعْطِيْتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيْرِ آلِ دَاوُدَ " فَقَالَ : فَقُلْتُ : أَمَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ؛ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْتُهُ تَحْبِيْراً. وكان عمرُ رضي الله عنه اذا رأىَ أبَا موسَى عليه السلام قال : " ذَكِّرْنَا يَا أَبَا مُوسَى " فيقرأهُ عندَهُ ". وعن أبي عثمان النَّهْدِيِّ ؛ قالَ : (مَا سَمِعْتُ قَطُّ بُرْبُطاً وَلاَ مِزْمَاراً وَلاَ عُوداً أَحْسَنَ مِنْ صَوْتِ أبي مُوسَى ، وَكَانَ يَؤُمُّنَا فِي صَلاَةِ الْغَدَاةِ فَنَوَدُّ أَنَّهُ يَقْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ).

وفي تفسير الكلبيُّ : (أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَنْزَلَ الآيَةَ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ ؛ وَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى النَّاسِ ؛ قَالَ الْيَهُودُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ : مَا نَرَى مُحَمَّداً يَقْرَأُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ؛ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْهِ كَمَا أُوْحِيَ إِلَى النَّبِيِّيْنَ مِنْ قَبْلِهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَالُواْ ؛ إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ ذَكَرَهُ فِيْمَنْ ذَكَرَهُ وَفَضَّلَهُ بِالْكَلاَمِ عَلَيْهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى } ؛ وفائدة تخصيصِ موسَى عليه السلام بالكلامِ مع انَّ اللهَ تعالى كَلَّمَ غيرَه من الأنبياءِ ، ؛ لأنه تعالى كَلَّمَهُ من غيرِ واسطةٍ ؛ وَكَلَّمَ غيرَه من الأنبياء بالْوَحْيِ إليهم على لِسَانِ بعضِ الملائكةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَكْلِيماً } ؛ يدلُّ على التأكيدِ كَيْلاَ يحملَ كلامُ اللهِ إياهُ على معنى الوَحْيِ إليه.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } ؛ معناه : فَأَرْسَلْنَا هؤلاءِ رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ بالجنَّةِ لمن أطاعَ وَمُخَوِّفِينَ بالنار لمن عصَى ؛ { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } ؛ لئلاَّ يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ يومَ القيامةِ بعد إرسال الرُّسُلِ إليهم ؛ فيقولوا : رَبَّنَا لولاَ أرسلتَ إلينا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ، { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً } ؛ ظاهرُ المرادِ.

(٠/٠)

لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّاكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذَلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ أتَوْا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَوا : سَأَلْنَا اليَهُودَ عَنْ نَعْتِكَ وَصِفَتِكَ ؛ فَزَعَمُواْ أَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَكَ فِي كُتُبِهِمْ ، فَأَتِنَا بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ أنَّ اللهَ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولاً ، فأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ ، وَأَنْزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ }[الأنعام : ١٩]).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ } ؛ أي على عِلْمٍ منهُ بأنَّكَ أهْلٌ لإنْزَالِهِ عليكَ ، وعَلِمَ من يَقْبَلُ ومن لا يقبلُ كما قالَ اللهُ تعالى : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ }[الأنعام : ١٢٤]. وَقِيْلَ : معناهُ : (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) أي عَلِمَ ما فيهِ من الأحكامِ وما تحتاجُ إليه العبادُ من أمرِ دِينهم ودُنياهم ثُمَّ أنْزَلَهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : بل وَصَلَ إليكَ كما كان في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ } ؛ أي يشهدونَ على شهادَةِ اللهِ ، وعلى شهادتِكَ بأنَّ الذي شَهِدْتَ به حَقٌّ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } ؛ أي اكْتَفُوا باللهِ شهيداً في شهَادَتِهِ أن تَشْهَدَ اليهودُ بما في كتابهم.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً } ؛ معناهُ إنَّ الذين جَحَدُواْ وحدانيَّةَ اللهِ وَمُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم والْقُرْآنَ ، وصَرَفُوا الناسَ عن دينِ الله وطاعتهِ فقد أخْطَأُواْ خَطَأً بعيداً عن الْهُدَى والثواب. بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ضَلاَلَتَهُمْ في الدُّنيا.
ثم بيَّن عقوبتَهم في الآخرةِ فقالَ تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ } ؛ أي إنَّ الذينَ كفرُوا بما يجبُ الإيْمان به ظَلَمُوا أنفسَهم بكُفْرِهِمْ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ مَا دا مُوا على كُفْرِهم ، { وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً } ؛ إلَى الإسلامِ ، { إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ } ؛ لكن تَرَكَهُمْ على طريقِ جَهَنَّمَ وهو الكفرُ.
وَقِيْلَ : معناهُ : لا يُرْشِدُهُمْ في الآخرةِ إلى طريقٍ غيرَ طريق جهنم ، كما في قولهِ تعالى : { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }[الصافات : ٢٣] ، { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } ؛ التَّخْلِيْدُ والتعذيبُ ، { وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً } ؛ سَهْلاً هَيِّناً.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ } ؛ خطابٌ لعامَّةِ الْخَلْقِ ، { قَدْ جَآءَكُمُ الرَّسُولُ } يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم بكلمةِ التَّوحيدِ والقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ رَبْكُمْ ، { فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ } ؛ فصدِّقوا باللهِ ورسوله ، وبما جاءَ به من عندهِ يكُنْ خيراً لكم من التَّكْذِيْب.
قال الخليلُ والبصريُّون : (انْتَصَبَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (خَيْراً) لأنَّكَ إذا أمَرْتَ بفِعْلٍ دَخَلَ فِي مَعْنَاهُ ؛ تَقْدِيْرُهُ : إئْتُوا خَيْراً لَكُمْ ، وَإذا نَهَيْتَ عَنْ فِعْلٍ دَخَلَ فِي مَعْنَاهُ ؛ تَقْدِيْرُهُ : إئْتِ بَدَلَهُ خَيْراً لَكُمْ). وقال الفرَّاءُ : (انْتَصَبَ لأنَّهُ مُتَّصِلٌ بالأَمْرِ وَهُوَ مِنْ صِفَتِهِ) تَقْدِيْرُهُ : هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا سَقَطَ هُوَ اتَّصَلَ بَما قَبْلَهُ ، وَعَلَى هَذا : انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ. وقال الكسائيُّ : (انْتَصَبَ لِخُرُوجِهِ مِنَ الْكَلاَمِ) وقال : (هَذا إنَّمَا تَقُولُهُ الْعَرَبُ فِي الْكَلاَمِ التَّامِّ ، نَحْوَ قَوْلِكِ : لَتَقُومَنَّ خَيْراً لَكَ ، وَانْتَهِ خَيْراً لَكَ ، وَإذا كَانَ الْكَلاَمُ نَاقِصاً رَفَعُواْ ، فَقَالَ : أنِ انْتَهُواْ خَيْرٌ لَكُمْ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي إنْ تَكْفُرُوا يُعَاقِبْكُمُ اللهُ ، فَإنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. وَقِيْلَ : إنْ تكفرُوا فإنَّ الله غَنِيٌّ عنكُم ، لكونهِ مَالكَ السَّمَوات والأرضِ ، { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً } ؛ أي لَمْ يَزَلْ عَلِيْماً بخلقهِ ، بمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ ، حَكِيْماً في أمرهِ ، حَكَمَ بالإسلامِ على عبادهِ.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ } ؛ نزلَت في نصارَى نَجْرَانَ وهم : النَّسْطُورِيَّةُ : الذين يقولونَ عيسى ابنُ الله ، وَالْمَارْيَعْقُوبِيَّةُ : الذين يقولن عيسى هو اللهُ ، وَالْمَرْقُوسِيَّةُ : الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ ؛ ويقال هم الْملكانيَّة. ومعنى الآيةِ : يَا أَهْلَ الْكِتَاب لاَ تُجَاوزُوا الحدِّ في الدينِ فتغيِّروا فيه. والغُلُوَّ في الدينِ : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فيهِ ، وقد غَلَتِ النصارى في أمرِ عيسى حتى جَاوَزُوا به مَنْزِلَةَ الأنبياءِ فجعلوهُ إلَهاً.

ويقالُ : إنَّ الآيةَ خطابٌ لليهودِ والنصارى ؛ لأنَّ اليهودَ أيضاً غَلَوا في أمرِ عيسَى حتى جَاوَزُوا به مَنْزِلَةَ مَنْ وُلِدَ على غيرِ الطَّهارةِ فجعلوهُ لغيرِ رُشْدِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ } أي لا تَصِفُوا اللهَ إلاَّ بالحقِّ ، والحقُّ أن يقالَ : إلَهٌ وَاحِدٌ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَلاَ صَاحِبَةَ وَلاَ وَلَدَ ، وينَزِّهُهُ عن القبائحِ والنَّقَائصِ وعن جميعِ صفاتِ الْمُحْدَثِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ } ؛ أي ليسَ المسيحُ إلاَّ رَسُولَ اللهِ ؛ لأن (إنَّمَا) تقتضِي تحقيقَ المذكور وتَمحِيْقَ ما سواهُ ، كقولهِ تعالى : { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَاهٌ وَاحِدٌ } ، وفي قولهِ : { عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } بيانٌ أنهُ لا يجوز أن يكونَ إلَهاً ؛ أي كيفَ يكون إلَهاً وهو ابنُ مَرْيَمَ أمَةُ اللهِ ؟ وكيفَ يكون إلَهاً وَأمُهُ قَبْلَهُ. قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ } ؛ أي أنهُ كان بكلمتهِ عَزَّ وجَلَّ وهو قولهُ : (كُنْ) فَكَانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرُوحٌ مِّنْهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أمْرٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ؛ أتَاهَا جِبْرِيْلُ بأَمْرِ اللهِ فَنَفَخض فِي جَيْب دِرْعِهَا ؛ فَدَخَلَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ بَطْنَهَا ؛ فَخَلَقَ اللهُ عِيْسَى بنَفْخَةِ جِبْرِيْلَ عليه السلام]. والنَّفْخُ في اللغة : يُسَمَّى رُوحاً. وَقِيْلَ : سَمَّاهُ اللهُ تعالى رُوحاً ؛ لأنه كان يُحْيِي بهِ الناسَ في الدينِ كما يُحْيُونَ بالأرواحِ. وَقِيْلَ : لأنه رُوْحٌ مِن الأرواحِ أضافَهُ اللهُ إليهِ تشريفاً لهُ ، كما يقالُ : بَيْتُ اللهِ. وقال السُّدِّيُّ : (مَعْنَاهُ (وَرُوحٌ مِنْهُ) أيْ مَخْلُوقٌ مِنْهُ ؛ أيْ مِنْ عِنْدِهِ).

وَقِيْلَ : معناهُ : ورحمةٌ منهُ ؛ أي جعله اللهُ رحمةً لمن آمَنَ بهِ ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ }[المجادلة : ٢٢] أي قَوَّاهُمْ برحمةٍ منهُ. وَقِيْلَ : الرُّوحُ : الوَحْيُ ؛ أوْحَى إلى مَرْيَمَ بالْبشَارَةِ ، وأوحَى إلى جبريلَ بالنَّفْخِ ، وأوحَى إليه أن كُنْ ؛ فَكَانَ ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالْرُّوحِ

}[النحل : ٢] أي بالوحْيِ ، { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا }[الشورى : ٥٢] أي وَحْياً.
ورويَ : أَنَّهُ كَانَ لِهَارُونَ الرَّشِيْدِ طَبِيْبٌ نَصْرَانِيٌّ ، وَكَانَ غُلاَماً حَسَنَ الْوَجْهِ جِدّاً ، وَكَانَ كَامِلَ الأَدَب جَامِعاً لِلْخِصَالِ الَّتِي يَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى الْمَلِكِ ، وَكَانَ الرَّشِيْدُ مُولعاً بِأَنْ يُسَلِمَ وَهُوَ يَمْتَنِعُ ، وَكَانَ الرَّشِيْدُ يُمَيِّنُهِ الأَمَانِيَّ إِنْ أَسْلَمَ ، فَقَالَ لَهُ ذاتَ يَوْم : مَا لَكَ لاَ تُؤْمِنُ ؟ قَالَ : إِنَّ فِي كِتَابِكُمْ حُجَّةٌ عَلَى مَنِ انْتَحَلَهُ ، قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ } فَعَبَّرَ بِهَذا أَنَّ عِيْسَى جُزْءٌ مِنْهُ.

(٠/٠)

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ } ؛ نَزَلَ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ ؛ " نَاظَرُواْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي أَمْرِ عِيْسَى ، فَقَالَ لَهُمْ : " هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ". فَقَالُواْ : لاَ تَقُلْ هَكَذا ؛ فَإِنَّ عِيْسَى يَأَنَفُ مِنْ هَذا الْقَوْلِ ؛ " فَنَزَلَ تَكْذِيْباً لِقَوْلِهِمْ : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيْحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ) أي لن يَأَنَفَ ، ولم يَتَعَظَّمَ عن الإقرار والعبوديَّة لله عَزَّ وَجَلَّ ، { وَلاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ } أي ولن يستنكفَ الملائكةُ المقرَّبونَ عن العبوديَّة وهم حَمَلَةُ الْعَرْشِ. وإنَّما خصَّ الملائكةَ بعد عيسى ؛ لأن النّصارى كانوا يقولونَ : عيسى ابن الله ، وبَنُو مُدْلَجٍ كانوا يقولونَ : الملائكةُ بنات اللهِ ، فَرَدَّ اللهُ على الفريقين جَميعاً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً } ؛ أي مَن يأْنَفُ ويَمْتنعُ عن توحيدهِ وطاعته وَيَتَعَظَّمُ عنِ الإيْمانِ ؛ فَسَيَجْمَعُهُمُ إليه جميعاً : الْمُسْتَنْكِفُ وَالْمُسْتَكْبِرُ ؛ والْمُقِرُّ وَالْمُطِيْعُ.

(٠/٠)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ } ؛ أي الذين آمنُوا بمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوفِرُ عليهم جزاءَ أعمالِهم في الجنَّة ، وَيَزِيْدُهُمْ من عطائهِ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ ؛ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ؛ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ } ؛ أي وأما الذين أبَوا وامتنعُوا عنِ الإيْمانِ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ ؛ { فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } ؛ وَجِيْعاً ، { وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } ؛ ولا يَجِدُونَ لَهم سوَى اللهِ قريباً ينفعُهم ، ولا مانعاً يَمنعُهم من النار.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً } ؛ خطابٌ للناس كلِّهم ، والْبُرْهَانُ هو النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، سَمَّاهُ بُرْهَاناً لظهور المعجزةِ ، والنورُ المبينُ الْقُرْآنُ ؛ سَمَّاهُ نُوراً مُبيناً ؛ لأن النورَ هو الذي يُبَيِّنُ الأشياءَ حتى تَرَى ، والقُرْآنُ مُبَيِّنُ الأشياءِ كلِّها.

(٠/٠)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ } ؛ أي فأمَّا الذين صَدَّقُوا بوحدانيَّةِ الله وتَمَسَّكُوا بدينهِ وكتابهِ ، وسألُوا العصمةَ من مَعَاصِيهِ ؛ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي الآخرةِ جَنَّتَهُ وكراماتهِ التي أعدَّها لَهم فيها ، { وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } ؛ أي ويُعَرِّفُهُمْ في الدُّنيا سبيلَ الْهُدَى وهو الإسلامُ ، وَيُثَبِّتُهُمْ عليهِ ، وتقديرُ الآية : وَيَهْدِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَيَرْحَمُهُمْ فِي الآخِرَةِ.

(٠/٠)

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ } ؛ نزلت في جَابرِ بنِ عبدِالله حين جاءَ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : إنَّ لِي أُخْتاً ؛ فَمَا لِي فِيْهَا بَعْدَ مَوْتِهَا ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ ، وقد تقدَّم تفسيرُ الكَلاَلَةِ ، وابتدأ بالرجلِ ، فيقالُ : إنهُ ماتَ قبلاَ أختهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهَآ وَلَدٌ } ؛ يعني مِن أُمٍّ وأبٍ أو من أبٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ } ؛ وحكمُ الثَّلاثِ والأربعِ فصاعداً حكمُ الاثنين كالبناتِ ، وإنْ كانوا إخوةً ؛ { وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً } ؛ أي وإنْ كان الورثةُ إخوةً من أُمٍّ وأبٍ ، أو من أبٍ ذُكُوراً وإناثاً ؛ { فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ }.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ } ؛ أي يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ قِسْمَةَ المواريثِ ؛ لِئَلاَّ تُخْطِئُوا في قِسْمَتِهَا ، وقد حذفَ (لا) في الكلامِ ويرادُ إثباتُها كما في قوله تعالى : { وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ }[لقمان : ١٠] ، ويقال في القَسَمِ : واللهِ أبْرَحُ قَاعِداً ؛ أي لاَ أبْرَحُ ، وَتُذْكَرُ (لا) ويراد طرحُها كما في قولهِ تعالى : { لاَ أُقْسِمُ }[القيامة : ١] و{ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ }[الأعراف : ١٢].
وذهبَ البصريُّون إلى أنَّ معناهُ : كَرَاهَةَ أنْ تَضِلُّوا ، فحذفَ المضافَ وأقامَ المضافَ إليه مقامهُ ، كما في قولهِ تعالى : { وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ }[يوسف : ٨٢]. وقال الفرَّاءُ : (مَوْضِعُهُ نُصِبَ بنَزْعِ الْخَافِضِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ؛ ظاهرُ المعنى.
وعَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النِّسَاءِ : أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ اشْتَرَى ذا رَحِمٍ وَأَعْتَقَهُ ، وَبُرِّئَ مِنَ الشِّرْكِ ، وَكَانَ فِي مَشِيْئَةِ اللهِ مِنَ الَّذِيْنَ يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ "

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } ؛ أي أوفوا بالعقود التي كَتَبَهَ اللهُ عليكم مِما أحلَّه لكم حرَّمَه عليكُم ، وَقِيْلَ : معناهُ : أتِمُّوا العهودَ التي بينكم وبين المشركينَ ولا تنقُضُوها حتى يكونَ

النّقْضُ من قِبَلِهِمْ ، هكذا رويَ عن ابنِ عبَّاس والضحَّاك وقتادةَ. وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ أوْفُوا بعُقُودِ الدِّيْنِ ؛ يَعْنِي أوَامِرَ اللهِ وَنَوَاهِيْهِ). وَقِيْلَ : معناهُ : أوفُوا بكُلِّ عَقْدٍ تعقدونَهُ على أنفسِكم من نَذْرٍ أو يَمينٍ. وَقِيْلَ : أوْفُوا بالعقودِ التي يعقِدهَا بعضُكم بعضُكم لبعضٍ ، نحوَ عَقْدِ البيعِ والإجارَةِ والنِّكاحِ والشَّرْكَةِ ، ولا تنافِي بينَ هذه الأقوالِ ؛ إذ كلُّ هذه العقود يجبُ الوفاءُ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ } ؛ أي رُخِّصَتْ لكم الأنعامُ نفسُها ، وأضافَ البهيمةَ إلى الأنعامِ ، كما يقالُ : مسجدُ الجامعِ ؛ ونفسُ الإنسان. والأنْعَامُ : هِيَ الإبلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، ودخل في هذه الآية إباحةُ الظِّبَاءِ وبَقَرِ الْوَحْشِ وحمار الوحشِ ؛ لأنَّها أبْهَمُ في التَّمْيِيْزِ من الأَهْلِيَّةِ ، ولِهذا استثنَى اللهُ الصيدَ في حالةِ الإحرام في قولِهِ تعالى : { غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ }. والبهيمةُ في اللغة يتناولُ كلَّ حَيٍّ لا يُميِّزُ ، اسْتَبْهَمَ عليه الجوابُ ؛ أي اسْتَغْلَقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } ؛ أي إلاَّ ما يُقْرَأُ عليكم في القُرْآنِ مِمَّا حُرِّمَ عليكم في هذه السورة من الْمِيْتَةِ والدَّمِ ولحمِ الخنْزيرِ والموقُوذةُ والمتَرَدِّيَةُ والنَّطيحَةُ الايَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ } ؛ نُصِبَ على الحالِ من الكافِ والميم التي في قولِهِ : { أُحِلَّتْ لَكُمْ } كما يقالُ : جاءَ زيدٌ راكباً ؛ وجاءَ غيرُ راكبٍ. والمعنى : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيْمَةُ الأَنعَامِ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ؛ أي من أنْ تَسْتَحِلُّوا قتلَ الصَّيدِ وأنتُم مُحْرِمُونَ. وَقِيْلَ : نُصِبَ على الحالِ من قوله { أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } أي أوْفُوا بالمعقُودِ غيرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ ، هذا قولُ الأخفشِ ، والأوَّلُ قولُ الكسائيِّ.

ومعنى الآيةِ : أُحِلَّتْ لكمُ الأنعامُ إلاَّ ما كان وَحْشِياً ، فإنَّهُ صَيْدٌ لا يحلُّ لكم إذا كنتم مُحْرِمِيْنَ ، فذلكَ قولهُ : { وَأَنْتُمْ حُرُمٌ }. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } ؛ أي يقضِي على عبادِهِ بما شاءَ من التحليل والتحريْمِ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللَّهِ } ؛ أراد به الْمَنَاسِكَ ؛ أي لا تَسْتَحِلُّوا مخالفةَ شيءٍ منها ، ولا تجاوزُوا مواقيتَ الحرمِ غيرَ مُؤَدِّيْنَ حقوقَها ؛ وذلك : أنَّ الأنصارَ كانوا لا يَسْعُونَ بين الصَّفَا والمروةِ ، وكان أهلُ مكَّة لا يخرجونَ إلى عَرَفَةَ فأمرَ اللهُ تعالى أنْ لا يتركُوا شيئاً من المَنَاسِكِ.

وقال الحسنُ : (شَعَائِرُ اللهِ دِيْنُ اللهِ) ؛ أيْ لاَ تَحِلُّوا فِي دِيْنِ اللهِ شَيْئاً مِمَّا لَمْ يُحِلَّهُ اللهُ. وقالُ : هي حدودُ اللهِ في فرائضِ الشرعِ.

والشَّعَائِرُ في اللغة : الْمَعَالِمُ ، والإشْعَارُ : الإعْلاَمُ ، وَالشَّعِيرَةُ وَاحِدَةُ الشَّعَائِرِ ؛ وهِيَ كُلُّ مَا جُعِلَ عَلَماً لِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ } ؛ أي ولا تَسْتَحِلُّوا القَتْلَ والغارَة في الشَّهرِ الحرامِ ، وأرادَ بذلك الأشهُرَ الْحُرُمَ كلَّها ؛ وهي رَجَبٌ ؛ وذُو الْقَعْدَةِ ؛ وذُو الْحِجَةِ ؛ وَالْمُحَرَّمُ ، إلاَّ أنه ذُكِرَ باسمِ الجنس كما في قولهِ تعالى : { إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ }[العصر : ٢] أرادَ به جِنْسَ الإنسانِ ، ولذلك استثنَى المطيعَ بقوله : { قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ }[البقرة : ٢١٧] ، ثم نُسِخَ حرمةُ القتال في الشهرِ الحرام بقولهِ تعالى : { فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }[التوبة : ٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ } ؛ أي لا تُحِلُّوا الْهَدْيَ ؛ أي لا تَذْبَحُوهُ قَبْلَ مَحِلِّهِ ؛ ولا تنتفِعُوا بهِ بعدَ أن جعلتموهُ للهِ ، ولا تَمنعوهُ أن يَبْلُغَ البيتَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ الْقَلاَئِدَ } أي ولا تُحِلُّوا القلائدَ التي تكونُ في أعناقِ الهدايا ؛ أي لا تقطعُوها قبلَ الذبْحِ وتصدَّقوا بها بعدَ الذبحِ كما قالَ صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : " تَصَدَّقُوا بحَلاَلِهَا وَخِطَامِهَا ، وَلاض تُعْطِي الْجَزَّارَ مِنْهَا شَيْئاً "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ } ؛ معناهُ : ولا تسْتَحِلُّوا القَتْلَ والغارَّة على القاصدينَ المتوجِّهينَ نحوَ البيتِ الحرامِ ، وعنِ ابن عبَّاس رضي الله عنه : " أنَّ الآيَةَ وَرَدَتْ في شُرَيْحِ بْنِ ضُبَيْعَةَ بْنِ هِنْدِ الْيَمَامِيِّ ، " دَخَلَ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالْمَدِيْنَةِ وَقَالَ : أنْتَ مُحَمَّدٌ النَّبيُّ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ : إلاَمَ تَدْعُو ؟ قالَ : " أدْعُو إلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ ". فَقَالَ : إنَّ لِي أُمَرَاءَ أرْجِعُ إلَيْهِمْ وَأَشَاوِرُهُمْ ، فَإنْ قَبلُوا قَبلْتُ. ثمَّ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " لَقَدْ دَخَلَ بوَجْهِ كَافِرٍ وَخَرَجَ بعَقِبَي غَادِرٍ ". فَمَرَّ بسَرْحٍ لأَهْلِ الْمَدِيْنَةِ فَاسْتَاقَهَا ، وَانْطَلَقَ نَحْوَ الْيَمَامَةِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ يَقُولُ :

_@_ بَاتُوا نِيَاماً وَابْنُ هِنْدٍ لَمْ يَنَمْ _@_ بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلاَمٌ كَالزُّلَمْ _@_ خَدَلَّجُ السَّاقينَ خَفَّاقُ الْقَدَمْ _@_ قَدْ لَفَّهَا اللّيْلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ _@_ لَيْسَ برَاعِي إبلٍ وَلاَ غَنَمْ _@_ وَلاَ بجزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ _@_ _@_ هَذا أوَّانُ الْحَرْب فَاشْتَدِّي زَلَمْ _@_

وَقَدْ كَانَ عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى النّبيِّ صلى الله عليه وسلم خَلَّفَ خَيْلَهُ خَارِجَ الْمَدِيْنَةِ وَدَخَلَ وَحْدَهُ. فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ ؛ خَرَجَ شُرَيْحُ نَحْوَ مَكَّة فِي تِجَارَةٍ عَظِيْمَةٍ فِي حُجَّاجِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ مِنْ أهْلِ الْيَمَامَةِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُغَيْرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَإذا كَانَ أشْهَرُ الْحَجِّ أمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعضاً ، وَإذا سَافَرَ أحَدُهُمْ فِي غَيْرِ الأَشْهُرِ الْحُرُمِ نَحْوَ مَكَّةَ قَلَّدَ هَدْيَهُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَدْيٌ قَلَّدَ رَاحِلَتَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ رَاحِلَةٌ جَعَلَ فِي عُنُقِهِ قَلاَدَةً ، وَكَانُوا يأْمَنُونَ بذلِكَ ، فَإذا رَجَعُوا مِنْ مَكَّةَ جَعَلُوا شَيْئاً مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فِي عُنُقِ الرَّاحِلَةِ فَيْأْمَنُوا ، فَلَمَّا سَمِعَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بخُرُوجِ شُرَيْحٍ وَأصْحَابِهِ اسْتَأْذَنُوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ

الآيَةَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً } ؛ في موضعِ نَصْبٍ على الحالِ ، معناهُ : قَاصِدِيْنَ طالِبينَ رزْقاً بالتِّجارةِ ، { وَرِضْوَاناً } أي رضىً مِن اللهِ تعالى عَلَى عَمَلِهِمْ ، وَلاَ يرضَى عنهم حتَّى يُسْلِمُوا. وقال الحسنُ وقتادةُ : [مَعْنَى رضْوَاناً ؛ أيْ يَرْضَى اللهُ عَنْهُمْ ؛ فَيُصْلِحُ مَعَاشَهُمْ وَيَصْرِفُ عَنْهُمْ الْعُقُوبَاتِ فِي الدُّنْيَا إذا كَانُوا لاَ يُقَرُّونَ بالْبَعْثِ ، ثُمَّ نُسِخَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذلِكَ تَعَرَّضَ الْمُشْرِكينَ بقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ } [التوبة : ٥] كَافَّةً ، وَبقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَاذَا } [التوبة : ٢٨]]. وقرأ الأعمشُ [وَلاَ آمِّينَ] أبي البيتَ الحرامَ بالإضافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ } ؛ أي لا يحملَنَّكم ويكسبنَّكم بُغْضُ قومٍ وعداواتُهم بأن صرفوكُم عامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ على أن تَظْلُمُوهُمْ ، وتتجاوزُوا الحدَّ للمكافأةِ. وموضع : [أنْ تَعْتَدُوا] نَصْبٌ لأنه مفعولٌ ، و { أَن صَدُّوكُمْ } مفعوةٌ لهُ ، كأنهُ قال : لا يَكْسِبَنَّكُمْ بغضُ قومٍ الاعتداءَ عليهم بصدِّهم إيَّاكم.

قرأ أهلُ المدينةِ إلاَّ قالون ابنَ عامرٍ والأعمش : [شَنْآنُ] بجوزِ النُّون الأُولى. وقرأ الآخرون بالفَتْحِ وهُما لُغتان ؛ إلاّ أنَّ الفتحَ أجودُ لأنه أفْهَمُ اللُّغتين ، ولأنَّ المصادِرَ أكثرُ ما تجيءُ على [فِعْلاَنُ] مثل النَّفَيَانِ وَالرِّتَقَانِ والعَسَلاَنِ ونحوُ ذلك.

قال ابنُ عبَّاس : [مَعْنَى : { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ } أيْ وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمْ]. وقال الفرَّاءُ : [وَلاَ يَمْسِبَنَّكُمْ] ، قال : [يُقَالُ : فُلاَتٌ جَرِيْمَةُ أهْلِهِ ؛ أيْ كَاسِبُهُمْ]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن صَدُّوكُمْ } قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بكسرِ الالفِ على الاستئناف الجزاءِ ، وقرأ الباقون بالفتحِ ؛ أي لئن صَدُّوكُمْ ، والفتحُ أجودُ ؛ لأن الصَدَّ كان وَاقِعاً من الكفَّارِ يومَ الحديبيةِ قبل نُزُولِ هذه السورةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى } ؛ أي تَحَاثُّوا على الطَّاعةِ وترك المعصيةِ ، قال أبو العاليَةِ : [الْبِرُّ : مَا أُمِرتَ به ، وَالتَّقْوَى : تَرْكُ مَا نُهِيْتَ عَنْهُ]. وظاهرُ الأمرِ يقتضي وجوبَ المعاونةِ على الطَّاعةِ ، وظاهرُ الأمرِ على الوُجُوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } ؛ أي لاَيُعِنْ شيءٍ من المعاصي والظُّلْمِ ، وقال بعضُهم : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الإثْمِ وَالْبرِّ ؛ فَقَالَ : [الْبرُّ : حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإثْمُ : مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ أي اخْشَوْهُ وأطيعوهُ فيما أمرَكم به ونهاكم عنه ، { إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } إذا عَاقَبَ ، فعقابهُ شديدٌ. "

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } ؛ الْمَيْتَةُ : اسمٌ لِكُلِّ ذِي رُوحٍ فَارَقَهُ رُوحُهُ حَتْفَ أنْفِهِ ، والمرادُ بالدَّمِ : الدَّمُ الْمَسْفُوحُ ، وحُرِّمَ عليكُم لَحْمُ الْخِنْزِيْرِ لِعَيْنِهِ لا لكونهِ ميتةً حتى لا يحلَّ تناولهُ مع وجودِ الذكاةِ فيه.

وفائدةُ تخصيصِ لَحْمِ الْخِنْزِيْرِ بالْذِّكْرِ دونَ لحمِ الكلب وسائرِ السَّباعِ : أنَّ كثيراً من الكُفَّار ألِفُوا لحمَ الْخِنْزِير ، واعتادُوا أكلَهُ وأوْلِعُوا به ما لَمْ يعتادُوا بهِ أكلَ غيرهِ. وَقِيْلَ : فائدتهُ : أنَّ مُطْلَقَ لفظِ التحريم يدلُّ على نجاسةِ عَيْنِهِ مع حُرْمَةِ أكلهِ ، ولحمُ الخنْزِيرِ مختصٌ بهذا الحُكْمِ ؛ وذلكَ : أنَّ سائرَ الحيواناتِ الْمُحَرَّمِ أكلُها إذا ذُبحَتْ كان لحمُها طاهراً لا يفسدُ الماءُ إذا وقعَ فيه ، وإنْ لم يَحِلَّ أكلهُ بخلافِ لحم الْخِنْزِيْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } أي وحُرِّمَ عليكم ما ذُكِرَ عليه عندَ الذبْحِ اسمُ غيرِ الله ، وذلك أنَّهم كانوا يذبحونَ لأصنامِهم يتقرَّبون بذبْحِها إليهم ، فَحَرَّمَ اللهُ كلَّ ذبيحةٍ يُتَقَرَّبُ بذبحِها إلى غيرِ الله تعالى ، ولذلك قالَ الفُقَهَاءُ : إنَّ الذابحَ لو سَمَّى النبيَّ صلى الله عليه وسلم معَ اللهِ تعالى فقالَ : بسمِ اللهِ ومُحَمَّدٍ ؛ حَرُمَتِ الذبيْحَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ } ؛ أي حُرِّمَ عليكم أكلُ لحم الْمُنْخَنِقَةِ ؛ وهي التي تَنْخَنِقُ بحَبْلٍ أوْ شَبَكَةٍ فَتَمُوتُ مِنْ غَيْرِ ذكَاةٍ ، وأمَّا الْمَوْقُوذَةُ ؛ فهي الْمَضْرُوبَةُ بالْخَشَب حتَّى تَمُوتَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُتَرَدِّيَةُ } هي التي تَتَرَدَّى من جَبَلٍ أو سَطْحٍ أو فِي بئْرٍ فَتَمُوتُ قَبْلَ الذكَاةِ. وَالتَّرَدِّي : هُوَ السُّقُوطُ ، مأخوذٌ من الرِّدَاءِ وهو الْهِلاَكُ ، قال صلى الله عليه وسلم لِعَدِيِّ بْنِ حَاتَمٍ : " إذا تَرَدَّتْ رَمْيَتُكَ مِنْ جَبَلٍ فَوَقَعَتْ فِي مَاءٍ فَلاَ تَأْكُلْ ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَدْري أسَهْمُكَ قَتَلَهَا أمِ الْمَاءُ "

فصارَ هذا الكلامُ أصلاً في كلِّ موضعٍ اجتمعَ فيه معنيان : أحدُها حَاظِرٌ ، والآخرُ مبيحٌ فأنَّهُ تَغْلُبُ جِهَةُ الْحَظْرِ ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أمُورٌ مُشَبَّهَةٌ ، فَدَعْ مَا يُرِيْبُكَ إلَى مَا لاَ يُرِيْبُكَ ، ألاَ وَإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، وَإنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى يُوْشِكُ أنْ يَقَعَ فِيْهِ " وعن عمرَ رضي الله عنه أنه قالَ : (كُنَّا نَدَعُ تِسْعَةَ أعْشَارِ الْحَلاَلِ مَخَافَةَ الرِّبَا].

قوله عزّ وَجَلَّ : { وَالنَّطِيحَةُ } ؛ هي التي تُنْطَحُ حتى تَموتَ ، وإذا تناطحتِ الحيواناتُ فَقَتَلَ بعضُها بعضاً في النِّطَاحِ فهي حرامٌ بالآية ، قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَخْنُقُونَ الشَّاةَ حَتَّى إذا مَاتَتْ أكَلُوهَا وَكَذلِكَ الْمَوْقُوذَةُ) ، قال قتادةُ : (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَ الشَّاةَ بالبَعْضِ حَتَّى إذا مَاتَتْ

أَكَلُوهَا) ، يقالُ منهُ : وَقَدَهُ يَقِدُهُ إذا ضَرَبَهُ حتى أشفاَ على الهلاكِ. قال الفَرَزْدَقُ : شَغَارَةٌ تَقِذُ الْفَصِيلَ برجْلِهَا فَطَّارَةٌ لِقَوَادِمِ الأَبْكَار

(٠/٠)

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ }[المائدة : ٣] جَاءَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : إنَّ لَنَا كِلاَباً نَتَصَيَّدُ بهَا فَتَأْخُذُ الْبَقَرَ وَالظِّبَاءَ وَالْحُمُرَ ، فَمِنْهَا مَا نُدْرِكُ ذَكَاتَهُ ، وَمِنْهَا مَا لاَ نُدْرِكُ ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ الْمَيْتَةَ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : يَسألونَكَ يا مُحَمَّدُ : أيَّ شيءٍ أحِلَّ لَهم من الصَّيدِ وغيرِه ؟ قُلْ أحَلَّ لَكُمُ الْمُبَاحَاتِ. يقال : هذا يَطِيْبُ لفلانٍ ؛ أي يَحِلُّ ، قال الله تعالى : { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ }[النساء : ٣] أي ما حَلَّ لكم. وكلُّ شَيْءٍ لَمْ يَأْتِ تَحْرِيْمُهُ فِي كِتَابٍ أوْ سُنَّةٍ فَهُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. وقال بعضُهم : أراد بالطِّيباتِ المستلذاتِ والمشتَهَياتِ ، وهو عامٌّ أريدَ به غيرُ ما تَضْمَّنَتْهُ الآيةُ المتقدِّمةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ } أي وأحلَّ صَيْدَ ما عَلَّمْتُمْ ، فحذفَ ذِكْرَ الصَّيدِ لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه ، والْجَوَارِحُ : هِيَ الْكَوَاسِبُ مِنَ الْفَهْدِ ؛ وَالصَّقْرِ ؛ وَالْبَاز ؛ وَالْعُقَاب ؛ وَالنَّسْرِ ؛ وَالْبَاشِقِ ؛ وَالشَّاهِيْنِ وسائرِ ما يُصْطَادُ به الصيدُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ }[الأنعام : ٦٠] أي كَسَبْتُمْ ، وَقِيْلَ : معنى الْجَوَارِحِ : الْجَارِحَاتُ بنَاتٍ أو مَخْلَبٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُكَلِّبِينَ } حالٌ للمعلِّمينَ ؛ أي في حالِ إغْرَائِهِمْ الكلبَ على الصَّيدِ ، والتَّكْلِيْبُ : إغْرَاءُ السَّبُعِ عَلَى الصَّيْدِ وإرْسَالُهُ. ومن قرأ (مُكَلَّبِيْنَ) بفتحِ اللاَّمِ فهو حالٌ من الكوَاسِب المعلِّمين. وقرأ ابنُ مسعودٍ والحسنُ : (مُكَلِبِيْنَ) بإسكانِ الكافِ وتخفيف اللام ، فعلى هذا المعنى يجوزُ أن يكونَ مِن قولهم : أكْلَبَ الرَّجُلُ إذا كَثُرَتْ كِلابُهُ ، وأمْشَى إذا كَثُرَتْ مَاشِيَتُهُ ، ولذلكَ ذَكَرَ الكلاب ؛ لأنَّها أعَمُّ وأكثَرُ ، والمرادُ به جميعُ الجوارحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ } ؛ أي تُؤَدِّبُوهُنَّ أن يُمْسِكْنَ الصَّيدَ عليكم كما أدَّبَكُمُ اللهُ تعالَى : { فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } ؛ أي على الإرْسَالِ ، كما رُوِيَ عنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : " إذا أرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ ، وَسَمَّيْتَ اللهَ تَعَالَى فَكُلْ ، وَإنْ أكَلَ مِنْهُ فَلاَ تَأْكُلْ ، فَإنَّهُ إنَّمَا أمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ " وفي بعضِ الرِّواياتِ : " وَإنْ شَارَكَ كَلْبَكَ كَلْبٌ آخَرُ فَلاَ تَأْكُلْ ، فَإنَّكَ إنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ ، وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْبِ غَيْرِكَ "

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ معنى الإمساكِ في هذه الآيةِ أنْ يَحْفَظَ الكلبُ الصَّيْدَ حتَّى يجيءَ صاحبهُ ، فإنْ تركَهُ حتى غابَ عن صاحبهِ ثم وجدَهُ صاحبُهُ بعدَ ذلكَ ميتاً لَمْ يَحِلَّ أكلهُ. قال صلى الله عليه وسلم : " كُلْ مَا أصْمَيْتَ ، وَدَعْ مَا أنْمَيْتَ " ، قِيْلَ : الإصْمَاءُ : مَا رَأيْتَ ؛ والإنْمَاءُ مَا تَوَارَى عَنْكَ.

(٠/٠)

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } ؛ أي الآنَ تَمَّمَ اللهُ لكم بيانَ الْحَلاَلاَتِ ؛ وهو كُلُّ ما لَمْ يَجْرِ ذِكْرُهُ في الْمُحَرَّمَاتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ } ؛ أي ذبائحُ اليهودِ والنصارى حلالٌ لكم.

والدليل على أنَّ المرادَ بالطعامِ ها هنا الذبائحُ : أنَّ ما سِوَى الذبائحِ من الأطعمةِ والأشربةِ حلالٌ للمسلمين ؛ سواءٌ كانت لأهلِ الكتاب أو لغيرهم ، فَبَانَ المرادُ به الذبائحُ ؛ لأنَّ ذبائحَ غيرِ أهل الكتاب من الكفَّار حرامٌ على المسلمينَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ } ؛ أي ذبائحُكم حلالٌ لَهم ؛ أي رُخِصَّ لكم في أن تُطْعِمُوهُمْ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ } ؛ قال الحسنُ : (أرَادَ بالْمُحْصَنَاتِ هَا هُنَا الْحَرَائِرَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْكِتَابِيَّاتِ). وقال ابنُ عبَّاس : (أرادَ بِهِ الْحَرَائِرَ الْعَفَائِفَ مِنْهُنَّ).

وتقديرُ الآية : وأحِلَّ لكم نكاحُ الْمُحْصَنَاتِ من المؤمناتِ والكتابيَّات ، وقد استدلَّ بعضُ الفقهاءِ بظاهرِ هذه الآية : على أنه لا يجوزُ للمسلم نكاحُ الأَمَةِ الكتابيَّةِ ، والصحيحُ : أنه يجوزُ بظاهرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : { بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ }[النساء : ٢٥] بدليلِ حلِّ ذبائحِهن.

وإنَّما خَصَّ الْمُحْصَنَاتِ بإباحةِ نكاحهنَّ مع جواز نكاحِ غيرهن ؛ لأنَّ الآية خرجت مَخْرَجَ الامتنانِ والْمِنَّةِ في نكاحِ الحرائرِ العفائف أعظمَ وأتَمَّ ، يدلُّ على ذلكَ : أنه لا خلافَ في جواز النكاحِ بين المسلم والأَمَةِ المؤمنةِ ، وإنْ كان في الآيةِ تخصيصُ الْمُحْصَنَاتِ من المؤمنات ، والأفضلُ لمن أرادَ النكاحَ أن لا يَعْدِلَ عن نكاحِ الحرائرِ الكتابيَّات مع القدرةِ عليهنَّ ؛ وذلك لأنَّ نكاح الأَمَةِ يؤدِّي إلى إرقاقِ الولد ؛ لأنَّ الولدَ يتبعُ الأَمَةَ في الرِّقِّ والحريَّةِ ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يختارَ رقَّ وَلَدِهِ ، كما لا ينبغي أنْ يختارَ رقَّ نفسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ } ؛ أي ناكحين غيرَ زَانينَ معلنينَ بالزِّنَا ، ولا مُتَّخِذِي صديقاتٍ للزِّنا سِرّاً. قال الحسنُ : (كَانَ بَعْضُ الْجَاهِلِيَّةِ تُسَافِحُ وَتَزْنِي بِكُلِّ مَنْ وَجَدَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَبَعْضُهُمْ يَتَّخِذُ خَلِيْلَةً يَزْنِي بِهَا سِرّاً وَيَتَجَنَّبُ الزِّنَا عَلاَنِيَةً ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الآيَةِ حُرْمَةَ الزِّنَا سِرّاً وَعَلاَنِيَةً).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا رَخَّصَ اللهُ لِلْمُسْلِمِيْنَ فِي نِكَاحِ الْكِتَابِيَّاتِ ؛ قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ : لَوْلاَ أَنَّ اللهَ رَضِيَ أَعْمَالَنَا لَمْ يُحِلَّ لِلْمُسْلِمِيْنَ تَزْوِيْجَ نِسَائِنَا. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : كَيْفَ يَتَزَوَّجُ الرَّجُلُ الْكِتَابِيَّةَ وَهِيَ كَافِرَةٌ ؟ فَأَنْزَلَ { وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } مِنَ الْمَغْبُونِيْنَ ، غَبَنَ نَفْسَهُ وَفَسَقَ وَصَارَ إِلَى النَّار ، لا يُغْنِي عَنِ الْمَرْأَةِ الْكِتَابِيَّةِ إِسْلاَمُ زَوْجِهَا وَلاَ يَنْفَعُهَا ذلِكَ ، وَلاَ يَضُرُّ الْمُسْلِمَ كُفْرُ زَوْجَتِهِ الْكِتَابِيَّةِ).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس وجماعةٌ من المفسِّرين : (مَعْنَاهُ : إذا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلاَةِ ، وَإِنَّمَا أَضْمَرُواْ إِرَادَةَ الْقِيَامِ ؛ لأَنَّ صِحَّةَ قِيَامِ الصَّلاَةِ بِالطَّهَارَةِ فَلاَ يَصُحُّ جُزْءٌ مِنَ الْقِيامِ قَبْلَ تَقَدُّمِ الطَّهَارَةِ).

وظاهرُ الآية يقتضي أنَّ القيامَ إلى الصلاةِ يكون سَبَباً لوجوب الطَّهارةِ ، ولا خلافَ بين السَّلَفِ والْخَلَفِ أنَّ الطهارةَ لا تجبُ سبب القيام إلى الصَّلاةِ ، إلاّ أنه رُوِيَ عن ابن عُمَرَ وَعليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (أَنَّهُمَا كَانَا يَتَوَضَّأَنِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ ، وَيَقْرَآنِ هذِهِ الآيَةَ). فيحتمل أنَّهما كانا يفعلان ذلك نَدْباً واستحباباً ، فإنْ تَجيدَ الطَّهارةِ لكلِّ صلاةٍ مستحبٌّ. وقد روي عن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " مَنْ تَوَضَّأَ فَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ مَا لَمْ يُحْدِثْ " وَقَالَ : " لاَ وُضُوءَ إِلاَّ مِنْ حَدَثٍ " فَثَبَتَ أن في الآيةِ إضمارٌ آخر تقديرهُ : أذا أَرَدْتُمْ القيامَ إلى الصلاةِ وأنتم مُحْدِثُونَ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ، وهذا نظيرُ قولهِ تعالى : { فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ }[البقرة : ١٨٤] معناه : فَأَفْطَرَ فَعَلَيْهِ عدَّةٌ مِن أيَّامٍ

أخُرَ ، وقولهُ : { فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ }[البقرة : ١٩٦] معناه فَحَلَقَ فَعَلَيْهِ فِدْيَةٌ. وقال بعضُهم : معنى الآيةِ : إذاَ قُمْتُمْ من نَوْمِكُمْ إلى الصَّلاةِ ، وقال : هذا على أنَّ النومَ في حالةِ الاضطجاع حَدَثٌ.

قولُهُ تَعَالَى : { فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ } الغَسْلُ : إجْرَاءُ الْمَاءِ عَلَى المَحَلِّ وَتَسْيِيْلُهُ ، سَوَاءٌ وُجِدَ مَعَهُ الدَّلْكُ أمْ لاَ ، وَالْوَجْهُ : مَا يُوَاجِهُكَ مِنَ الإنْسَانِ ، وَحَدُّهُ مِن قِصَاصِ الشَّعْرِ إلى أسفلِ الذقْنِ ، ومِن شَحْمَتَي الأُذُنِ إلى شَحْمَتَي الأُذُنِ. وظاهرُ الآيةِ يقتضي أنَّ المضمضةَ والاستنشاقَ غيرُ واجبتينِ في الوضوءِ ، لأن اسمَ الوجهِ يتناولُ الظاهرَ دون الباطنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ } أي مع المرافقِ ، هكذا قال علماؤُنا رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، إلاّ زُفَرَ رَحِمَهُ اللهُ ؛ فإنهُ ذهبَ إلى ظاهرِ الآية وقال : (إنَّ حَرْفَ (إلَى) لِلْغَايَةِ ، وَالْغَايَةُ لاَ تَدْخُلُ فِي الْحُكْمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى{ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ }[البقرة : ١٨٧]). وأمَّا عامَّةُ العلماءِ فقالوا : إنَّ (إلى) تُذْكَرُ بمعنى (مَعَ) كما قالَ تعالى{ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ }[النساء : ٢] ، فاذا احتملَ اللفظُ الغايةَ واحتملَ معنى المقارنةِ حَلَّ مَحَلَّ الْمُجْمَلِ ، فَكَانَ مَوْقُوفاً عَلَى بَيَانِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. وقد روي : " أنَّهُ كَانَ إذا تَوَضَّأَ أدَارَ الْمَاءَ عَلَى مِرْفَقَيْهِ " ، فصار فعلهُ بياناً للمجملِ ، فحُمِلَ على الوُجُوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ } اختلفَ العلماءُ في مقدار وجوب الْمَسْحِ منه ، فذهبَ مالكٌ إلى أنَّ مسحَ جميعِ الرأسِ واجبٌ ، وقال : (ظَاهِرُ الآيَةِ يَقْتَضِي الْجَمِيْعَ دُونَ الْبَعْضِ ، لأنَّكَ إذا قُلْتَ : مَرَرْتُ بزيدٍ ؛ أردتَ جُمْلَتَهُ لاَ بَعْضَهُ ، وَمِثْلُ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(٠/٠)

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ } ؛ أي احْفَظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم ، وإنما ذكره بلفظِ النِّعْمَةِ ؛ لأنهُ ذهبَ فيه مَذْهَبَ الجنسِ ، (وَمِيثَاقَهُ) أي عهده الذي عاهَدَكُم به. قال ابنُ عبَّاس والحسنُ : (يَعْنِي الْمِيْثَاقَ الَّذِي أخَذهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذُرِّيَّةِ آدَمَ حِيْنَ أخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ ، وقال : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى }[الأعراف : ١٧٢].

وقال السُّدِّيُّ : (أرَادَ بالْمِيْثَاقِ هُنَا مُبَايَعَةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي كُلِّ مَا أمَرَ بِهِ أوْ نَهَى فِي حَالِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالرِّضَا وَالْكُرْهِ). وَهَذا أقْرَبُ إلَى ظَاهِرِ الآيَةِ ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَّرَهُمْ

الميثاقَ وهم لا يحفظونَ الميثاقَ الذي من وَقْتِ آدمَ.
وَقِيْلَ : أرادَ به العهدَ الوثيقَ الذي أخَذهُ اللهُ على جميعِ عبادهِ في أوامرهِ ونواهيه فَسَمِعُوهُ وقَبلُوهُ وآمَنُوا به على ما فَسَّرَ اللهُ بقولهِ : { إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ أي اخْشَوا عِقَابَهُ في نقضِ الميثاقِ ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ؛ أي بما في القلوب من الوَفَاءِ والنَّقْضِ ، وذاتُ الصُّدُور ما تَضَمَّنَتْهُ الصُّدورُ وهي القلوبُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ } ؛ أي كونُوا قَوَّامِينَ بأمرِ الله قائلينَ لهُ مُبَيِّنِيْنَ عن دينِ اللهِ بالحقِّ والعدلِ ، { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ } ؛ أي لاَ يحملنَّكم بُغْضُ الكفَّار على تركِ العدلِ فيه مُكَافَأَةً لِما سَلَفَ منهم ، ويقالُ : لا يَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَةُ المشهودِ لهُ على كِتْمَانِ مالهِ عندَكم من الشهادةِ ، ولا عداوةُ المشهودِ عليه على إقامةِ الشَّهادةِ عليه بغيرِ حَقٍّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } ؛ أي اعْدِلُوا في جميعِ أقوالِكم وأفعالكم فيما لكُم وعليكُم ، فإنَّ العدلَ أقربُ للتَّقوَى ؛ أي أقربُ إلى أن تَصِيروُا به مؤمنينَ ، وَقِيْلَ : أقربُ إلى تقوَى عذاب الله. { وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } ؛ من الخيرِ والشرِّ والعدلِ والْجَوْر.

(٠/٠)

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ أي الذين صَدَّقُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والْقُرْآنِ ، وعَمِلُوا الصالحاتِ فيما بينَهم وبينَ ربهم ، وهذا تَمامُ الكلامِ ، يقالُ : وَعَدْتُ الرَّجُلَ ؛ يرادُ بذلك وَعَدْتَهُ خَيْراً ، وأَوْعَدْتُ الرَّجُلَ ؛ يرادُ بذلك شَرّاً ، فكانَ اللهُ لَهم دليلاً على عِدَةِ الْخَيْرِ ، ثم

فَسَّرَ ذلكَ الخيرَ فقالَ : { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } ؛ أي مَغْفِرَةٌ لذنوبهم ، وثوابٌ عَظِيْمٌ في الجنَّةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } ؛ أي أصْحَابُ النَّار الْمُوقَدَةِ ، والْجَحِيْمُ من أسْمَاءِ جَهَنَّمَ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (وَذَلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ سَرِيَّةً سَبْعِيْنَ رَجُلاً إلَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، وَأمَّرَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرِو الأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ طَرِيقُهُمْ عَلَى بَنِي سُلَيْمٍ ، وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ صُلَحَاءَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَأمَرَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ السَّرِيَّةَ أنْ يَنْزِلُوا عَلَى بَنِي سُلَيمٍ فَنَزَلُواْ عَلَيْهِمْ ، فَبَعَثَ بَنُو سُلَيْمٍ إلَى بَنِي عَامِرٍ وَأخْبَرُوهُمْ بأَمْرِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ ، فَارْتَحَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عِنْدِ بَنِي سُلَيْمٍ إلَى بَنِي عَامِرٍ ، فَأَضَلَّ أرْبَعَةٌ مِنْهُمْ بَعِيْراً لَهُمْ ، فَاسْتَأْذَنُوا أمِيْرَهُمْ أنْ يَطْلُبُوا بَعِيْرَهُمْ ثُمَّ يَلْحَقُوا بِهِمْ فَأَذِنَ لَهُمْ ، وَسَارَ الْمُنْذِرُ بمَنْ بَقِيَ مَعَهُ حَتَّى أتَاهُمْ وَقَدْ جَمَعُوا لَهُمْ وَاسْتَعَدُّوا لَهُمْ بالسِّلاَحِ ، فَالْتَقَوا ببئْرِ مَعُونَةَ فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيْداً ، ثُمَّ قُتِلَ الْمُنْذِرُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيْعاً.

ثُمَّ أقْبَلَ الأَرْبَعَةُ الَّذِينَ أضَلُّوا الْبَعِيْرَ ، فَلَقِيَتْهُمُ أمَةٌ لِبَنِي عَامِرٍ فَقَالَتْ لَهُمْ : أمِنْ أصْحَاب مُحَمَّدٍ أنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَتْ : فَإنَّ إخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا جَمِيْعاً عَلَى الْمَاءِ ، فَقَالَ : أحَدُ الأَرْبَعَةِ : مَا تَرَوْنَ ؟ قَالُوا : نَرَى أنْ نَرْجِعَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَنُخْبِرَهُ بالأَمْرِ ، قَالَ : لاَ ؛ وَلَكِنْ وَاللهِ لَمْ أكُنْ لأَرْغَبَ بنَفْسِي عَنْ أصْحَابِي ، إرْجِعُوا فَأَقْرِئُوا مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم مِنِّي السَّلاَمَ. ثُمَّ أشْرَفَ عَلَى أصْحَابِهِ فَإذا هُمْ مَقْتُولُونَ ، وَالْمُشْرِكُونَ قُعُودٌ يَتَغَدَّوْنَ ، فَانْحَدَرَ إلَيْهِمْ مِنَ الْجَبَلِ بسَيْفِهِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

وَغَشِيَ الثَّلاَثَةُ الْمَدِيْنَةَ ، فَلَقُوا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ خَارِجَيْنِ مِنَ الْمَدِيْنَةِ فَقَالاَ لَهُمَا : مَنْ أنْتُمَا ؟ قَالاَ : مِنْ بَنِي عَامِرٍ ، قَالاَ : هَذانِ مِنَ الَّذِيْنَ قَتَلُوا إخْوَانَنَا ؛ فَقَتَلُوهُمَا وَأخَذُوا سِلاَحَهُمَا ، ثُمَّ دَخَلُوا المَدِيْنَةَ فَأَخْبَرُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : " بئْسَ مَا صَنَعْتُمْ ، قَتَلْتُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ أهْلِ الْمِيْثَاقِ " وَجَاءَ أوْلِيَاءُ الْقَتِيْلَيْنِ يَطْلُبُونَ الْقِصَاصَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لَيْسَ لَكُمْ إلاَّ دِيَةُ صَاحِبَيْكُمْ أغَرْنَا إلَى عَدُوِّنَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ ، وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إلَيْكُمُ الدِّيَةَ "

فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ حَتَّى أتَى بَنِي قُرَيْظَةَ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : " إنَّكُمْ جِيْرَانُنَا وَحُلَفَاؤُنَا ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أصَبْنَا بِهِ مِنْ دَمِ الرَّجُلَيْنِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَهُمَا مِنْ أهْلِ

الْمِيْثَاقِ ، وَنَحْنُ نُرِيْدُ أنْ نُؤَدِّي دِيَتَهُمَا ، فَاتَّخِذُوا بهَا عَنْدَنَا يَداً نَجْزِيكُمْ بهَا بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَإنَّ الأَيَّامَ دُوَلٌ " فَقَالُوا : مَرْحَباً وَأهْلاً يَا أبَا الْقَاسِمِ ، وَلَكِنَّ إخْوَانَنَا مِنْ بَنِي النَّضِيْرِ لاَ نَقْضِي أمْراً مِنْ دُونِهِمْ ، نُعْلِمُهُمْ بذلِكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا يَوْمَ كَذا وقَدْ جَمَعْنَا الَّذِي تُرِيْدُ. فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصْحَابُهُ.
فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْمِيْعَادِ ؛ أتَاهُمْ وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ؛ فَأَجْلَسُوهُمْ فِي بَيْتٍ ، ثُمَّ خَرَجُوا يَجْمَعُونَ السِّلاَحَ ، وَخَلاَ بَعْضُهُمْ ببَعْضٍ وَقَالُوا : إنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّداً أقْرَبَ مِنْهُ الآنَ ؛ فَمَنْ يَظْهَرُ عَلَى هَذا الْبَيْتِ فَيَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيْحُنَا مِنْهُ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ جَحَّاشٍ : أنَا ، فَجَاءَ إلَى رَحَاءٍ عَظِيْمَةٍ لِيَطْرَحَهَا عَلَيْهِ ؛ فَأَمْسَكَ اللهُ أيْدِيَهُمْ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً } ؛ أي أخَذ اللهُ العَهْدَ على بني إسرائيلَ أن يؤمنُوا بهِ وبجميعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وبعثَ منهم اثني عَشَرَ مَلِكاً ، مِن كُلِّ سِبْطٍ منهم رَجُلٌ ليأخذ على قومهِ ما يأمرُهم اللهُ به مِن طاعتهِ. وَقِيْلَ : إنَّ النقيبَ هو الرسولُ والأمينُ ، وهم الذين أرسلَهُمْ موسَى إلى قومهِ الجبَّارين عُيوناً ، فوجدوهُمْ يدخلُ في كُمِّ أحدِهم أربعةٌ منهم ، ولا يحملُ عنقود عنبٍ إلاَّ عشرة منهم ، ويدخلُ في شُقِّ رمانةٍ إذا نزع حَبَّهُ خمسةُ أنفس وأربعة ، فرجعَ النقباءُ كلهم ، ونَهى كل نقيب سِبْطَهُ عن القتالِ إلاّ يُوشُعَ بْنَ نُونٍ وَكالِبَ بن يوقنا أمَرَا أقوامهما بالقتال.
وقال الحسنُ : (النَّقِيْبُ الضَّمِيْنُ ، وَإنَّمَا أرَادَ بهَذا أنْ يَضْمَنَ بهَا مُرَاعَاةَ أحْوَالِهِمْ) ، وقد روي : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسيلم جَعَلَ الأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ اثْنَى عَشَرَ نَقِيْباً " وفائدةُ النَّقِيْب : أنَّ القومَ إذا عَلِمُوا أنَّ عليهِم نقيباً كانوا أقربَ إلى الاستقامةِ ، والنَّقِيْبُ والعَرِيْفُ نَظِيْرَانِ ، وَقِيْلَ : النقيبُ فوقَ العريفِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ } ؛ خطابٌ للنُّقَبَاءِ ، ومعناها : إنِّي حفيظٌ عليكم في النَّصْرِ لكم والدفعِ عنكم. وَقِيْلَ : هو خطابٌ لجميعِ بني إسرائيلَ ضَمِنَ لَهم النَّصْرَ على عدوِّهم بالشَّرَائطِ التي شَرَطَهَا عليهم بقولهِ تعالى : { لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ } ؛ أي لو عَظَّمْتُمُوهُمْ وَنَصَرْتُمُوهُمْ بالسَّيفِ على الأعداءِ ، { وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً } ؛ أي تَصَدَّقْتُمْ مِن أموالِكم تطوُّعاً صدقةً حسَنَةً ؛ وهي أن تكونَ من حَلاَلِ المالِ وخِيَارِهِ برغبةٍ وإخلاصٍ لا يَشُوبُهَا رياءٌ ولا

سُمعةٌ وَلا يُكَدِّرُهَا مَنٌّ ولا أذًى ، { لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ من تحت شَجَرِهَا ومساكِنها ؛ { فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ } ؛ العَهْدِ والميثاقِ ؛ { مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ } ؛ اي أخْطَأَ قصدَ الطريقِ وهو طريقُ الجنَّةِ ، فمَنْ أضَلَّهُ وقعَ في طريقِ النَّار إذ لا طريقَ سواهُما.

(٠/٠)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ } ؛ أي فَنَقَضَ اليهودُ ميثاقَهم الذي أخذ عليهم في التَّوراةِ فَبَاعَدْنَاهُمْ من الرحَّمةِ ، وَقِيْلَ : عَذبْنَاهُمْ بالْجِزيَةِ. وَقِيْلَ : مَسَخْنَاهُمْ قِرَدَةً وخَنَازِيْرَ ، ودخولُ (مَا) في هذه الآيَةِ صِلَةُ زائدةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً } أي صيَّرنَاها يَابسَةً خاليةٌ من حَلاَوَةِ الإيْمانِ مجازاةً لَهم على معصيتِهم. قرأ يحيَى بن وثَّاب والأعمشُ وحمزة والكسائيُّ : (قَسِيَّةً) بتشديدِ اليَاءِ من غيرِ ألِفٍ ، وقرأ الباقون (قَاسِيَةً) بألفٍ وهُما لُغتان ، مثلُ زَكِيَّة وَزَاكِيَة ، وَقِيْلَ : معنى (قَاسِيَةٍ) : غَلِيْظَةٌ متَكبرةٌ لا تَقْبَلُ الوعظَ ، وَقِيْلَ : رَدِيْئَةٌ فَاسِدَةٌ ، من الدَّراهمِ القَسِيَّةِ ، وهي المغشوشةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ }. قرأ السلَّمي والنخعيُّ : يحرِّفونَ الكلامَ باللَّفِّ ؛ أي يُغَيِّرُونَ ألفاظَهُ ولا يُقِرُّونَهُ على ما هو عليه في التَّوراةِ ، كما أخبرَ الله تعالى عنهُم مِن لَيِّ ألسِنَتِهم بالكتاب ، وَقِيْلَ : يُغَيِّرُونَ تَأْوِيْلَه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ } ؛ أي وَتَرَكُوا نصِيباً مِمَّا أُمِرُوا به في كتابهم من نَعْتِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وصفتِهِ ، ومِنْ رَجْمِ الزَّانِي الْمُحْصَنِ ، وأصلُ النِّسيَانِ التَّرْكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ } ؛ أي لا تَزَالُ يا مُحَمَّدُ تَطَّلِعُ على خَائِنَةٍ ومعصيةٍ مِنْهُمْ ، وفَاعِلَةٌ من أسماءِ المصادرِ مثل : عَاقِبَةٍ وَكَاذِبَةٍ ، وقد تكونُ الخائنةُ من أسماءِ الجماعةِ كما يقالُ : رَافِضٌ ورافِضَةٌ ، فيكون المعنى : ولا تزالُ تَطَّلِعُ على فِرْقَةٍ خائنةٍ منهم مثلَ كعب بن الأشرف وأصحابِهِ من بني قُرِيظةَ حين نَقَضُوا العهدَ ، ورَكِبُوا إلى أبي سُفيانَ بمكة ، ولَقُوهُ وعاهَدوهُ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم على ما سَبَقَ ذِكْرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ } ؛ لم ينقُضُوا العهدَ ، وهم عبدُالله بنُ سَلامٍ وأصحابُه. وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (خَائِنَةٍ) أيْ مَعْصِيَةٌ) ، وقال بعضُهم : أي كَذِبٌ وفجورٌ ، وكانت خيانتُهم بنَقْضِ

العهدِ ، ومظاهرتُهم المشركينَ على حَرْب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهَمُّهُمْ بقتلهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ } ؛ أي أعْرِضْ عنهُم ولا تعاقِبْهُم ، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي الْمُتَجَاوزِيْنَ ، وهذا مَنْسُوخٌ بآيةِ السَّيفِ بقولهِ : { قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }[التوبة : ٢٩].

(٠/٠)

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ } ؛ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النصَارَى لم يكونوا بَعْدَ أخذِ الميثاقِ أحْسَنَ معاملةً من اليهودِ ، ومعنى أخْذِ الميثاق : هو ما أخَذ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي الإنْجِيْلِ مِنَ الْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ باتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَبَيَانِ صِفَتِهِ وَنَعْتِهِ ، كما قَالَ تَعَالَى في آيةٍ أخرَى : { مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ }[الصف : ٦] فَنَسُوا حَظّاً مما ذُكِّرُوا به ؛ أي تَرَكُوا بعضاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، { فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } ؛ أي هَيَّجْنَا بين فِرَقِ النَّصَارَى ، وهم النَّسْطُورِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالْمَلْكَانِيَّةُ ، وألْقَيْنَا بينَهم العداوةَ في الدِّينِ.
وذلك أنَّ اللهَ رَفَعَ الأُلْفَةَ بينَهم وألقَى بينهم العداوةَ والبغضاءَ ، فَهُمْ يَقْتَتِلُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وأصلُ الإغْرَاءِ : الإلْصَاقُ مَأْخُوذٌ مِنَ الغِرَاءِ الَّذِي يُلْصَقُ بِهِ الأَشْيَاءُ ، وَالْعَدَاوَةُ : تَبَاعُدُ الْقُلُوب وَالنِّيَّاتِ ، والْبَغْضَاءُ : الْبُغْضُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } ؛ أي يخبرُهم في الآخرةِ بما كانوا يصنعونَ من الجِنَايَةِ والمخالفةِ وكِتْمَانِ نَعْتِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وصِفَتِهِ.
ثم خاطبَ اللهُ تعالى الفريقين من اليهودِ والنَّصارَى فقالَ تعالى : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ } ؛ يعني التَّوراةَ والإنجِيْلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : (تُخْفُونَ) يعني صِفَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وآيةَ الرَّجْمِ ، وإضافةُ اليهودِ والنَّصارَى إلى الكِتَابِ تَعْيِيْرٌ لَهم ، كما يقالُ : يَا عَاقِلُ لَمْ تَعْلَمْ ؛ أي يا جاهلُ.
وقولهُ تعالى : { وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } ؛ يعني بالنُّور مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يُبَيِّنُ لكم كثيراً مِمَّا كنتم تَكْتُمُونَ من الإسلامِ ، وآيةِ الرَّجمِ ، وتحريمِ الزِّنَا وغيرِ ذلكَ. قَوْلُهُ

تَعَالَى : { وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ } أي يتجاوزُ عن كثيرٍ مِمَّا كنتُم تكتمونَهُ ولا يعاقبُكم عليهِ ، يعني مِمَّا لم يُؤْمَرْ ببَيَانِهِ ، وقولهُ تعالى : { وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } يعني الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنَّهيَ.

(٠/٠)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ } ؛ أي يَهْدِي اللهُ بالقُرْآنِ مَنْ قَبِلَ الحقَّ ورَغِبَ في الإسلامِ ، وقولهُ تعالى : { رِضْوَانَهُ } أي رضَا اللهِ ، وقولهُ تعالى : { سُبُلَ السَّلاَمِ } أي طُرُقَ السَّلاَمَةِ ، وهي دِيْنُ الإسلامِ ، والسَّلامُ والسَّلامَةُ ، كالرِّضَاعِ والرَّضَاعَةِ ، ويقالُ : السَّلامُ هو اللهُ ، وسُبُلُ السَّلامِ : طُرُقُ اللهِ التي دَعَا إليهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ؛ أي يخرجُهم من ظُلُمَاتِ الكُفْرِ ، بالتعريفِ لَهم إلى نُورِ الإيْمان ، { بِإِذْنِهِ } ؛ أي بإذنِ الله ومشيئتِه ، وسُمِّيَ الإيْمانُ نوراً ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا آمَنَ أبْصَرَ بهِ طريقَ نَجاتِهِ فَطَلَبَهُ ، وطريقَ هَلاَكِهِ فَحَذِرَهُ. قَوْلُهُ تعالَى : { وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي ويُرْشِدُهُمْ إلى طريقِ الحقِّ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } ؛ نزلَتْ في نَصَارَى نَجْرَانَ وهم الماريعقوبية أو اليعقوبية ، قالُوا : إنَّ اللهَ هو المسيحُ بن مريَمَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : مَن يَقْدِرُ أن يدفعَ شيئاً من عذاب الله ؛ { إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً } ؛ أي إنْ أرادَ أنْ يُهْلِكَ عيسَى ابن مريم وأمَّهُ ، وهذا احتجاجٌ من اللهِ تعالى على النَّصارَى بما لا يَملكون دَفْعَهُ ، إذِ المسيحُ وأُمُّهُ بَشَرانِ يأكُلانِ الطعامَ ويحتاجَان إلى ما يحتاجُ إليه الناسُ ، وقد عَلِمُوهُ ضرورةً أنَّهما كَانَا بعدَ أن لَم يَكُونَا ، وشاهدَ كثيرٌ منهم ميلادَ عِيْسَى وحالَهُ مِن الطفولةِ والشَّباب والكُهُولَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ } أي إذا أرادَ اللهُ إهلاكَ عيسَى وأُمَّهُ لَمَا أعجزَهُ ذلكَ ، ولا هناكَ دافعٌ ، وكيفَ يكون إلَهاً مَن لا يقدرُ على دفعِ الْهَلاكِ عن نفسهِ ولا عن غيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } ؛ أي مَنْ مَلَكَ السَّمواتِ والأرضَ لا يُوصَفُ

بالولادةِ. وَقِيْلَ : مَن كان مَالِكُ السَّمواتِ والأرضَ يقدرُ على خَلْقِ وَلَدٍ بلا وَالِدٍ ، كما قال تعالى : { يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } ؛ أي كما يشاءُ ، بأَبٍ وبغيرِ أبٍ ، ولو كان خَلْقُ عيسَى من غيرِ أبٍ مُوجِباً كونه إلَهاً وابنَهُ لكانَ خَلْقُ آدمَ من غيرِ أبٍ ولا أمٍّ أوْلَى بذلكَ ؛ لأنه أعجَبُ وأبْدَعُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ مِن خَلْقِ عيسَى وغيرِه قادرٌ على عقوبَتِكم.

(٠/٠)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)

قَوْلُهُ عَزَ وَجَلَّ : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ } ؛ أي يا أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ قد جاءَكم مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم يُبَيِّنُ لكُم الحلالَ والحرامَ على انقطاعٍ مِنَ الرُّسُلِ ، ودُرُوسٍ مِن الْعِلْمِ. قال الكلبيُّ : (كَانَ بَيْنَ مِيْلاَدِ عِيْسَى وَمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم خَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً ، وَبَعْدَ مِيْلاَدِ عِيْسَى أَرْبَعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ فِي مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ }[يس : ١٤] قَالَ : وَلاَ أَدْرِي الرَّسُولُ الرَّابِعُ مَنْ هُوَ). قال بعضُهم : كان بَيْنَ عيسَى ومُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ } ؛ معناهُ : كَيْلاَ تقولُوا يومَ القيامةِ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيْرٍ يُبَشِّرُنَا بالجنَّةِ ، ولا مُخَوِّفَ يُخَوِّفُنَا بالنار ، { فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ } ؛ يُبَشِّرُكُمْ بالجنَّةِ إنْ أطعتمُوهُ ، { وَنَذِيرٌ } ؛ يُنْذِرُكُمْ بالنار إنْ عصيتموهُ ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ مِن إرسالِ الرُّسُلِ والثواب والعِقَاب.

وقولهُ تعالى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً } ؛ فَاذْكُرُوا يا أهلَ الكِتَاب إذ قالَ مُوسَى لِبَنِي إسرائيلَ احْفَظُوا مِنَّةَ اللهِ عليكُم إذْ أكرمَ بعضَكم بالنُّبُوَّةِ ، وهم السَّبعُونَ الذين اختارَهم موسَى وانطلَقُوا معهُ إلى الجبلِ.

وإنَّما مَنَّ اللهُ عليهِم بذلكَ ، لأنَّ كثرةَ الأشرافِ والأفَاضِلِ في القومِ شرفٌ وفضلٌ لَهم ، ولا شرفَ أعظمَ من النُّبُوَّةِ ، وقولهُ تعالى : { وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً } أي أحْرَاراً تَملِكُونَ أمرَ أنفسِكم بعدَ أن كانت تَسْتَعْبِدُكُمُ القِبْطَةُ في مملكةِ فرعونَ ، وَقِيْلَ : مُلُوكاً ذوي خَدَمٍ ، وأهلِ مَنَازلَ لا يدخلُ عليكم فيها إلاَّ بإذنٍ.

قَوْلُهُ تعالى : { وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ } ؛ أي أعطاكُم من عالِمِي زمانِكم ، ويقالُ : أرادَ بذلكَ جميعَ العالمين ، فإنه تَعَالَى أنزلَ عليهم الْمَنَّ والسَّلْوَى ، وظَلَّلَهُمْ بالغَمَامِ ، ولم يُؤْتِ أحداً مِثْلَ

هذه النِّعَمِ قبلَهم.

ولا يدخلُ المستقبلُ في اللفظِ ؛ لأنَّ اللفظَ خَبَرٌ عن ما مَضَى ، ولا يدخلُ ذلكَ على أنهُ لم يُؤْتِ أمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مثلَ الفَضِيْلَةِ التي آتاهُمْ أو أكْثَرَ ، والغرضُ من هذه الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى أرادَ أن يُكَلِّفَهُمْ دخولَ الأرضِ المقدَّسة ، وكان يَشُقُّ ذلكَ عليهم فَقَدَّمَ ذِكْرَ نِعَمِهِ عليهم ليكونَ بأمتثالِهم مثالٌ على امتثالِ أمرِ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذَلِكَ أنَّ الاثْنَي عَشَرَ نَقِيْباً الَّذِيْنَ أرْسَلَهُمْ مُوسَى إلَى قَرْيَةِ الْجَبَّارِيْنَ جَوَاسِيْسَ ؛ لَمَّا انْتَهَوا إلَى مَدِيْنَتِهِمْ أخِذُوا فَأُتِيَ بِهِمْ إلَى الْمَلِكِ ، وَيُقَالُ أخَذهُمْ عِوَجُ ابْنُ عُنُقٍ وَاحْتَمَلَهُمْ فِي ثَوْبِهِ حَتَّى أَلْقَاهُمْ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ ، فَقِيْلَ لِلْمَلِكِ : إنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ يَفْتَحُونَ مدِيْنَتَكَ وَيَظْهَرُونَ عَلَيْكَ ، قالَ : فَطُوفُوا بِهِمُ الْمَدِيْنَةَ فَأَرُوهُمْ إيَّاهَا.

فَطَافُوا بِهِمْ ، وَكَانُوا يَلْعَبُونَ بِهِمْ حَتَّى أنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لِيَأْتِي بالْقَدَحِ وَالسُّكْرَجَةِ وَالْقَصْعَةِ فِيدْخُلُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ تَحْتَهَا ، ثُمَّ رَدُّوهُمْ إلَى الْمَلِكِ فَأَرَادَ قَتْلَهُمْ ، فَقَالَتْ : إيْش تَصْنَعُ بقَتْلِ هَؤُلاَءِ وَيَكْفِيْهِمْ مَا رَأوْا ، رُدُّوهُمْ إلَى أصْحَابِهِمْ يُحَدِّثُونَهُمْ بمَا رَأوْا ، فَأَرْسَلُوهُمْ.

فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : قَدْ عَلِمْتُمْ خِلاَفَ بَنِي إسْرَائِيْلَ لِمُوسَى ، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ مُوسَى أنْ يَفْتَحَ لَهُمُ الأَرْضَ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، فَهِيْمُوا التَّحَالُفَ أنْ لاَ يُخْبرَ شَيْئاً غَيْرُ مُوسَى ؛ فَتَحَالَفُوا.

فَلَمَّا خَلَوا بنِسَائِهِمْ جَعَلَتِ الْمَرَأةُ تَسْأَلُ زَوْجَهَا عَمَّا رَأَى ، فَيَأْخُذُ عَلَيْهَا الْمَوَاثِيْقَ أنْ لاَ تُخْبرَ أحَداً ، ثُمَّ يُخْبرُهَا ، وَجَعَلَتِ الْمَرْأةُ يَأتِيْهَا أبُوهَا وَأمُّهَا وَإخْوَانُهَا فَتَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْمَوَاثِيْقَ ثُمَّ تُخْبرُهُمْ.

فَمَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ حَتَّى فَشَا الْخَبَرُ فِي الْبلاَدِ ، وَلَمْ يُخْبرْ يُوشُعُ وَلاَ كَالِبُ أحَداً بشَيْءٍ مِنْ أمْرِهِمْ ، إنَّمَا أخْبَرَ بذلِكَ الْعَشَرَةُ. فَجَمَعَ مُوسَى عليه السلام بَنِي إسْرَائِيْلَ وَخَطَبَهُمْ ثُمَّ قَالَ : يَا بَنِي إسْرَائِيْلَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنْبِيَاءَ...) إلى قوله : { فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ }.

وأمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ } قال ابنُ عبَّاس : (هِيَ أرْضُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ). ويقال : هي دمشقُ وفلسطين وبعضُ الأردنِّ ، وسُميت (الْمُقَدَّسَةَ) ؛ لأنَّها طُهِّرَتْ من الشِّرْكِ ، وجُعِلَتْ مَسْكَناً وقَراراً للأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ } أي أمَرَكُم بدخولِها. وَقِيْلَ : التي كتبَ اللهُ لكم في اللَّوحِ الْمحفوظِ أنَّها

لكُم مساكنُ ، ويقال : التي وَهَبَ اللهُ لأبيكُم إبراهيمَ عليه السلام ، وجعلَها مِيراثاً لكم ، وذلكَ أنَّ إبراهيمَ حين ارتفعَ على الجبلِ ، قِيْلَ لهُ : أنْظُرْ ؛ فَلَكَ ما أدركَ بصرُكَ وهو ميراثٌ لولدِكَ مِنْ بعدكَ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } ؛ أي لا تَرْجِعُوا وراءَكم وتَجْبُنُوا من عدوِّكم منهزمينَ منهم فتنصرفُوا مغبونينَ بفَوْتِ الظَّفَرِ في الدُّنيا والعقوبةِ في الآخرة.

(٠/٠)

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ } ؛ أي قالت بَنُو إسرائيلَ : يا موسى إنَّ فِيْهَا قَوْماً عُظَمَاءَ قَتَّالِيْنَ ، { وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ } ؛ حينئذٍ.

(٠/٠)

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ } ؛ أي قالَ يُوشُعُ وكَالِبُ من الاثنَي عشرَ الذين أرسلَهم موسى إلى قريةِ الجبَّارينَ ، وكانوا يخافونَ الجبَّارين ، { أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا } ؛ أي هَدَاهُمَا لقَبُولِ أمرِهِ ومعرفة صدقِ وَعْدِهِ : { ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ } ؛ أي بابَ قرية الجبَّارينَ وهي أريْحَا ، { فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ } ؛ أي فإذا دخلتُم ذلكَ البابَ ؛ { فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ } ؛ عليهم ؛ لأنَّهم إذا رَأوا كثرتَكم انكسرت قلوبُهم فَتَغْلِبُوهُمْ ، { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ } ؛ أي فَوِّضُوا أمرَكُم إليهِ ، { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ بوعدِ الله.
وفي الآيةِ ثناءٌ على الرَّجُلَيْنِ إذ لم يَمْنعهُما الخوفُ من العدوِّ عن قولِ الحقِّ. وقد رويَ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ : " لاَ يَمْنَعَنَّ أحَدَكُمْ مَخَافَةَ النَّاسِ أنْ يَقُولَ الْحَقَّ إذا رَآهُ أوْ عَمِلَهُ ، فَإنَّهُ لاَ يُبْعِدُ مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ يُدْنِي مِنْ أجَلٍ "

(٠/٠)

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قَالُواْ يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا } ؛ وذلك أنَّ موسَى لَمَّا أمرَهم من قولِ الرَّجُلين أن يدخلُوا قريةَ الجبَّارين ، قالَتْ لهُ بَنُو إسرائيلَ : أتُكَذِّبُ الْعَشْرَةَ وَتُصَدِّقُ الاثنين ، إنَّا لاَ نَدْخُلُهَا أبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، { فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } ؛ مُنْتَظِرِيْنَ ، فقولُهم : اذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ ، احتملَ أنَّهم قالوا ذلكَ على وجهِ الْمَجَاز على معنى : وَرَبُّكَ مُعِيْنٌ لكَ ، وكان هذا القولُ فِسقاً منهم مِن امتناعِهم عن الْمُضِيِّ إلى أمرِ الله.

وَقِيْلَ : يحتملُ أنَّهم عَنَوا بذلكَ الذهابَ ذهابَ النُّقْلَةِ ، وهذا تشبيهٌ وكُفْرٌ مِن قائلهِ ، وهو أقربُ إلى معنى كلامِهم ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالى خَرَجَ مخرجَ الإنكار عليهم ، والتَّعَجُّب من جَهْلِهِمْ.

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ لَمَّا أرَادَ الْخُرُوجَ إلَى بَعْضِ الْغَزَوَاتِ اسْتَشَارَ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ذلِكَ ؛ فَقَالاَ : (إنَّا لَنْ نَقُولَ لَكَ مِثْلَ مَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى : إذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَإنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنّ۫ا نَقُولُ : إذْهَبْ فَقَاتِلْ عَدُوَّكَ إنَّا مَعَكَ مُقَاتِلُونَ).

وفِي بعضِ الرِّواياتِ قالُوا : (أقْعُدْ أنْتَ فَإنَّا بأَمْرِكَ مُقَاتِلُونَ). وقال الْمِقْدَادُ ابنُ الأَسْوَدِ : ((إنَّا وَاللهِ لاَ نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيْلَ لِمُوسَى : (إذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ) وَلَكِنَّا نَقُولُ : نُقَاتِلُ عَنْ يَمِيْنِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ ، وَلَوْ خُضْتَ بنَا الْبَحْرَ لَ۫خُضْنَاهُ مَعَكَ ، وَلَوْ عَلَوْتَ جَبَلاً لَعَلَوْنَاهُ مَعَكَ. فَأَشْرَقَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِذلِكَ وَسَرَّهُ)).

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذَلِكَ أنَّ مُوسَى عليه السلام غَضِبَ مِنْ مَقَالَةِ قَوْمِهِ ، وَكَانَ رَجُلاً حَدِيْداً فَقَالَ : { رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي } ولا أمْلِكُ إلاَّ أخِي ، يعني لا يُطِيْعُنِي مِن هؤلاءِ إلاَّ أخِي هَارُونُ ، { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } أي اقْضِ وَافْصِلْ بيننا وبينَ القوم العَاصِيْنَ.

وكَانَتْ عَجَلَةً عَجَّلَهَا مُوسَى عليه السلام ، فأوحَى الله إلى موسى : إلَى مَتَى يَعْصِيني هذا الشعبُ وإلى متَى لا يُصَدِّقُونَ بالآياتِ ، لأُهْلِكَنَّهُمْ وَاجْعَلَنَّ لكَ شَعْباً أشَدَّ وأكثرَ منهم. فقال : إلَهِي لو أنَّكَ أهلكتَ هذا الشَّعبَ من أجْلِ أنَّهم لن يستطيعُوا أن يدخلوا هذه الأرضَ فتقتلُهم في البَرِّيَةِ وأنت عظيمٌ عَفْوُكَ كثيرٌ نِعْمَتُكَ وأنتَ تغفرُ الذنوبَ ، فَاغْفِرْ لَهم.

فقال اللهُ تَعَالَى : قد غَفَرْتُ لَهم بكلمتِكَ ، ولكن بَعْدَمَا سَمَّيتَهُمْ فاسِقينَ ، وَدَعَوْتَ عليهم في عجلة لأُحَرِّمَنَّ عليهم دخولَ الأرضِ المقدَّسةِ ، فذلك قولهُ : { قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ } ؛ يَتَحَيَّرُونَ ؛ { فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }.

وَقِيْلَ : إنَّ قولهم لموسَى : { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } كان سُؤَالاً منه الفَرْقَ في الحقيقةِ دون القضاء ، وكان دعاؤُه مُنْصَرِفاً إلى الآخرةِ ، أي أدْخِلْنَا الجنَّةَ إذا أدخلتَهم النارَ ، ولم يَعْنِ بذلك في الدُّنيا ؛ لأنه لو عَنَى ذلكَ لأجاب الله تعالى دُعَاءَهُ وأهلكَهم جميعاً ؛ لأنَّ دعاءَ الأنبياءِ لا يُرَدُّ من أجلِ أنَّهم يدعونَ بأمرِ الله تعالى.

ويقالُ : كان هذا دعاءً راجعاً إلى الدُّنيا ، وقد أجابَ اللهُ تعالى دعاءَه ؛ لأنَّهُ عاقبَ قومَهُ في التِّيْهِ ، ولم يكن موسَى وهارون محبوسَين في التِّيْهِ ؛ لأن الأنبياءَ علَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يعذبون. قال الحسنُ : (لاَ يَجُوزُ أنْ يَكُونَ مُوسَى مَعَهُمْ فِيْهَا لاَ حَيّاً وَلاَ مَيِّتاً ، ولاَ يجُوزُ إذا عَذبَ اللهُ بنَبيٍّ إلاَّ أنْ يُنَجِّيَ ذلِكَ النَّبيَّ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ). ويقالُ : إنَّ هذا الدُّعاء كان مِن موسى عليه السلام عندَ الغَضَب ؛ لأنه عنى به الحقيقة ، ألا ترى أنه نَدِمَ على دعائه وجزِعَ من تحريم قرية الجبارين عليهم جزعاً شديداً حتى قيل له : لا تأس على القوم الفاسقين.

قوله عَزَّ وَجَلَّ : { فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً } أي قال اللهُ تعالى : فإنَّ الأرضَ المقدَّسةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ؛ أي هم مَمْنُوعُونَ من دخولِها أربعينَ سنةً ، وأصْلُ التَّحْرِيْمِ الْمَنْعُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ }[القصص : ١٢] وأرادَ : به الْمَنْعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ } أي يَتَحَيَّرُونَ. قال ابنُ عبَّاس : (يَتَحَيَّرُونَ فِي سِتَّةِ فَرَاسِخَ أرْبَعِيْنَ سَنَةً ، كَانُوا يَسِيْرُونَ فِي أوَّلِ النَّهَار فَيُمْسُونَ فِي مَكَانِهِمْ ، وَيَسِيْرُونَ فِي أوَّلِ اللَّيْلِ ، فَتَدُورُ بِهِمُ الأَرْضُ فَيُصْبحُونَ فِي مَكَانِهِمْ). قال الحسنُ : (عَمِيَ عَلَيْهِمُ السَّبِيْلَ وَأخْفِيَ عَلَيْهِمُ الأعْلاَمُ الَّتِي يَهْتَدُونَ إلَى الطَّرِيْقِ فَلَمْ يَسْتَطِيْعُوا الْخُرُوجَ مِنْهَا).

(٠/٠)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ } ؛ معناهُ : واقرأ يا مُحَمَّدُ على قومِكَ خبرَ ابْنَي آدَمَ بالصَّدقِ ؛ إذ وضعَا على الجبلِ قُرْبَاناً ، والقُرْبَانُ : مَا يُتَقَرَّبُ بهِ إلى اللهِ تَعَالَى. وقِيْلَ : معناهُ : واقرأ على أولادِ هؤلاء الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ من أهلِ الكتاب حتى يُقِرُّوا برسالتِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا } أي قُبلَ القربانُ من أحدِهما ، ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر ، ومعنى القبول : إيجاب الثواب.

قال ابنُ عبَّاس : (وَذَلِكَ أنَّ حَوَّاءَ كَانَتْ تَلِدُ كُلَّ بَطْنٍ وَلَدَيْنِ ذكَرٍ وَأنْثَى ؛ إلاَّ شيث فَإنَّهَا وَلَدَتْهُ مُنْفَرِداً ، فَوَلَدَتْ أوَّلَ بَطْنٍ قَابِيْلَ وَأُخْتَهُ إقْلِيْمَا ، ثُمَّ وَلَدَتْ فِي الْبَطْنِ الثَّانِي هَابِيْلَ وَأُخْتَهُ لَبُودا. فَلَمَّا أدْرَكُوا ، أمَرَ اللهُ آدَمَ أنْ يُزَوِّجَ قَابِيْلَ أخْتَ هَابِيْلَ ، وَيُزَوِّجَ هَابِيْلَ أخْتَ قَابِيْلَ ، فَرَضِيَ هَابِيْلُ وَكَرِهَ قَابِيْلُ ؛ لأَنَّ أخْتَهُ كَانَتْ أحْسَنَهُمَا ، فَقَالَ آدَمُ : مَا أمَرَ اللهُ إلاَّ بهَذا يَا بُنَيَّ ؛ وَلاَ يَحِلُّ لَكَ. فَأَبَى أنْ يَقْبَلَ ؛ وَقَالَ : إنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْ بهَذا وَإنَّمَا هُوَ مِنْ رَأيكَ. فَقَالَ لَهُمَا : قَرِّبَا قُرْبَاناً ؛ فَأَيُّكُمَا يُقْبَلُ قُرْبَانُهُ فَهُوَ أحَقُّ بهَا.

وَكَانَ هَابِيْلُ صَاحِبَ غَنَمٍ ، وَقَابِيْلُ صَاحِبَ حَرْثٍ ، فَقَرَّبَ هَابِيْلُ كَبْشاً سَمِيْناً وَلَبَناً وَزُبْداً ، وَقَرَّبَ قَابِيْلُ سُنْبُلاً مِنْ شَرِّ زَرْعِهِ ، وَأضْمَرَ فِي قَلْبِهِ مَا أبَالِي أتُقُبلَ مِنِّي أمْ لاَ ، لاَ يَتَزَوَّجُ أخْتِي أبَداً ، وَأضْمَرَ هَابِيْلُ فِي نَفْسِهِ الرِّضَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَوَضَعَا قُرْبَانَهُمَا عَلَى الْجَبَلِ ، فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَمَا أكَلَتْ شَيْئاً مِنَ السُّنْبُلِ بَعْدَ ، ثُمَّ أكَلَتِ الْكَبْشَ وَاللَّبَنَ وَالزُّبْدَ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى { فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ }.

فَنَزَلُوا الْجَبَلَ وَتَفَرَّقُوا ، وَكَانَ آدَمُ عليه السلام مَعَهُمْ ، فَذَهَبَ هَابِيْلُ إلَى غَنَمِهِ ، وَقَابِيْلُ إلَى زَرْعِهِ غَضْبَانَ وَأظْهَرَ الْحَسَدَ لِهَابِيْلَ ، وَقَالَ : يَا هَابِيْلُ لأقْتُلَنَّكَ! قَالَ : وَذَلِكَ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى تَقَبَّلَ قُرْبَانَكَ وَرَدَّ عَلَيَّ قُرْبَانِي ، وَتَنْكِحُ أخْتِي الْحَسَنَةَ ، وَأنْكِحُ أخْتَكَ الْقَبِيْحَةَ ، فَيُحَدِّثُ النَّاسَ أنَّكَ خَيْرٌ مِنِّي. { قَالَ } ؛ هَابِيْلُ : مَا ذنْبِي فِي ذلِكَ؟!). { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } ؛ أي من الزَّاكيةِ قلوبُهم الذين يخافونَ على حسناتِهم أن لا تُقْبَلَ ، ولم تَكُنْ أنتَ زَاكِيَ القَلْب ، فردَّ اللهُ قربانَكَ حيث نِيَّتَكَ.

وَقِيْلَ : أرادَ بالمتَّقين الذين يَتَّقُونَ الشِّرْكَ. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ قَابِيْلُ كَافِراً) وَفي أكثرِ الرِّواياتِ أنَّهُ كانَ رَجُلَ سَوْءٍ. قال الحسنُ : (كَانَ الرَّجُلُ إذا أرَادَ أنْ يُقَرِّبَ الْقُرْبَانَ ؛ تَعَبَّدَ وَتَابَ وَتَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوب وَلَبسَ الثِّيَابَ الْبِيْضَ ، ثُمَّ قَرَّبَ وَقَامَ يَدْعُو اللهَ ، فَإنْ قَبلَ اللهُ قُرْبَانَهُ جَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ ، وذلِكَ عَلاَمَةُ الْقَبُولِ ، وَإنْ لَمْ تَجِئْ نَارٌ فَذلِكَ عَلاَمَةُ الرَّدِّ).

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ } ؛ أي قال هَابِيْلُ مُجِيْباً لقابيلَ : لَئِنْ مَدَدْتَ يدكَ إلى القتلِ ظُلماً ما أنا بالّذي أمُدَّ يَدِي إليكَ لأقتلكَ ظُلماً ، قال قابيلُ : ولِمَ ذلك ؟ قال : { إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } ؛ بقتلِكَ ظُلماً.

واختلفَ العلماءُ في وقتِ مَوْلِدِ قابيلَ وهابيلَ ، قال بعضُهم : غَشِيَ آدمُ حوَّاءَ بعد ما هَبَطَ إلى الأرضِ بمائة سَنَةٍ ، فولدت لهُ قابيلَ وتَوْأمَتَهُ في بطنٍ ، ثم بعدَ ذلكَ البطنِ هابيلُ وتَوْأمَتَهُ. قال ابنُ عبَّاس : (وَلَمْ يَمُتْ آدَمُ حَتَّى بَلَغَ وَلَدَهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ أرْبَعِيْنَ ألْفاً).

وقال بعضُهم : كان آدمُ يغشَى حوَّاءَ في الجنَّةِ ، فَحَمَلَتْ بقابيلَ وتَوْأمَتِهِ ، فلَم تَجِدْ عليهما وَحَماً ولا وَصَباً ولا طَلْقاً ولا نِفَاساً لِطُهْرِ الجنَّة ، فلما هَبَطَ إلى الأرضِ تَغشَّاها فحملت بهابيلَ وتوأمتهِ ، فوجدَتْ عليهما الوَحَمَ وَالوَصَبَ والطَّلْقَ والدَّمَ.

(٠/٠)

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ } ؛ أي قال هابيلُ لقابيلَ : إنْ كُنْتَ تريدُ قتلي فلا تَرْجِعْ عنهُ ، فَإِنِّي أريدُ أن ترجعَ إلى اللهِ بإثْمِ دَمِي وإثمِ ذنْبكَ الذي مِن أجْلِهِ لم يُتَقَبَّلُ قربانُكَ ، { فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } ؛ في الآخرةِ ؛ { وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ } ؛ أي وذلكَ عقوبةُ مَن لَمْ يَرْضَ بحكمِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ؛ أي طَاوَعَتْهُ نفسهُ ، وَقِيْلَ : زَيَّنَتْ لهُ قَتْلَهُ فَقَتَلَهُ. قال السُّدِّيُّ : (لَمَّا قَصَدَ قَابِيْلُ قَتْلَ هَابِيْلُ أتَاهُ فِي رَأسِ جَبَلٍ وَهُوَ نَائِمٌ وَغَنَمُهُ تَرْعَى ، فَأَخَذ صَخْرَةً فَشَدَخَ بهَا رَأسَهُ فَمَاتَ).

وقال الضحَّاك : (كَانَ قَابِيْلُ لاَ يَدْرِي كَيْفَ يَقْتُلُهُ حَتَّى جَاءَ إبْلِيْسُ وَبِيَدِهِ حَيَّةٌ فَوَضَعَهَا بَيْنَ حَجَرَيْنِ ، فَرَضَخَ رَأسَهَا بالْحَجَرِ وَقَابِيلُ يَنْظُرُ ، فَلَمَا نَظَرَ ذلِكَ جَاءَ إلَى هَابِيلَ فَلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ بالْحِجَارَةِ عَلَى

رَأسِهِ حَتَّى قَتَلَهُ ، وَكَانَ لِهَابيلَ يَوْمَ قُتِلَ عُشْرُونَ سَنَةً). واختلفوا في موضعِ قتله ، قِيْلَ : قُتِلَ على جبلِ ثور. وقِيْلَ : بالبصرةِ.

فلمَّا مات هابيلُ قصَدتْهُ السِّباعُ لتأكلَهُ ، فحملَهُ قابيلُ على ظهرِهِ حتى انتنَّ ريحهُ ، فعكفَ الطُّيور والسِّباع حوالَيهِ تنتظرُ متى يُرمَي به فتأكلَهُ ، { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ } ؛ فبعثَ الله غُرابين فاقتتلا ، فقَتل أحدُهما صاحبه ، ثم حفرَ له بمنقارهِ ورجله ، ثم ألقاهُ في الحفيرةِ ووارَاهُ ، وقابيلُ ينتظرُ إليه فـ ؛ { قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَاذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ }.

وعن ابنِ عباس قالَ : (لَمَّا قَتَلَ قَابيلُ هَابيلَ رَجَعَ إلَى أبيهِ قَبْلَ أنْ يَدْفِنَهُ ، فَلَمَّا أبْطَأَ هَابيلُ قالَ آدَمُ عليه السلام : يَا قَابيلُ أينَ أخُوكَ ؟ قالَ : مَا رَأيْتُهُ ؛ وَكَأَنَّني بهِ أرْسَلَ غَنَمَهُ فِي زَرْعِي فَأَفْسَدَهُ ، فَلَعَلَّهُ خَافَ أنْ يَجِيءَ مِنْ أجْلِ ذلِكَ ، قَالَ : وَحَسَّتْ نَفْسُ آدَمَ ، فَبَاتَ لَيْلَتَهُ تِلْكَ مَحْزُوناً ، فَلَمَّا أصْبَحَ قَابيلُ غَدَا إلَى ذلِكَ الْمَوْضِعِ ، فَإذا هُوَ بغُرَابٍ يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ عَلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ لِيُواريَهُ).

وَقِيْلَ : بعثَ اللهُ الغرابَ إكراماً لهابيل ، وكان الغرابُ يحثِي الترابَ على هابيل ليُرِيَ قابيل كيف يُواريه ؛ أي كيف يغطِّي عورتَهُ. وفي الخبرِ : أنَّهُ لَمَّا قتله سلبَهُ ثيابه ، وتركه عُرياناً. وَقِيلَ : أرادَ بالسَّوْءَةِ جسَدَ المقتولِ ، سماه سَوْءَةً لأنه لَمَّا بقي على وجهِ الأرض تغيَّرَ وَنَتَنَ ، والسوءَةُ في اللغة : عبارةٌ عن كل شيء مستنكرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } ؛ الخاسرين ، أي صارَ من المغبونين بالوزر والعقوبة. قال الكلبيُّ : (كَانَ قَابيلُ أوَّلَ مَنْ عَصَى اللهَ فِي الأَرْضِ مِنْ ولْدِ آدَمَ ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ يُسَاقُ إلَى النَّارِ).

وقال مقاتلُ : (كَانَ قَبْلَ ذلِكَ تَسْتَأْنِسُ الطُّيُورُ وَالسِّبَاعُ وَالْوُحُوشُ بهِ ، فَلَمَّا قَتَلَ قَابيلَ نَفَرُواْ ، فَلَحِقَتِ الطُّيُورُ بالْهَواءِ ؛ وَالْوُحُوشُ بالْبَرِّيَّةِ ؛ وَالسِّبَاعُ فالفيَافِي وشَاكَ الشَّجَرُ ، وَتَغَيَّرَتِ الأَطْعِمَةُ وَحَمِضَتِ الْفَوَاكِهُ وَاغْبَرَّتِ الأَرْضُ).

(٠/٠)

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي من أجلِ ذلك القتلِ الذي عرفَهُ بنو إسرائيل واشتهرَ عندهم ، فرَضْنَا وأوجَبنا عليهم في التَّوراة : { أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ } ؛ أي من

غيرِ أن يجبَ عليه القَوْدُ ، { أَوْ } ؛ بغَيرِ ؛ { فَسَادٍ فِي الأَرْضِ } ؛ نحوَ الشِّرك وقطعِ الطريق والزِّنا عند الإحصان ، { فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً } ؛ أي استوجبَ النار بقتلِ النفس الواحدة ، كما يستوجبُها مَن قَتَلَ الناس جميعاً ، وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ على الناس كلهم معونةُ وليِّ القتيلِ حتى يفتدوهُ ، ويكونوا كلُّهم خَصماً للقاتلِ حتى يُقَادَ. وَقِيْلَ : إن المرادَ به استحقاقُ القتلِ عليه بقتلِ النفس الواحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً } ؛ أي من استنقذ نفساً من غَرَقٍ أو من حَرْقٍ أو مما يُميتها لا محالةَ ، أو استنقذها من كفرٍ أو ضلالة فأحياها بالنعيمِ الدائم في الجنَّة ، أو عفَى عن دمها بعد ما وجبَ عليها القصاصُ استوجبَ الجنَّة ، كما استوجبَها مَن أحيَا الناس جميعاً. وعن ابنِ عبَّاس قالَ : قَالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَقَا مُؤْمِناً شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ وَالْمَاءُ مَوْجُودٌ فَكَأَنَّمَا أعْتَقَ سَبْعِينَ رَقَبَةً ، وَمَنْ سَقَاهَا فِي غَيْرِ مَوْطِنِهَا فَكَأَنَّمَا أحْيَا نَفْساً ، وَمَنْ أحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي لقد جاءت بني إسرائيلَ رسُلنا بالأوامر والنواهِي والعلامات الواضِحات ، { ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ } ؛ بعدَ أن جاءَتهم الدلائلُ والمعجزات ، { فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ } ؛ مُشركون تاركُو أمرَ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (إنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَادَعَ أبَا بُرْدَةَ هِلاَلَ بْنَ عُوَيْمِرَ الأَسْلَمِيُّ : " عَلَى أنْ لاَ يُعِينَهُ وَلاَ يُعَينَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أتَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أمَّنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ مَرَّ بِهِلاَلِ بْنِ عُوَيْمِرَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ آمِنٌ "

فَمَرَّ قَوْمٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُرِيدُونَ الإسْلاَمَ عَلَى قَوْمٍ مِمَّنْ أسْلَمَ مِنْ قَوْمِ هِلاَلٍ ، وَلَمْ يَكُنْ هِلاَلٌ يَوْمَئِذٍ حَاضِراً ، فَخَرَجَ أصْحَابُهُ إلَيْهِمْ فَقَتَلُوهُمْ وَأخَذُوا أمْوَالَهُمْ ، فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللهُ فِيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : (إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ) الفَسَاد نحو القتلِ والنَّهب والتخريب وقطع الطريقِ { أَن يُقَتَّلُواْ } إنْ قتَلُوا أحداً ولم يأخذُوا المالَ { أَوْ يُصَلَّبُواْ } مقتُولين إن قتَلُوا

وأخذُوا المالَ ، { أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ } اليدُ اليمين من الرِّسغ ، والرِّجل اليُسرى من الكعب إن أخَذُوا المالَ ولم يقتُلوا أحَداً ، { أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ } إن أخَافُوا الطريقَ ولم يفعَلُوا سِوَى ذلك.

واختلَفُوا في معنى النَّفي ، قال بعضُهم : يعني الحبسَ ، وقال بعضُهم : هو الطلبُ حتى لا يستقرَّ بهم مكانٌ. والتوفيقُ بين القولَين : أنَّهم إنْ أخِذُوا بعد ما أخَافُوا الطريقَ ؛ أودعَهم الإمامُ السِّجن حتى يتوبُوا أو يموتوا ، وإنْ لم يُؤخَذوا أمَرَ بطلبهم ، وأمرَ أن يُنادى في الناسِ : أنَّ مَن قتلَهم لا سبيلَ عليه.

وإنما سُمي الحبسُ نَفياً ؛ لأنه يمنعُ المحبوسين من التردُّد والتصرُّف في الأرضِ ، ويكون ذلك بمنزلةِ النَّفي من الأرض.

واختلَفُوا في كيفيَّة الصَّلب مع القتلِ. قال أبو حَنيفة : (يُصْلَبُ حَيّاً لِيَرَى النَّاسَ وَيَرَوهُ ؛ وَيَكُونُ ذلِكَ زِيَادَةَ عُقُوبَةٍ لَهُ ، ثُمَّ تُبْعَجُ بَطْنُهُ بالرُّمْحِ ؛ يُطْعَنُ فِي خَاصِرَتِهِ حَتَّى يَمُوتَ). وقال أبو يُوسف والشافعيُّ : (يُقْتَلُ ثُمَّ يُصْلَبُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا } ؛ أي فضيحةٌ في الدنيا ، { وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ أعظَمُ من هذا.

وقال مقاتلُ وسعيد بن جُبير : (نَزلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي عُرَيْنَةَ ، قَدِمُوا الْمَدِيْنَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَبَايَعُوهُ عَلَى الإسْلاَمِ ، وَهُمْ كَذبَةٌ وَلَيْسَ يُرِيدُونَ الإسْلاَمَ ، فَاجْتَوَواْ الْمَدِيْنَةَ وَعَظُمَتْ بُطُونُهُمْ وَاصْفَرَّتْ وُجُوهُهُمْ ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَخْرُجُوا إلَى إبلِ الصَّدَقَةِ فَيَشْرَبُواْ مِنْ أبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا ، فَفَعَلُوا ذلِكَ حَتَّى صَحُّوا ، ثُمَّ قَتَلُوا الرُّعَاةَ وَاسْتَاقُوا الإبِلَ وَارْتَدُّواْ عَنِ الإسْلاَمِ.

فَصَاحَ الصَّائِحُ : يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي. فَرَكِبُوا لاَ يَنْتَظِرُ فَارِسٌ فَارِساً ، فَأَسْرَعُوا فِي طَلَبِهِمْ ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فِي طَلَبِهِمْ ، فَجَاءوا بِهِمْ ، فَقَطَّعَ أيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلاَفٍ ، وَسَمَّلَ أعْيُنَهُمْ ، وَتَرَكَهُمْ بالْحَيَاةِ حَتَّى مَاتُواْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَصَارَتْ عَامَّةً فِي قُطَّاعِ الطُّرُقِ نَاسِخَةً لِتَسْمِيلِ الْعَيْنِ).

وقال الليثُ بنُ سعدٍ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُعَاتِبَةً لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَتَعْلِيماً لَهُمْ عُقُوبَتَهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ } وَلَمْ يَكُنْ جَزَاؤُهُمْ هَذِهِ الْمُثْلَةَ الَّتِي هِيَ السَّمْلُ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ خَطِيباً وَنَهَى عَنِ الْمُثْلَةِ).

(٠/٠)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ } ؛ معناهُ : أن يُقتَلوا أو يُصَلَّبوا إلاَّ الذين تَابُوا من قطعِ الطَّريق من قبلِ أن يقدرَ عليهم الإمامُ ، { فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ؛ لعبادهِ ، { رَّحِيمٌ } ؛ بهم بعدَ التوبةِ.

روى الشعبيُّ : (أنَّ حَارِثَةَ بْنَ زَيْدٍ خَرَجَ مُحَارِباً فِي عَهْدِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، فَأَخَافَ السُّبُلَ وَسَفَكَ الدِّمَاءَ وَأَخَذ الأَمْوَالَ ، ثُمَّ جَاءَ تَائِباً فَأَتَى الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْمِنَ لَهُ عَلِياً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فَأَبَى ، فَأَتَى عَبْدَاللهِ بْنَ جَعْفَرَ فَأَبَى عَلَيْهِ ، فَأَتَى سَعْدَ بْنَ قَيْسٍ الْهَمَدَانِيَّ فَقَبِلَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا صَلَّى عَلِيٌّ رضي الله عنه صَلاَةَ الْغَدَاةِ ، أَتَى سَعْدُ بْنُ قَيْسٍ الْهَمَدَانِيُّ وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ؛ مَا جَزَاءُ الّ◌َذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ قَالَ : أَنْ يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ. قَالَ : مَا تَقُولُ فِيْمَنْ تَابَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : أَقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } فَقَالَ سَعْدُ بْنُ قَيْسٍ : وَإِنْ كَانَ حَارِثَةَ بْنَ زَيْدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَيْهِ ، فَبَايَعَهُ وَأَمَّنَهُ وَكَتَبَ لَهُ أَمَاناً مَنْشُوراً ، فَقَالَ حَارِثَةُ : أَلاَ أَبْلِغَنَّ هَمَدَان إِمَّا لَقِيتَهَا عَلَى النَّأْيِ لاَ يَسْلَمْ عَدُوٌّ يَعِيبُهَالَعَمْرُو أبيهَا إِنَّ هَمَدَانَ تَتَّقِى الـ إِلَهَ وَيَقْضِى بالكِتَاب خَطِيبُهَا

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } ؛ أي يا أيُّها الذين آمَنوا اخشَوا عذابَ الله واحذرُوا معاصيَهُ ، واطلبُوا إليه القربةَ بالأعمالِ الصالحة ، { وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ } ؛ أعداءَ الله في طاعتهِ ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ أي لعلَّكم تظفَرُون بعدوِّكم في الدنيا ، وتنجُوا من النار في العُقبى. والوسيلةُ : القُرْبَةُ : وهي فَعِيلَةٌ من : توَسَّل إلى فلانٍ بكَذا ؛ أي تقرَّبَ إليه ، وجمعُها وسَائِلُ. قال الشاعرُ : إذا غَفِلَ الْوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُوقَال عطاءُ : (الْوَسِيْلَةُ : أَفْضَلُ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ) ، قال صلى الله عليه وسلم : " سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيْلَةَ ، فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ يَنَالُهَا إِلاَّ عَبْدٌ وَاحِدٌ ، وَأَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ "

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ } ؛ وفي الآية إزالةُ طَمَعِ الكفَّار عن التخلُّص من عذاب الآخرة ، يقول : لو مَاتُوا على الكفرِ ، وكان لهم ما في الأرضِ جميعاً من الأموالِ بأَسرِها وضعفهُ معَهُ لَيَشتروا به أنفسهم من عذاب الله ما تُقُبلَ ذلكَ الفداءُ منهم لو فادوا ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ وجيعٌ يخلُصُ وجعهُ إلى قلوبهم.

(٠/٠)

يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } ؛ قِيْلَ : معناهُ : كلَّما رفعَتهُم النارُ بلَهَبهَا يتمنُّوا أن يخرجوا منها ، يقولُ الله تعالى : { وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } دائمٌ لا ينقطعُ.

(٠/٠)

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي طُعْمَةَ بْنِ أَبَيْرِقَ سَارِقِ الدِّرْعِ) وقد مضت قصَّتهُ في سورةِ النساء ، ثم صارت عامَّة في جميعِ الناس. ومعنى الآية : والسارقُ من الرجالِ والسارقةُ من النِّساء فاقطَعُوا أيدِيَهُما أي إيمانِهِمَا كذا تأوَّلَهُ ابنُ عباس. وفي قراءةِ ابن مسعود : (فَاقْطَعُواْ أَيْمَانَهُمَا).

وقرأ عيسى بن عمر : (وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ) بالنصب على إضمار اقطَعُوا السارقَ والسارقةَ ، كما تقولُ : زَيداً اضرِبهُ ، والقراءة المختارةُ : الرفعُ ؛ لأن القطعَ على الأيدِي لا على السارقِ. وقال المبرِّدُ : (لَيْسَ

الْقَصْدُ مِنَ الْكَلاَمِ إِلَى وَاحِدٍ بعَيْنِهِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ : مَنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ ، بِخِلاَفِ قَوْلِكَ : زَيْداً اضْرِبْهُ. وَلَوْ أَرَادَ سَارِقاً بعَيْنِهِ لَكَانَ وَجْهُ الْكَلاَمِ النَّصْبَ). وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا }[النور : ٢] ولو أرادَ زانياً بعينهِ لنصبَ.

وإنما ذكرَ أيديَهُما بلفظِ الجمع ؛ لأنه أرادَ أيْمانَهُما ؛ لأنَّ ما كان واحداً فَبَيَّنَهُ بلفظِ الجمع والإضافةِ إلى الاثنين ، ومثلُ ذلكَ{ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }[التحريم : ٤] ، والإضافةُ إلى الاثنينِ يدلُّ على أن المرادَ به التثنيةُ دونَ الجمعِ.

فإن قِيْلَ : لأيِّ معنى قدَّمَ اللهُ ذكرَ السارقِ على السَّارقة ، وقدَّمَ ذكرَ الزانيةِ على الزانِي ؟ قِيْلَ : لأنَّ السرقةَ في الرجالِ أكثرُ ، والنساءُ هي أصلُ الفتنةِ للرجال بالتعريضِ لهم ، ولو لَزِمَتِ المرأةُ بيتَها كما أمرَ اللهُ تعالى لم تقَعْ هي ، ولا الرجالُ في الزِّنا.

واختلفوا في كم تقطَعُ يدُ السارقِ من المال إذا سرقَهُ ، فقال بعضُهم : في عشرةِ دراهمَ فصاعداً ، ولا يقطعُ فيما دون ذلك ، وإليه ذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ ، وكان سُليمان بن يسار لا يقطعُ الخمسَ إلاَّ في خمسةِ دراهمَ. وقال مالكُ : (يُقْطَعُ فِي ثَلاثَةِ دَرَاهِمَ فَصَاعِداً) ، وقال الأوزاعيُّ والشافعي : (يُقْطَعُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً).

وقال بعضُهم : يقطع في القليلِ والكثير ولو كان دَانِقاً ، وهو قولُ ابنِ عبَّاس. وقال بعضُهم : في درهمٍ. ولو قطعَ السارقُ ثم عادَ فسرقَ ، قُطعت رجلهُ اليُسرَى ، فإن سرقَ ثالثاً قال أبو حنيفةَ وأصحابهُ : (لاَ يُقْطَعُ ، لِمَا رُوِيَ أَنَّ عَلِيّاً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أُتِيَ بسَارِقٍ فَقَطَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى ، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى فَقَطَعَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى ، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ ثَالِثَةً فَضَرَبَهُ وَحَبَسَهُ وَقَالَ : إِنِّي أَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ لاَ أَدَعَ لَهُ يَداً يَسْتَنْجِي بِهَا وَلاَ رِجْلاً يَمْشِي بِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَزَآءً بِمَا كَسَبَا } ؛ أي عقوبةً على ما فعَلاَ ، وانتصبَ (جَزَاءً) لأنه مفعولٌ له ، كأنه قالَ : فاقطَعُوهما لجزاءِ فعلِهما. قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ } ؛ أي عقوبةً وفضيحة من اللهِ. والنَّكَالُ : هو أن يُنَكَّلَ بِهِ ليعتبرَ به غيرهُ فَيَنْكَلَ ؛ أي لا يفعلَ مثلَ فعلِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ؛ أي منيعٌ بالنِّقمة من السارقِ ، ذو حِكمة فيما حكمَ من القطعِ لما في ذلك من زَجْرِ السَّارق عن غيِّهم صيانةً لأموالِ الناس.

(٠/٠)

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ } ؛ أي من تاب من السراق من بعد سرقته وأصلح

العمل فيما بينه وبين الله تعالى ، { فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ } ؛ أي يتجاوزُ عنه ولا يؤاخذهُ في الآخرةِ ، ولا تقطعُ يده إذا ردَّ المالَ قبل المرافعةِ إلى الحاكمِ ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ بمن ماتَ على التوبةِ.

وأما إذا رُفع إلى الحاكمِ ثم تابَ فالقطعُ واجبٌ ، فإنْ كانت توبتهُ حقيقةً كان ذلك زيادةَ درجاتٍ له ، كما أنَّ الله تعالى ابتلَى الصالحين والأنبياءَ بالبلايا والْمِحَنِ والأمراضِ زيادةً لهم في درجاتِهم ، وإنْ لم تكن توبتهُ حقيقةً كان الحدُّ عقوبةً له على ذنبهِ ، وهو مؤاخَذٌ في الآخرةِ إن لم يتُبْ.

وعن عبدِالله بن عامر قال : " سَرَقَتِ امْرَأَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَجَاءُوا بهَا إِلَيْهِ ، قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ سَرَقَتْنَا ، فَقَالَ قَوْمُهَا : نَحْنُ نَفْدِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " اقْطَعُوا يَدَهَا " قَالُواْ : نَحْنُ نَفْدِيهَا بِخَمْسِمِائَةِ مِثْقَالٍ ، فَقَالَ : " اقْطَعُوا يَدَهَا " فَقُطِعَتْ يَدُهَا الْيُمْنَى ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " نَعَمْ إِنَّ التَّوْبَةَ تُخْرِجُكِ عَنْ خَطِيئَتِكِ كَيَوْمِ وَلَدَتْكِ أُمُّكِ " فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ { فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ }.

وعن عائشةَ قالت : " كَانَتِ امْرَأَةٌ مَخْزُومِيَّةٌ تَسْتَعِيْرُ الْمَتَاعَ وَتَجْحَدُهُ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بقَطْعِ يَدِهَا ، فَأَتَى أَهْلُهَا أُسَامَةَ فَكَلَّمُوهُ ، فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : " يَا أُسَامَةُ لاَ أَرَاكَ تُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ " ثُمَّ قَامَ خَطِيباً فَقَالَ : " إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " أَعَاذَهَا اللهُ مِنْ ذلِكَ ، فَقَطَعَ يَدَ الْمَخْزُومِيَّةِ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي له القدرةُ على أهلِ السَّموات والأرضِ ، والخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ } ؛ أي يعذِّبُ مَنْ يشاءُ على الذنب الصغير وهو عدلٌ منه ، ويغفرُ لِمَنْ يشاءُ الذنبَ العظيمَ وهو فضلٌ منه ؛ أي يعذِّبُ من توجبُ الحكمة تعذيبَهُ ، ويغفرُ لمن توجبُ الحكمة مغفرتَهُ ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

وقولهُ تعالى : { ياأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ } ؛ أي لا يحزنُكَ يا مُحَمَّدُ فعلُ الذين يسارعُ بعضهم بعضاً في الإقامةِ على الكفرِ والحثِّ عليه.

قرأ نافعُ : (يُحْزِنُكَ) بضمِّ الياء ، ومعناهما واحدٌ. وقرأ السلميُّ : (يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ) ، وقولهُ تعالى : { مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ } وهم المنافقون { وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ } ؛ أي ومن يهودِ المدينة الذين هم أهلُ الصُّلح للنبيِّ صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وتثبيتٌ لفؤادهِ بوعد النُّصرَةِ والظفرِ ، وإعلامٌ أنَّ اليهود والنصارَى والمنافقين لا يضرُّونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : " { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ } ؛ أي قابلون للكذب ، يعني بني قُريظة هم سَمَّاعون لقومٍ آخَرين لم يأتُوكَ ، يعني يهودَ خيبر ، وذلك : أنَّ رَجُلاً وَامْرَأَةً مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ خَيْبَرَ زَنَيَا ، وَكَانَتْ خَيْبَرُ حَرْباً لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانَ الزَّانِيَانِ مُحْصِنَيْنِ ، وَكَانَ حَدَّهُمَا الرَّجْمُ فِي التَّوْرَاةِ ، فَكَرِهَتِ الْيَهُودُ رَجْمَهُمَا لِشَرَفِهِمَا ، وَقَالُواْ : إنَّ هَذا الرَّجُلَ الَّذِي فِي يَثْرِبَ لَيْسَ فِي كِتَابِهِ الرَّجْمُ وَلَكِنَّهُ الضَّرْبُ ، فَأَرْسِلُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَإِنَّهُمْ صُلْحٌ لَهُ وَجِيرانُهُ فَيَسْأَلُونَهُ عَنْ ذلِكَ ، فَبَعَثُوا رَهْطاً مِنْهُمْ مُسْتَخْفِينَ ، وَقَالُواْ لَهُمْ : اسْأَلُوا مُحَمَّداً عَنِ الزَّانِيَينِ مُحْصِنَينِ مَا حَدُّهُمَا ؟ فَإِنْ أَمَرَكُمْ بالْجَلْدِ فَاقْبَلُواْ مِنْهُ ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ بالرَّجْمِ فَاحْذرُوهُ وَلاَ تَقْبَلُواْ مِنْهُ ، وَأَرْسَلُواْ الزَّانِيَيْنِ مَعَهُمْ.

فَقَدِمَ الرَّهْطُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ ، وَذَكَرُوا لَهُمْ ذلِكَ وَقَالُواْ : اسْأَلُوا لَنَا مُحَمَّداً عَنْ قَضَائِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ : إذاً وَاللهِ يَأْمُرُكُمْ بمَا تَكْرَهُونَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْهُمْ قَوْمٌ مِثْلُ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ وَكَعْب بْنِ أَسَدٍ وَسَبْعَةَ بْنِ عُمَرَ وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ وَعَازُورَاءَ وَغَيْرُهُمْ ، وَقَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنِ الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي إذا أَحْصَنَا مَا حَدُّهُمَا وَكَيْفَ تَجِدُ فِي كِتابكَ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " وَهَلْ تَرْضَوْنَ بقَضَائِي فِي ذلِكَ ؟ " قَالُواْ : نَعَمْ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بالرَّجْمِ ، فَأَخْبَرَهُمْ فَأَبَوا أَنْ يَأْخُذُواْ بِهِ.

فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام : اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ابْنَ صُوريَّا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " هَلْ تَعْرِفُونَ شَابّاً مِنَ الرِّبِّيِينَ أَعْوَرَ سَكَنَ فَدَكْ ؟ " قَالُواْ : نَعَمْ ، قَالَ : " فَأَيُّ رَجُلٍ هُوَ فِيْكُمْ ؟ " قَالُواْ : هُوَ أَعْلَمُ مَنْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِنَ الْيَهُودِ بالتَّوْرَاةِ ، قَالَ : " فَأَرْسِلُواْ لَهُ " ، فَفَعَلُواْ ، فَأَتَاهُمْ ابْنُ صُوريَّا ، فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " أَنْتَ ابْنُ صُوريَّا ؟ " قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : " أَنْتَ أَعْلَمُ الْيَهُودِ ؟ " قَالَ : كَذلِكَ يَزْعُمُونَ ، قَالَ : " أَتَجْعَلُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ؟ " قَالُواْ : نَعَمْ قَدْ رَضِينَا بِهِ إذا رَضِيْتَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " أَنْشِدُكَ باللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْقَوِيُّ ، إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، وَالَّذِي فَلَقَ لَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَاكُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ ، وَالَّذِي ظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، هَلْ تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمُ الرَّجْمَ عَلَى مَنْ أَحْصَنَ ؟ " قَالَ ابْنُ صُوريَّا : نَعَمْ وَالَّذِي ذكَّرْتَنِي بِهِ ؛ وَلَوْلاَ خِشْيَةَ أَنْ تُحْرِقَنِي التَّوْرَاةُ إِنْ كَذبْتُ أَوْ غَيَّرْتُ لَمَا أَعْرَفْتُ لَكَ ، وَلَكِنْ كَيْفَ فِي كِتَابكَ يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ : " إذا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ عُدُولٌ أَنَّهُ أَدْخَلَ فِيْهَا ، كَمَا يَدْخُلُ الْمِيْلُ فِي الْمِكْحَلَةِ وَجَبَ عَلَيْهِ الرَّجْمُ " ، قَالَ ابْنُ صُوريَّا : وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى لَهَكَذا أُنْزِلَ عَلَى

مُوسَى.

فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ : مَا أَسْرَعَ مَا صَدَقْتَهُ ، أَمَا كُنْتَ لَمَّا أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِأَهْلٍ وَمَا أَنْتَ بِأَعْلَمِنَا ، فَقَالَ لَهُمْ : أَنْشَدَنِي بِالتَّوْرَاةِ ، وَلَوْلاَ خِشْيَةَ التَّوْرَاةِ أَنْ تُهْلِكَنِي لَمَا أَخْبَرْتُهُ ، وَخِفْتُ إِنْ كَذبْتُهُ أَنْ يَنْزِلَ بنَا عَذابٌ شَدِيدٌ.

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم برَجْمِ الْيَهُودِيَّين الزَّانِيَين ، وَقَالَ : " أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحيْي سُنَّةً إِذا أَمَاتُوهَا " ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ } فَلاَ يُخْبِرُكُمْ بِهِ.

فَقَالَ ابْنُ صُوريَّا : أَنْشِدُكَ باللهِ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تُخبرَنَا بِالْكَثِيرِ الّذِي أَمِرْتَ أَنْ تَعْفُو عَنْهُ ، فَأَعْرَضَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ ابْنُ صُوريَّا : أَخْبِرْنَا عَنْ ثَلاَثِ خِصَالٍ ، قَالَ : " مَا هُنَّ ؟ " قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ نَوْمِكَ ؟ قَالَ : " تَنَامُ عَيْنَايَ وَقَلْبِي يَقْظَانٌ " ، قَالَ : صَدَقْتَ.

قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ شَبَهِ الْوَلَدِ بأَبِيهِ لَيْسَ فِيْهِ مِنْ شَبَهِ أُمِّهِ شَيْءٌ ، وَعَنْ شَبَهِ أُمِّهِ لَيْسَ فِيْهِ مِنْ شَبَهِ أَبِيهِ شَيْءٌ ، قَالَ : " أَيُّهُمَا عَلاَ وَسَبَقَ مَاؤُهُ مَاءَ صَاحِبِهِ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ " ، قَالَ : صَدَقْتَ.

فَأَسْلَمَ ابْنُ صُوريَّا حِينَئِذٍ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَأْتِيكَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ بِالْوَحْيِ ؟ قَالَ : " جِبْرِيْلُ " قَالَ : صِفْهُ لِي ، قَالَ : فَوَصَفَهُ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّهُ فِي التَّوْرَاةِ كَمَا قُلْتَ ، وَإِنَّكَ رَسُولُ اللهِ ، فَلَمَّا أَسْلَمَ ابْنُ صُوريَّا شَتَمُوهُ ".

(٠/٠)

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ } ؛ أَوَّلُ هذه الآيةِ راجعٌ إلى صفةِ اليهود والمنافقين الذين سبقَ ذِكرُهم ، والفائدةُ في إعادةِ وَصفِهم بسمَّاعِين للكذب : بيانُ أنَّهم إنما يستحقُّوا الخزيَ بإصرارهم على الكذب واستماعهِ ، وضمِّهم إلى ذلك السُّحْتَ.

واختلَفُوا في المرادِ بالسُّحْتِ ، فقال ابنُ مسعودٍ والحسنُ : (أَرَادَ بِهِ الرِّشْوَةَ عَلَى الْحُكْمِ) وقال عليٌّ وأبو هريرةَ : (هُوَ الرِّشْوَةُ عَلَى الْحُكْمِ ؛ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ ؛ وَعَسْبُ التَّيْسِ ؛ وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ ؛ وَثَمَنُ الْخَمْرِ).

والسُّحْتُ : اسمٌ لما لا يَحِلُّ أخذهُ ، وأصلُ السُّحتِ من الهلاكِ ، يقال : سَحَتَهُ وَأَسْحَتَهُ ؛ إذا اسْتَأْصَلَهُ ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ }[طه : ٦١] أي يُهْلِكَكُمْ ، وسُمِّيَ الحرامُ سُحتاً ؛ لأنه يؤدِّي إلى الهلاكِ والاستئصالِ.

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : "كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ " قِيلَ : مَا السُّحْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ " وعن مسروقٍ عن ابن مسعودٍ قال : ((الرِّشْوَةُ سُحْتٌ ، قُلْتُ لَهُ : فِي الْحُكْمِ ؟ قَالَ : لاَ ؛ ذاكَ الْكُفْرُ ؛ ثُمَّ قَرَأَ { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة : ٤٤]. وأرادَ بهذا استحلالَ الرِّشوة وجَحْدَ الحقِّ.

والرشوةُ تنقسمُ على وجوهٍ ؛ منها : الرشوةُ على الحكمِ ، وذلك حرامٌ على الرَّاشِي والمرتَشِي ؛ لأنه لا يخلُو إمَّا ليحكمَ له الحاكمُ بحقِّه ، فيكون المرتشِي آخِذاً للأُجرةِ على أداءِ ما هو فرضٌ عليه ، ويكون الرَّاشي مُحَاكِماً إلى مَن لا يصلحُ للحكمِ ولا ينفذُ حُكمه ، وإما أنْ يرشِي فيقضِي له بما ليس له بحقٍّ ، فيكون الإثمُ أعظمَ ويفسق الحاكمُ من وجهين ، وكذلك المرتشي ، والرَّائِشُ : أرادَ بالرائش الذي يمشِي بينهما.

ومنها : الرشوةُ في غيرِ الحكم ، كما رُوي عن وهب بن منبه : (أَنَّهُ قِيْلَ لَهُ الرِّشْوَةُ حَرَامٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : إنَّمَا نَكْرَهُ أنْ تَرْشِي لِتُعْطَى مَا لَيْسَ لَكَ ، أوْ تَدْفَعَ حَقّاً لَزِمَكَ ، فَأَمَّا أنْ تَرْشِي لِتَدْفَعَ عَنْ دِينِكَ وَدَمِكَ وَمَالِكَ ، فَلَيْسَ بَحَرامٍ ، وَإنَّمَا الإثْمُ عَلَى الْقَابِضِ).

قرأ عاصمُ ونافع وحمزة وابن عامر : (للسُّحْتِ) بضم السين وجزمِ الحاء ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي بضمِّهما جميعاً ، وقرأ أبو العبَّاس : (للسَّحْتِ) بفتح السِّين وجزم الحاء ، وقرأ عُبيد بن عمر : (للسِّحْتِ) بكسر السين وجزم الحاء ، وكلُّه بمعنى واحدٍ وهو الحرامُ.

وَقِيْلَ : يقال رجلٌ مَسْحُوتُ المعِدَةِ ؛ إذا كَانَ أكُولاً لاَ يُلْفَى أبَداً إلاَّ جَائِعاً ، قِيْلَ : نزَلت هذه الآيةُ في حكَّام اليهودِ كعب بن الأشرفِ وأمثالهِ ، كانوا يرتَشُون ويقضُون لمن رشَاهُم. وعن الحسنِ في قوله : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) قال : (ذلِكَ الْحُكَّامُ ؛ يَسْمَعُ كَذِبَهُ وَيَأْخُذُ رِشْوَتَهُ ، فَيَكُونُ الْحَاكِمُ قَدْ سَمِعَ الدَعْوَةَ الْكَاذِبَةَ وَيَأْكُلُ رِشْوَتَهُ).

ورُوي : أنَّ مسروقاً شَفَعَ لرجُلٍ في حاجةٍ ، فأهدَى له جاريةً ، فغضِبَ غَضباً شديداً وقال : لَوْ عَلِمْتُ أنَّكَ تَفْعَلُ هَذا مَا تَكَلَّمْتُ فِي حَاجَتِكَ وَلاَ أتَكَلَّمُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ حَاجَتِكَ ، سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : يَقُولُ : ((مَنْ شَفَعَ فِي حَاجَةٍ لِيَرُدَّ بِهَا حَقّاً أوْ يَدْفَعَ بِهَا ظُلْماً فَأُهْدِيَ إلَيْهِ شَيْءٌ فَهُوَ سُحْتٌ) ، فَقِيلَ لَهُ : يَا أبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ مَا كُنَّا نَرَى ذلِكَ إلاَّ أخْذ رِشْوَةٍ عَلَى الحُكْمِ ؟ فَقَالَ : (الأَخْذُ عَلَى الْحُكْمِ كُفْرٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ } ؛ أي كيف يرضَون بحُكمِكَ وعندهم التوراةُ فيها حكمُ الرجمِ والقصاصِ وغير ذلك { ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ } ، يعرِضون عن العملِ بها ، { مِن بَعْدِ ذلِكَ } ؛ من بعدِ البيان الذي في كتابهم ، { وَمَآ أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } ؛ ليسوا بمصدِّقين بما عندَهم ، يزعُمون أنَّهم مؤمنون بالتوراةِ وهم كاذِبون. وفي هذه الآية بيانٌ على أنَّ هؤلاء اليهود كانوا لا يحكِّمون النبيَّ صلى الله عليه وسلم بحكم رضًى وانقيادٍ ، ولولا طلبُهم الترخُّص واتِّباع ما لا يُغني في كتابهم لما جَاءوه.

(٠/٠)

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ } ؛ أي إنَّا أنزَلنا التوراةَ على موسى فيها بيانٌ من الضَّلالة ونُورٌ لمن آمَنَ به ، يقضي بها النبيُّون الذين أخلَصُوا ، وهذه صفةُ الأنبياءِ ؛ لا أن فيهم مَن لم يخلِصْ ، كما يقال : صلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلهِ الطيّبين ، لا يرادُ بذلك أنَّ في أهلهِ غيرَ طيِّب.

والمرادُ بالنبيِّين مُوسَى وعيسى ومُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وغيرُهم من الذين كانوا من وقتِ موسى إلى وقت نبيِّنا عليهم السَّلامُ. ويقال أرادَ بالنَّبيِّين مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم فإنه كان كالنائب عن أنبياء بني إسرائيلَ في أنْ يحكُمَ في الزِّنا بينهم بحُكمِ التوراةِ.

وَقِيْلَ : معنى { الَّذِينَ أَسْلَمُواْ } أي انقَادُوا لأحكامِ الله لا على أنَّ غيرَهم من النبيِّين لم يكونوا مُسلمين.

وَقِيْلَ : معنى (أسْلَمُوا) أي صَارُوا إلى السَّلامةِ ، كما يقال : أصْبَحُوا وَأمْسَوا : وادَّخَلُوا في الصَّباح والمساءِ. وَقِيْلَ : معناهُ : الَّذِين أسْلَمُوا أنفُسَهم إلى اللهِ. "كما رُوي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقولُ إذا آوَى إلَى فِرَاشِهِ : " أسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ " قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ { لِلَّذِينَ هَادُواْ } يعني لليهودِ ، وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : للذين تَابُوا من الكفرِ ، كما في قوله تعالى : { وَإِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ }[الأعراف : ١٥٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالرَّبَّانِيُّونَ } ؛ هم العُلماء العامِلون ، يَرُبُّونَ العلمَ ؛ أي يقُومون به ، { وَالأَحْبَارُ } ؛ سائرُ العلماء دون الأنبياءِ والربَّانيِّين ، وإنما سُمي العالِمُ حَبراً لكثرةِ ما يكتبُ بالحبرِ ، ويقال : هو مِن التحبيرِ وهو تحسينُ العلمِ ، وتقبيحُ الجهلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ } ؛ من الرَّجمِ وسائر الأحكامِ ، { وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ } ؛ إنه كذلك ، ومعنى (اسْتُحْفِظُوا) : استَودَعُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } ؛ خطابٌ لعلماء اليهودِ ؛ أي لا تخشَوُا السَّفلةَ والْجُهَّالَ في إظهار نعت النبيِّ صلى الله عليه وسلم وآيةِ الرَّجم ، واخشَوا عِقَابي في كتمانِها ، { وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً } ؛ أي لا تختَارُوا عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا ، فإن الدُّنيا ما فيها قليلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ } ؛ ذهبَ الخوارجُ إلى أنَّ معنى الآيةِ : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا نَزَّلَ اللهُ وَحَكَمَ بخِلاَفِهِ كَانَ كَافِراً بفِعْلِ ذلِكَ ، اعْتِقَاداً كَانَ أوْ غَيْرَ ذلِكَ) ، وَكَفَّرُوا بذلك كلَّ مَن عصَى اللهَ تعالى بكبيرةٍ أو صغيرة ، وأدَّاهم ذلك إلى الضَّلال والكُفرِ تكفيرِهم الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم بصغائرِ ذُنوبهم!

وأما عامَّةُ أهلِ الإسلام قالوا : إن المرادَ بهذه الآية : أنَّ مَنْ جَحَدَ شيئاً مما أنزلَ اللهُ مثلَ ما فعلَهُ اليهودُ من التحريفِ والتبديل وإنكار بعض آياتِ الله تعالى ، { فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة بمنزلةِ الكافر بالكُتب وبالرُّسل كلِّها.

يدلُّ على هذا أنه لا خلافَ أنَّ مَن لم يَقْضِ بينهم بما نزَّلَ اللهُ لا يكفرُ بأنْ لم يحكُمْ ؛ لأنَّ أكثرَ الناس بهذه الصِّفةِ ، والحاكمُ بين الناس في كثيرِ حالاته لا يحكمُ ، فإذا صَلُحَ الخوارجُ أن يَزِيدُوا في ظاهرِ اللفظ فيقولوا معناهُ : (مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا نَزَّلَ اللهُ وَحَكَمَ بِخِلاَفِهِ) صَلُحَ لغيرِهم أن يقولوا معناهُ : ومَن لم يحكُمْ بصحَّة ما نزَّلَ اللهُ { فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } ، وهذا عامٌّ في اليهودِ وغيرهم.

(٠/٠)

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْجِرَاحَاتِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ ، كَانَ لِبَنِي النَّضِيرِ مَقْتَلٌ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَالدِّيَةُ وَالدَّمُ ضِعْفُ مَا كَانَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ) فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها : وأوحَينا على بني إسرائيلَ في التَّوراة : { أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } يعني أن نفسَ القاتلِ بنفسِ المقتول وَفاءً ، { وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ } بفَقْئِهِمَا ، { وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ } يُجدع بهِ ، { وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ } يُقطَعُ به { وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ } يُقلَعُ بهِ ، وخفَّفَ نافعُ الأُذُنَ في جميعِ القرآن ، وثقَّلَهُ غيرهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ } ؛ أي يجزئُ فيها القصاصُ ، والقِصَاصُ : عبارةٌ عن الْمُسَاوَاةِ ، وهذا مخصوصٌ فيما يُمكن القِصَاصُ فيه ، فأمَّا ما كان من رضَّةٍ أو هَشْمَةٍ لعظمٍ ، وهذه ركنٌ لا يحيطُ العلمُ به ، ففيه أرْشٌ أو حكومةٌ.

قرأ الكسائيُّ : (وَالْعَيْنُ) رَفعاً إلى آخرهِ ، وكذلك قولهُ (وَالْجُرُوحُ) رفعَهُ ابنُ كثير وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ ، ونصَبُوا سائرَ الحروفِ قبلَهُ ، قالوا : لأَنَّ لَهَا نَظَائِرَ فِي الْقُرْآنِ ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ }[التوبة : ٣] و{ إِنَّ الأَرْضَ للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }[الأعراف : ١٢٨] و{ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ }[الجاثية : ٣٢]. وقرأ نافعُ وعاصم وحمزة وخلفُ كلها بالنصب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي مَن عفَا عن مَظْلَمَةٍ في الدُّنيا ، فهو كفَّارةٌ للجراحِ لا يؤاخَذُ به في الآخرة ، كما أنَّ القصاصَ كفَّارةٌ له ، وأما أجرُ العَافِي فعلى اللهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ }[الشورى : ٤٠] وهذا قولُ إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم ، وروايةٌ عن ابنِ عباس.

وَقِيْلَ : معناهُ : فهو كفَّارة للمجروحِ ووليِّ القتيلِ ، وهو قولُ ابنِ عمرَ والحسن والشعبي وقتادة وجابر بن زيد. ودليلُ هذا قولهُ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَصَدَّقَ مِنْ جَسَدِهِ بشَيْءٍ كَفَّرَ اللهُ بقَدْرِهِ مِنْ ذُنُوبِهِ " فمَن عفا كان عفوهُ كفارةً لذُنوبِه يعفو عنه الله ما أسلفَ من ذُنوبه ، وأما الكافرُ إذا عفَا لا يكون عفوهُ كفارةً له مع إقامتهِ على الكفر. وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أُصِيبَ بشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ للهِ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ "

ورُوي : أنَّ رجلاً طَعَنَ رَجُلاً على عهدِ معاويةَ رضي الله عنه ؛ فأعطَوهُ دِيَتَيْنِ على أن يرضَى ، فلم يَرْضَ ، فحدَّث رجُلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ تَصَدَّقَ بدَمٍ فَمَا دُونَهُ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إلَى يَوْمِ تَصَدَّقَ بهِ " فَتَصَدَّقَ بهِ. وقال صلى الله عليه وسلم :

(٠/٠)

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوْرَاةِ } ؛ الآيةُ أي اتَّبعنا النبيين الذين ذكرنَاهم بعيسى عليه السلام وجعلناهُ ممن يَقْفُوهُمْ ، يقال : قَفَوْتُ أثَرَ فُلانٍ ؛ إذا اتَّبَعْتُهُ. وحقيقةُ التَّقْفِيَةِ : الإتيانُ بالشيءِ في قَفَا غيرهِ.

قولهُ : { مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } نُصِبَ على الحالِ من عيسَى ، كان مصدِّقاً بالكتاب الذي أنزِلَ قبله وهو التوراةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ أي أعطيناه الإنجيلَ فيه هدى من الضلالة ، وبيان الأحكام ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً } نعتُ الإنجيل الذي أعطيناهُ ذلك كتاباً ، أو ومُوافقاً لما تَقدَّمَهُ ، { مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى } ؛ أي بَياناً لنعتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وصفته ، { وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } ؛ أي نَهياً للذين يتَّقون الفواحشَ والكبائر.

(٠/٠)

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَ : { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ } ؛ أي وليَقْضِ أهلُ الإنجيلِ ، وهذا جزمٌ بالأمرِ ؛ أي قُلنا لَهم : احكُموا بما أنزلَ الله في الإنجيل. قال الكلبيُّ : (بَيَّنَ اللهُ حُكْمَ الرَّجْمِ عَلَى الزَّانِي الْمُحْصِنِ ، وحُكْمَ الْقِصَاصِ فِي النَّفْسِ وَالأَطْرَافِ ، وحُكْمَ الْقَطْعِ عَلَى السَّارِقِ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وفِيمَا أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْكُتُب يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً).
قرأ الأعمش وحمزةُ : (وَلِيَحْكُمَ) بكسر اللام وفتحِ الميمِ ؛ أي آتيناهُ الإنجيلَ لكي يحكُمَ ، وقرأ الباقون بجزمِ اللام والميم. قال مقاتلُ : (أَمَرَ اللهُ الرَّبَّانِيِّينَ أَنْ يَحْكُمُوا بمَا فِي التَّوْرَاةِ ، وَأَمَرَ الْقِسِّيسِينَ وَالرُهْبَانَ أَنْ يَحْكُمُوا بمَا فِي الإِنْجِيلِ ، فَكَفَرُواْ وَكَذبُوا مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ؛ وَقَالُواْ : الْعُزَيْرُ ابْنُ اللهِ ، وَقَالُواْ : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } ؛ أي مَن لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ في كُتبِهِ على رُسله ، فأُولئِكَ همُ الخارجون عن أمرِ الله.

(٠/٠)

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ } ؛ أي وأنزلنا إليكَ يا مُحَمَّدُ القرآنَ بالصِّدق ، ومُوافقاً لِمَا تقدَّم من الكُتب في التوحيدِ ، وبيانِ الحقِّ من الباطلِ ، { وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } ؛ أي أميناً ومُؤتَمناً على ما قبلهِ من الكتب. ويقال : شَاهداً على الكُتب كلِّها ، وهذا وصفٌ خاصٌّ للقرآن دون ما سواهُ.

وأصلُ مُهَيْمِنٍ : مُؤْتَمَنٍ ، على وزن مُفَيْعِلٍ من الأمانةِ ، إلاّ أن الهاءَ أبدلت من الهمزةِ كما قالوا : أرَقْتُ الماءَ وهرَقْتُ الماءَ ، وأنَاكَ وَهُنَاكَ ، وهَيْهَاتَ وأيْهَاتَ ، ونظيرُ المهيمنِ : مُسَيطِرٌ. قال الشعبيُّ والكسائي ورواية الكلبي عن ابنِ عباس معنى قوله { وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } أي شَاهداً ، قال الشاعرُ : إنَّ الْكِتَابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبيِّنَا وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذوُو الأَلْبَابأي شَاهداً. وقال ابنُ جبير وأبو عبيد والحسن : (أمِيناً) ، وهي روايةُ العوفي عن ابنِ عباس. وأمانةُ القرآن أنه أمينٌ على ما قبلَهُ من الكتب وهي فيما أخبرَ به أهل الكتاب في كُتبهم ، فإنْ كان ذَلك في القرآنِ فصَدَّقوا وإلاّ كَذبوا. وقال الضحاكُ : (مُهَيْمِناً ؛ أيْ قَاضِياً). وقال عكرمةُ : (دَالاً). وقال ابنُ زيدٍ : (مُصَدِّقاً). وقال الخليلُ : (رَقِيباً وَحَافِظاً).

ويقالُ : هَيْمَنَ فلانٌ على كذا إذا شاهدَهُ وحَفِظَهُ. تقولُ العرب للطائرِ إذا طارَ ، وحوَّلَ وَكْرَهُ ، ورفرفَ على فَرْخِهِ صيانةً له : هَيْمَنَ الطَّيرُ يهَيْمِنُ ، وكذلك يقالُ للطائرِ إذا أرخَى جناحَيهِ يسَعُهما بيضُهُ وفرخُهُ ورفرفَ على فرخهِ صيانةً له. ومنه قيلَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ : الْمُهَيْمِنُ ، أي الرقيبُ الرحيمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ } ؛ أي فاحكم في الزانِي والزانية بالرَّجم ، ويقال : احكُمْ بين بني قُريظة وبني النضير في الجراحاتِ التي بينهم في التَّسوية بين الفريقين ، { وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ أي لا تتَّبع مرادَهم ، { عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } ؛ أي جعلنا لكلِّ نبيٍّ منكم يا معشرَ الأنبياءِ فرائضَ وسُنناً ، والشِّرْعَةُ والشَّرِيعَةُ : هو التخلُّص إلى الجنَّة كشريعةِ الأنْهَار والحياضِ في الدُّنيا ، وهو التخلُّص إلى الشرب والاستقامة ، وأصلُ الشِّرْعَةِ من قولهم : شَرَعَ فلانٌ يَشْرَعُ شُروعاً إذا دخلَ في الأمرِ دخولاً ظاهراً ، ويقالُ : الشِّرْعَةُ والمنهاجُ كِلاَهُمَا الطريقُ ، والطريقُ ها هنا الدِّينُ ، وقد يعبَّرُ عن الشيءِ الواحد بلَفظَين مختلفين تأكيداً للكلامِ.

وقال المبرِّدُ : (الشِّرْعَةُ : ابْتِدَاءُ الطَّرِيقِ ، وَالْمِنْهَاجُ : الطَّرِيقُ الْمُسْتَمِرُّ). ويقالُ : عنى المنهاجِ : الدلائلُ الواضحة التي يستدلُّ بها على الفرائضِ من كتابٍ وسُنَّة ، وَقِيْلَ : معناهُ : لكلٍّ جَعلنا منكم سَبيلاً وسُنَّة. والمنهاجُ : الطريقُ الْمُبينُ الواضحُ.

قال المفسِّرون : عنَى بذلك جميعَ أهلِ الْمِلَلِ المختلفةِ ، جعلَ الله لكل ملَّةٍ شِرعَةً ومنهاجاً ، فلأَهْلِ التوراةِ شريعةٌ ، ولأهلِ الإنجيل شريعةٌ ، ولأهلِ القرآن شريعةٌ ، يُحِلُّ فيها ما شاءَ ويحرِّمُ فيها ما شاءَ ، فالدِّينُ واحدٌ والشريعةُ مختلفة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } ؛ أي لجعلَكم على أمرٍ واحد في دعوةِ جميع

الأنبياء ، { وَلَاكِن لِّيَبْلُوَكُمْ } ؛ أي ولكن ليختبرَكم ، { فِي مَآ آتَاكُم } ؛ فيما أعطَاكُم من الكتب ، وفيما أمرَكم من السُّنن والشرائعِ المختلفة ، فيتبيَّنُ من يطيعُ اللهَ ومن يعصيه.

(٠/٠)

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ } ؛ معناه : أنزَلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ ، وبأن تحكُمَ بين اليهودِ بما أنزلَ اللهُ من رجمِ الزانِي المحصِن ، والقِصاصِ بين الشَّريف والوضيعِ ، ولا تعمَلْ بهواهُم في الْجَلْدِ ، وتركِ الرَّجمِ ، { وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ } ؛ أي أن يَستَزِلُّوكَ عن بعضِ ما بيَّن اللهُ في كتابِه.
قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ يَهُودَ بَنِي النَّضِير مِثْلَ ابْنِ صُوريَّا وَكَعْب بْنِ أسَدٍ وَغَيْرِهِمْ ، قَالُوا فِيْمَا بَيْنِهِمْ : اذْهَبُوا بنَا إلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ ، فَإنَّمَا هُوَ بَشَرٌ! فَأَتَوْهُ فَقَالُواْ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ إنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أنَّا أحْبَارُ الْيَهُودِ وَأشْرَافُهُمْ وَسَادَاتُهُمْ ، وَإنَّا إنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَكَ كُلُّهُمْ وَلَنْ يُخَالِفُونَا ، وَإنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةً فَنُحَاكِمُهُمْ إلَيْكَ فَاقْضِ لَنَا عَلَيْهِمْ فَنُؤْمِنُ بكَ ، فَأَبَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانَ حَرِيصاً عَلَى إسْلاَمِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ }.).
قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم } ؛ أي إنْ أعرَضُوا عن حُكمِكَ ، فاعلم إنَّما يريدُ اللهُ أنْ يُعَاقِبَهم بالقتلِ في بني قُرَيظَةَ ، وَبالْجَلاَءِ إلَى الشَّامِ فِي بَنِي النَّضِيرِ ، { بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } ؛ أي بمَا سلَفَ من ذُنوبهم ، وهو جُحودهم لدِينِكَ ونَعْتِكَ وصفتِكَ والتوراةِ والإنجيلِ ، { وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } ؛ أي خارجون عن الطاعةِ ناقِضُون للعهدِ.

(٠/٠)

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } ؛ قرأ ابنُ عامرٍ (تَبْغُونَ) بالتاء ، وقرأ الباقون بالياءِ. ومعنى الآية : تطلبُون من حُكم الزِّنا والقصاصِ ، وهم أهلُ الكتاب شيئاً فيما لم ينَزِّلهُ الله عليكم كما يفعلهُ

أهلُ الجاهلية ، وأيُّ أحدٍ أعدلُ في الحكمِ من الله تعالى. قولهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } ؛ أي مَن أيقَنَ بُيِّنَ له عدلُ اللهِ في حُكمهِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } ؛ وذلك : أنَّه لَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أحُدٍ خَافَ النَّاسُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ أنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ ، فَأَرَادَ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى صُحْبَةٌ أنْ يَتَوَلاَّهُمْ وَيُعَاقِدُوهُمْ ، فَنَهَاهُمْ اللهُ عَنْ ذلِكَ. ومعناهُ : يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى أحبَّاءَ في العونِ والنُّصرة ، بعضهم على دينِ بعض ، { وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } ؛ إذا تولاَّهُ لأجلِ كُفرهِ صارَ كافراً مثلَهُ ، وأمَّا إذا تولاَّهُ لا لأجلِ كُفرهِ صارَ مِن جُملة المستحقِّين العذابَ لمخالفةِ أمر الله ولِمُوالاَتِهِ مَن أوجبَ الله عليه أن يُعذِّبَهُ. وقال عكرمةُ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي لُبَابَةَ حِينَ قَالَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ رَضُوا بحُكْمِ سَعْدٍ : إنَّهُ الذبْحُ).
قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ أي لا يُرشِدُ اليهودَ والنصارى إلى دِينه ، وحُجَّتِهِ ما دامُوا على كُفرِهم.

(٠/٠)

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } ؛ وذلك أنَّ المنافقين كانوا يَوَدُّونَ يهودَ عُرَيْنَةَ ونصارى نَجران ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ ريْفٍ ، وكانوا يَمرُّون بهم فيُقرِضُونَهم ، فقال المنافِقون : كيف نقطعُ مَوَدَّة قومٍ إنْ أصابَتنا سيِّئةٌ ، واحتَجنا إليهم وسَّعُوا علينا في المنازِلِ ، وعرَضُوا علينا الثمارَ في القابلِ ، فنزل قولهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } أي ترَى يا مُحَمَّدُ الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق يُبادِرون إلى ولايةِ الكفَّار ومعاقدتِهم ، { يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا

دَآئِرَةٌ } ؛ شدَّةٌ وجُدُوبَةٌ.

ويقال : أرادَ بهذا القولِ أنَّهم يخشَون أن لا يَتِمَّ أمرُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بأن يدورَ الأمرُ على الحالةِ التي هم عليها فيحتاجون إلى الكفَّار. يقول اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ } ؛ أي عسَى أن يَظهَرَ المسلمون ، و { عَسَى } من اللهِ واجبةٌ. وسَمَّى النصرَ فتحاً ؛ لأن فيه الأمرِ المغلَقِ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ } ؛ معناه : أو يقضِي بالخصب لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه ، ويقال هو أن يُؤْمَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بإظهار أمر المنافقين وقَتلِهم ، { فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَآأَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } ؛ فيصبحَ المنافقون على ما أضمَرُوا في أنفُسِهم من ولايةِ رؤوس اليهود والنصارَى إليهم نَادِمين ، فلا تنفعُهم الندامةُ حينئذٍ.

(٠/٠)

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)

قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهُؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ } ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ : (وَيَقُولُ) بالواو والرفعِ على الاستئناف ، وقرأ أهلُ البصرةِ بالنصب والواو عطفٌ على (أنْ يَأْتِيَ) ، وقرأ الباقون برفعِ اللام وحذفِ الواو.

ومعنى الآية : يقولُ المؤمنون المخلِصون عندما أظْهَرَ اللهُ نفاقَ المنافقين : (أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ) يعنون المنافقين الذين حلَفُوا بالله أنَّهم لَمَعَكُمْ على دينِكم ، { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } ، بَطَلَ ما أظهروهُ من الإيمانِ والأعمال الصالحةِ, { فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ } ؛ فصاروا مَغبُونين في الوِزْر والعقوبةِ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } تفسيرٌ للقَسَمِ باللهِ تعالى ، فإنَّ مَن يحلفُ باللهِ فقد بذلَ جُهد يَمينِه ، إذ لا يمينَ أعظمُ من اليمينِ بالله ، ولا حرمةَ أكبرُ من حرمةِ الله. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه : (فَجَاءَ اللهُ بالْفَتْحِ وَنَصَرَ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم ، وجاءَ أمرُ الله من عنده بإجلاءِ بني النضيرِ ، وقتل مقاتِلة بني قُريظة وسَبي ذراريهم) ، فنَدِمَ المنافقون حين ظهرَ نفاقُهم ، وقال المؤمنون : { أَهُؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ }.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ } ؛ قرأ أهلُ المدينةِ والشام (يَرْتَدِدْ) بدالين ، وفي الآيةِ تهديدٌ لِمَن لا ثباتَ له على الإيمانِ. قال ابنُ عبَّاس : (هُمْ أَسَدُ وَغَطَفَانَ وَأَنَاسٌ مِنْ كِنْدَةَ ، ارْتَدُّواْ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فِي عَهْدِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنه).

وَكَانَ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ فِرْقَةٌ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو حَنِيْفَةَ بالْيَمَامَةِ ، وَرَئِيسُهُمْ مُسَيْلَمَةُ الْكَذابُ وَكَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ أَشْرِكَ مَعَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فِي النُّبُوَّةِ ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مِنْ مُسَيْلَمَةَ رَسُولِ اللهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ؛ أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الأَرْضَ نَصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لَكَ! وَبَعَثَ بذَلِكَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ نَهْشَلاً وَالْحَكَمَ بْنَ الطُّفَيْلِ ، وَكَانَا مِنْ سَادَاتِ الْيَمَامَةِ ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " أَتَشْهَدَانِ أَنَّ مُسَيْلَمَةَ رَسُولُ اللهِ ؟ " قَالاَ : نَعَمْ ، فَقَالَ : " لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا " ، ثُمَّ أَجَابَ : " مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى مُسَيْلَمَةَ الْكَذاب ؛ أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ".

ومَرِضَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وتوفِّيَ ، وجعلَ مسيلمةُ يغلو أمرهُ باليمامةِ يوماً بعدَ يومٍ ، فبعثَ أبو بكرٍ رضي الله عنه خالدَ بن الوليدِ في جيشٍ عظيم حتى أهلكَهُ الله على يدي وحشيٍّ قاتِلِ حمزةَ بن عبدِ المطلب بعد حربٍ شديدة ، فكان وحشيٌّ يقول : (قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ فِي الإِسْلاَمِ).

ومن المرتدِّين أيضاً طلحةُ بن خُوَيلِد رئيسُ بني أسدٍ ، وكان قد ادَّعى النبوةَ أيضاً في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتلَهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه بعد وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعثَ إليه خالدَ ابن الوليدِ ، فقاتلَهُ قتالاً شديداً ، وهربَ طلحةُ على وجههِ نحوَ الشامِ ، فلجأَ إلى بني حنيفةَ فأجاروهُ ، ثم أسلَمَ بعد ذلك وحسُنَ إسلامهُ.

وارتدَّ أيضاً بعد وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرٌ من العرب منهم : فَزَارَةُ ورئيسهم عُيينة بن حصين ، وبنو سُليم وبنو يربوعَ ، وطائفةٌ من بني تَميم ، ورأسُوا عليهم امرأةً يقال لها سَجَاحُ بنت المنذر ، وادَّعتِ النبوةَ ثم زوَّجت نفسَها من مسيلمةَ الكذاب.

وارتدَّت كندةُ ورئيسهم الأشعثُ بن قيسٍ ، وارتدَّت بنو بكرِ بن وائل بأرضِ البحرين ، وكَفى اللهُ المسلمين أمرَ هؤلاء المرتدِّين ، ونصرَ دينَهُ على يدِ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه ، وأخبارُ أهلِ الردَّة طويلةٌ مشهورة فلا نطوِّلُ بذكرِها الكتابَ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } ؛ قال عليٌّ والحسن وقتادة : (هُمْ أبُو بَكْرٍ وَأصْحَابُهُ) ، وقال مجاهدُ : (هُمْ أهْلُ الْيَمَنِ).

(٠/٠)

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مُسْلِمِي أهْلِ الْكِتَاب : " عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وأصْحَابِهِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، بُيُوتُنَا قَاصِيَةٌ ، وَلاَ نَجِدُ مُتَحَدِّثاً دُونَ هَذا الْمَسْجِدِ ، وَإِنَّ قَوْمَنَا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ لَمَّا رَأَوْنَا قَدْ آمَنَّا باللهِ وَرَسُولِهِ وَتَرَكْنَاهُمْ وَدِينَهُمْ ، أظْهَرُوا لَنَا الْعَدَاوَةَ ، وأَقْسَمُواْ أنْ لاَ يُنَاكِحُونَا وَلاَ يُوَاكِلُونَا وَلاَ يُخالِطُونَا ، وَلاَ نَسْتَطِيعُ أنْ نُجَالِسَ أصْحَابَكَ لِبُعْدِ الْمَوْضِعِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ يَشْكُونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالنَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ يُصَلُّونَ فِيْهِ مِنْ قَائِمٍ وَرَاكِعٍ وَسَاجِدٍ ، إذا بمسْكِينٍ يَطُوفُ يَسْأَلُ النَّاسَ ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَتَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : " أعْطَاكَ أحَدٌ شَيْئاً ؟ " قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : " مَاذا ؟ " قَالَ : خَاتَمُ فِضَّةٍ ، قَالَ : " مَنْ أعْطَاكَهُ ؟ " قَالَ : ذاكَ الرَّجُلُ ، فَإذا هُوَ عَلِيٌّ رضي الله عنه ، قَالَ : " عَلَى أيِّ حَالٍ أعْطَاكَهُ ؟ " قَالَ : أعْطَانِيَهُ وَهُوَ رَاكِعٌ ، فَقَرَأ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم هَذِهِ الآيَةَ عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأصْحَابِهِ ".

وألبَسَهُمْ بما أبدلَهم اللهُ به من ولايتهِ وولاية رسولهِ وولاية المؤمنين ، ومعنى الآيةِ : إنَّما حافِظُكم وناصرُكم اللهُ ورسوله والمؤمنون الذي يُقيمون الصلاةَ بحقوقها ويؤتُون الزكاةَ في حالِ رُكوعهم. وفي الآيةِ دليلٌ على إباحةِ العمل اليسيرِ في الصَّلاة ، فلما قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليهم الآية قالَ عبدُ الله بن سلام وأصحابه : (رَضِينَا باللهِ وَبرَسُولِهِ وَبالْمُؤْمِنِينَ أوْلِيَاءً).

" ورُوي أن عبدَالله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَان ذاتَ يومٍ جالساً عند شَفير زَمْزَمَ يقولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، إذا أقْبَلَ رَجُلٌ مُتَعَمِّمٌ بعِمَامَةٍ قَالَ : فَهَلاَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لاَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ألا قَالَ ذلِكَ الرَّجُلُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : سَأَلْتُكَ باللهِ مَنْ أنْتَ ؟ فَكَشَفَ الْعِمَامَةَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ : أيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ الْبَدْرِيُّ ، أنَا أبُو ذرٍّ الْغَفَّارِيُّ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بهَاتَيْنِ وَإلاَّ فَصُمَّتَا ، وَرَأيْتُهُ بهَاتَيْنِ وَإلاَّ فَعَمِيَتَا ، يَقُولُ عَلَى قَائِدِ الْبُرْدَةِ وَقَاتِلِ الْكَفَرَةِ : " مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذلَهُ ".

أمَا إنِّي صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْماً مِنَ الأيَّامِ صَلاَةَ الظُّهْرِ ، فَسَأَلَ سَائِلٌ فِي

الْمَسْجِدِ فَلَمْ يُعْطِهِ أحَدٌ ، فَرَفَعَ السَّائِلُ رَأسَهُ إلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ أنِّي سَأَلْتُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِكَ صلى الله عليه وسلم يَوْماً مِنَ الأيَّامِ فَلَمْ يُعْطِنِي أحَدٌ ، وَكَانَ عَلِيٌّ راكِعاً فَأَوْمَأَ إلَيْهِ نَحْوَهُ بِخِنْصَرِهِ الْيُمْنَى وَكَانَ فِيهَا خَاتَمٌ ، فَأَخَذ السَّائِلُ الْخَاتَمَ مِنْ خِنْصَرِهِ وَذَلِكَ بحَضْرَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلاَتِهِ رَفَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَأسَهُ إلَى السَّمَاءِ قَالَ :

(٠/٠)

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ أي من تخيَّر طاعةَ الله ورسوله ومحبَّة المؤمنين ، { فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ } ؛ فإن جُند اللهِ ، { هُمُ الْغَالِبُونَ }.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ } ؛ وذلك أنَّ اليهودَ كانوا إذا قامَ بلالٌ للأذان يضحكون ، ويستهزِئون ويقولون : قامَ الغرابُ لا قامَ! وإذا قامَ المؤمنون للصَّلاة قالوا : قد قامُوا لا قاموا! وإذا رأوهم رُكَّعاً وسُجَّداً استهزَأوا بهم ، وتغامَزُوا فيما بينهم تَنفيراً للناسِ عن الصَّلاة وعن الداعِي إليها.
ومعنى الآية : لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارى الذين يتخذون { دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً } أي استهزاءً وسُخريةً ، يسخَرون منكم إذا أذنَ مُؤذِّنُكم ، ويضحَكون من صلاتِكم إذا صلَّيتُم.
قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَالْكُفَّارَ } ؛ فيه قراءَتان : النصبُ والخفضُ ، فمَن نصبَهُ فمعناهُ : لا تتَّخذوا الكفارَ ، { أَوْلِيَآءَ } ، وأراد بهم مُشركي العرب ، ومن خفضَهُ فمعناهُ : مِن الذين أوتوا الكتابَ ومن الكفار. وقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي اخشَوهُ في ولايةِ الكافرين إنْ كُنتم مُؤمنين باللهِ وبرسوله.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً } ؛ أي إذا نادَيتم الناسَ إلى الصَّلاة بالأذانِ والإقامة اتَّخذوها سُخرِيَةً واستهزاءً وضَحِكاً وبَاطلاً ، وَ { ذلِكَ } ؛ الاستهزاءُ واللعب ، { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ } ؛ ثوابَ الله تعالى في إقامةِ الصَّلاة ، ولا عِقابَهُ في إضاعتهِ.

ورُوِي : ((أنَّ يَهودياً كان إذا سمعَ المؤذِّنَ يقولُ : (أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ) قالَ : أحرقَ اللهُ الكاذبَ ، فدخلَ خادمهُ البيتَ بنارٍ ، فوقعت شرارةٌ منها في البيتِ فالتهبَ ، واحترقَ اليهوديُّ هو وأهلهُ ، واستُجيب دعاؤهُ على نفسهِ)).

وفي الآيةِ دليلٌ أنَّ للصلاة أذاناً يدعو به الناسَ إليها ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ }[الجمعة : ٩]. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " ثَلاَثَةٌ لاَ يَكْتَرِثُونَ مِنَ الْحِسَاب ، وَلاَ تُفْزِعُهُمْ الصَّيْحَةُ ، وَلاَ يُحْزِنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ : حَامِلُ الْقُرْآنِ الْعَامِلُ بِهِ ، يَقْدُمُ عَلَى اللهِ سَيِّداً شَرِيفاً ، وَمُؤَذِّنٌ أذنَ سَبْعَ سِنِينَ لاَ يَأْخُذُ عَلَى أذانِهِ طَعَاماً ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِهِ وَأدَّى حَقَّ مَوْلاَهُ "

وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أذنَ سَنَةً مِنْ نِيَّةٍ صَادِقَةٍ ، أجْلِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَقِيلَ لَهُ : إشفَعْ لِمَنْ شِئْتَ " وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه : قالَ ابنُ عبَّاس : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أذنَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ " وقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " الْمُؤَذِّنُ الْمُحْتَسِبُ كَالشَّهِيدِ الْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِهِ مَا دَامَ فِي أذانِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ ، فَإذا مَاتَ لَمْ يُدَوِّدْ فِي قَبْرِهِ " قال عمرُ رضي الله عنه : لَوْ كُنْتُ مُؤَذِّناً لَكَمُلَ أمْرِي ، وَمَا بَالَيْتُ أنْ لاَ أتنصب لِقِيَامٍ وَلاَ لِصِيَامٍ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ "

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ : يا أهلَ الكتاب هل تطعَنون عَلينا إلاَّ لإيمانِنا باللهِ تعالى والقُرآن ، { وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ } ؛ أي إنَّما كَرِهتُم إيمانَنا وأنتم تعلمون أنَّنا على حقٍّ ؛ لأنَّكم فسَقتُم بأنْ أقَمتُم على دِينكم لمحبَّتكم الرئاسةَ وكسبكم بها الأموالَ ، فهل تَدرون شيئاً يُعاب علينا إلاَّ هذا ؟ فَلِمَاذا تطعَنون.

وأما قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ } ، قال بعضُهم : أرادَ بالأكثرِ كلَّهم ، وأكثرُ الشيءِ يقومُ مقامَ الكلِّ. وَقِيْلَ : إنما ذكرَ لفظ الأكثرِ ؛ لأن الآيةَ خرجت مخرجَ التلطُّف للدعاءِ إلى الإيمانِ ، وكان في سابقِ علم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ فيهم من يُسلِمُ ، وكان في القومِ من يطعنُ بنفسهِ في دين الإسلام ، وإنْ كان سكتَ عن طعنِ الطاعنين.

(٠/٠)

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ } ؛ وذلك أنَّ اليهودَ قالوا للمُسلمين : ما نعلمُ أهلَ دينٍ أقلَّ حظاً منكم في الدُّنيا ، ونرجو أنْ تَكونُوا في الآخرةِ! فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لهؤلاء اليهودِ : هل أخبرُكم بسوءٍ مِن الذي قُلتم جزاءً ، { مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ } ؛ أي أبعدَهُ عن رَحمتهِ ، وسَخِطَ عليه وهم اليهودُ ، فيكون موضعُ { مَن لَّعَنَهُ } رَفعاً على معنى (هُوَ) ويجوز أن يكون خَفضاً بَدلاً من (شَرٍّ) على معنى : هل أنَبِّئُكُم بمَن لعنَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ } ؛ أي مَسَخَ بعضَهم قردةً في زمنِ داوُدَ عليه السلام بدُعائه عليهم حين اعتَدَوا في السَّبت واستحلُّوهُ ، ومسخَ بعضَهم خنازيرَ في زمنِ عيسى عليه السلام بعدَ أكلِهم من المائدة حين كفَرُوا بعدَ ما رأوا الآياتِ البيِّنة. ورُوي : أنه لَمَّا نزَلت هذه الآيةُ قال المسلمون لليهودِ : (يَا إِخْوَةَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ) فنَكَّسُوا رؤُوسَهم وفضَحَهم اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ } ؛ فيهِ عشرُ قراءاتٍ ، قرأ العامة (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) بفتحِ العين والباءِ والدالِ على الفعلِ ؛ ومعناها : وجعَلَ منهم مَن عَبَدَ الطاغوتَ ؛ أي بالغَ في طاعةِ الشَّيطان والكُهَّان ورؤساءِ المعصية. وقرأ ابنُ مسعود : (وَعَبَدُوا الطَّاغوتَ) أي ومَن عَبَدَ الطاغوتَ ، وقرأ يحيى بن وثَّاب وحمزةُ : بفتحِ العين وضمِّ الباء وكسر التاء من الطاغوتِ ، وهو لغةٌ في عبَدَ ، مثل سَبْع وَسَبُع. وقرأ أبو جعفرٍ الفرَّاء : (وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ) على الفعلِ المجهول ، وقرأ الحسنُ : (وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ) على

الواحدِ.
وقرأ يزيدُ الأسلمي : (وَعَابدَ الطَّاغُوتِ) بالأف ، وقرأ ابنُ عباس : (وَعَبيدَ الطَّاغُوتِ) بالجمعِ ، وقرأ أبو واقدٍ الليثيِّ : (وَعُبَّادَ الطَّاغُوتِ) مثل كُفَّار ، وقرأ عَوْنُ العقيلي وإبَانُ بن ثعلبٍ : (وَعُبَّدَ الطَّاغُوتِ) مثل رَاكِعْ ورُكَّع ، وقرأ عبيدُ بن عمير : (أعْبَدَ الطَّاغُوتِ) مثل كلب وأكلَبٍ ، وقرأ الأعمشُ : (وَعُبُدَ الطَّاغُوتِ) بضمِّ العين والباء وكسرِ التاء من الطاغوتِ. قال الشاعرُ : انْسُبِ الْعَبْدَ إلَى آبَائِهِ أسْوَدُ الْجِلْدِ مِنْ قَوْمٍ عُبُدْقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ } فإن قِيْلَ : كيف معنى هذا ليس في الإيمانِ شرٌّ وضلالٌ ؟ قِيْلَ : سِمَةُ المشركين شرٌّ مَكاناً لا يوجبُ أن يكون في الإيمانِ شرٌّ وتطيُّر. قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً }[الفرقان : ٢٤] ومعلومٌ أنه لا خيرَ في مستقرِّ الكُفَّار ومُنقَلَبهم ، فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قال المسلمون ليَهُودَ : (يَا إخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ) فَسَكَتُوا وأفحِمُوا ، وفيهم يقولُ الشاعرُ : فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ إنَّ الْيَهُودَ إخْوَةُ الْقُرُودِ

(٠/٠)

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ } ؛ ومعناهُ : وإذا جاءَكم المنافقون من أهلِ الكتاب قالوا آمَنَّا بكَ ، ونحن نعرفُ نَعْتَكَ وصِفتَكَ ، يقولُ الله : وقد دخَلُوا بالكفرِ وهم قد خرَجُوا به ؛ اي دخَلُوا عليكم ، وخرجوا من عندِكم كافرين في السرِّ كما دخَلُوا خرجوا ، وقوله : (وَهُمْ) للصِّلة والتأكيدِ ؛ { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ } ؛ أي بما كانوا يُضمِرون في قلوبهم من الكُفرِ والنفاقِ ، فأعلمَكم به وأطلعَكم عليه.

(٠/٠)

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } ؛ أي وترَى يا مُحَمَّدُ كَثيراً من اليهودِ والمنافقين يُبادرون في المعصيةِ والاعتداء والظُّلم ، { وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ } ؛ وأكلِ الرِّشوَةِ والحرامِ في تغيير الأحكامِ ، { لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ من المعصيةِ ومجاوزة الحدِّ.

(٠/٠)

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } ؛ معناهُ : هل ينهاهم العامِلون بالعلمِ والعُلماء الذين هم دونَهم عن قولِ الشِّرك والكذب على الله ، وأكل الحرامِ والرِّشوة في الحكمِ. قال الحسن : (الرَّبَّانِيُّونَ عُلَمَاءُ النَّصَارَى ، وَالأَحْبَارُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ). وَيُقَالُ : هُوَ كُلُّهُ فِي الْيَهُودِ ، وقرأ أبو واقدٍ الليثي : (لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرِّبِّيُّونَ) كقوله تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ }[آل عمران : ١٤٦].
وقولهُ : { لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } أي بئسَ ما يصنعُ علماؤهم من كتمانِهم الحقَّ ، وتركِهم النهيَ عن المعصيةِ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والضحاك : (إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ أَشَدُّ الآيَاتِ فِي تَخْوِيفِ مَنْ تَرَكَ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ، قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ رَجُلٍ يُجَاوِرُ قَوْماً فَيَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، فَلاَ يَأْخُذُونَ عَلَى يَدَيْهِ ، إِلاَّ أَوْشَكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعُمُّهُمْ مِنْهُ بِعِقَابٍ "

(٠/٠)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي فِنْحَاصَ بْنِ عَازُورَاءَ الْيَهُودِيِّ وَأَصْحَابِهِ ، كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ بَسَطَ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ ، فَكَانَ مِنْ أَخْصَبِ النَّاسِ ، وأَكْثَرِهِمْ خَيْراً وَأَمْوَالاً ، فَلَمَّا عَصَوا اللهَ تَعَالَى فِي مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَبَالَغُوا فِي تَكْذِيبِهِ ، كَفَّ اللهُ عَنْهُمْ بَعْضَ الَّذِي كَانَ بَسَطَ عَلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذلِكَ قَالُوا : يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ). أي قالُوا على سبيل الْهُزْءِ : إنَّ إلهَ مُحَمَّدٍ الذي أرسلَهُ ممسكةٌ يده عنانَ الرزقِ لا يبسطُ علينا كما كان يبسطُ. وهذا اللفظُ في كلامِ العرب عبارةٌ عن البخلِ ، كما قال تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ }[الإسراء : ٢٩] أي لا تمسكها عن الإنفاقِ.

قال بعضُهم : إنما قالَ هذه المقالةَ فِنْحَاصُ ولم ينهَهُ الآخرون ، ورَضُوا بقولهِ فأشرَكهم اللهُ فيها ، وأرادوا باليدِ العطاءَ ، لأن عطاءَ الناسِ وبذلَهم في الغالب بأيديهم ، فاستعملَ الناسُ اليدَ في وصفِ الناسِ بالجودِ والبُخل. ويقالُ للبخيلِ : جَعْدُ الأَنَامِلِ ؛ مقبوضُ الكفِّ ؛ مكفوفُ الأصابعِ ؛ مغلولُ اليدَين ، قال الشاعرُ : كَانَتْ خُرَاسَانُ أَرْضاً إذ يَزِيدُ بهَا وَكُلُّ بَابٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ مَفْتُوحُفَاسْتُبْدِلَتْ بَعْدَهُ جَعْداً أَنَامِلهُ كَأَنَّمَا وَجْهُهُ بالْخَلِّ مَنْضُوحُوقولهُ تعالى : { غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ } جوابٌ عن كلامِهم على طريقِ المقابلَة في الازدواجِ ؛ أي أمسِكَتْ أيديهم عن الإنفاقِ في الخيرِ ، وجُعِلُوا بُخلاءَ واليهودُ أبْخَلُ الناسِ ، ولا أمَّةٌ أبخلُ منهم. ويقال : معنى (غُلَّتْ أيْدِيهِمْ) أي غُلَّت إلى أعناقِهم في نار جهنم ، ويقال : لا يخرجُ يهوديٌّ من الدنيا إلاّ وتصيرُ يدهُ مغلولةً إلى عنقه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ } أي عُذِّبوا بالجزيةِ ، وطُردوا عن رحمةِ الله تعالى لقولهم : { يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } ؛ عبارةٌ عن الجودِ وكثرة العطيَّة لِمَن يشاءُ ، كما يقالُ : فلان بَسْطُ اليدَين ، وبَاسِطُ اليدين إذا كان جَواداً يعطي يَمنَةً ويَسرَةً ، وعن ابنِ عباس : (أنَّ مَعْنَاهُ : بَلْ نِعْمَتَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) ، وأرادَ نعمةَ الدينِ والدنيا ، وَقِيْلَ : نعمتهُ الظاهرةُ ونعمته الباطنة. وَقِيْلَ : أراد بالتثنيةِ في هذا للمبالغةِ في صفة النعمةِ. قال الأعشى : يَدَاكَ يَدَا مَجْدٍ فَكَفٌّ مُفِيدَةٌ وَكَفٌّ إذا مَا ضَنَّ بالْمَالِ تُنْفِقُوهذا كلُّه لأنَّ اليهود قصَدُوا تبخيلَ اللهِ ، فحوسِبُوا على قدر كلامهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ } ؛ دليلٌ على أن المرادَ بجواب اليهود بيانُ بسطِ النعمة ، وأنَّ اللهَ يرزقُ كيف يشاءُ بحسب المصالحِ ، فربَّما كان الصلاحُ في أن يعتَبروا ، وربَّما كان في أن يُوسِّع ، ولا يخلو حُكمه عن الحكمةِ.

واعلم أن اليدَ في اللغة تتصرفُ على وجوهٍ ؛ منها : الجارحةُ وهي معروفةٌ ، وتعالَى اللهُ عن الجوارحِ. ومنها : النعمةُ كما يقال : لفلانٍ علَيَّ يدٌ ؛ أي نعمةٌ. ومنها : القوةُ كما قال تعالى : { أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ }

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ

أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ } ؛ أي ولو أنَّهم عمِلُوا بما في التوراةِ والإنجيل ، ولم يكتُموا ما علمُوا من ذكرِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم فيها ، وَعمِلُوا بـ ؛ { وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ } ؛ يعني القرآنَ الذي أنزل على كافَّة الناسِ ، { لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم } ؛ أي لوسَّعنا عليهم الرزقَ بإنزالِ المطر من السماءِ ، وإخراجِ النبات من الأرضِ والشجر والنباتِ. وفي الآيةِ بيانُ أن التُّقَى سببٌ لتوسعةِ الرزق ، واستقامةِ الأمر في الدُّنيا والآخرة ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ }[الأعراف : ٩٦] وقولهُ تعالى : { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ }[الطلاق : ٢-٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ } ؛ أي من أهلِ الكتاب أمَّةٌ عادلة ، يعني جماعةٌ عادلة في القولِ ، وهم الذين أسلَمُوا منهم ، وهم ثمانيةٌ وأربَعون رجُلاً : النجاشيُّ وأصحابهُ من النَّصارى ، وبَحِيرَا الراهبُ وأصحابهُ ، وسَلمان الفارسيُّ وأصحابهُ ، وعبدُالله بن سَلام وأصحابهُ ، وجَبْرٌ مولَى قريشٍ ، { وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ } ؛ أي كثيرٌ من أهلِ الكتاب ساءَ ما يعمَلون من كتمانِ نعت النبيِّ صلى الله عليه وسلم وتكذيبهِ ، وهم : كعبُ بن الأشرفِ وأصحابهُ وسوف تسوؤُهم أعمالهم يومَ القيامةِ إذا رأوا وبَالَها.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } ؛ خِطَابٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأمرٌ له أن يبلِّغَ الناسَ جميعَ ما أنزل إليه من ربه من القرآنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ } ؛ معناهُ : إن لم تبلِّغْ آيةً مما أنزلَ إليك ، أو حُكماً أمِرتَ بتبليغهِ إليهم ، فكأنَّكَ لم تبلِّغْ شَيئاً من الرسالةِ ؛ أي يحصلُ لك الثوابُ الموعود على تبليغِ الرسالة من قبل ، وإنَّ كتمانَ آية واحدةٍ تحبطُ ثوابَ ما بلَّغَ من الرسالةِ.

يقالُ : إنَّ في هذه الآيةِ دَليلاً على أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أمر بشيءٍ خاص تأنَّى قَليلاً عن تبليغهِ حَذراً وخوفاً أن يبتليَهُ اللهُ ، كما ابتلَى قبلَهُ إبراهيمَ بالنار وإسماعيلَ بالذبحِ وزكريَّا ويحيى بالقتلِ ، وكان صلى الله عليه وسلم عَازماً على فعلِ ما أُمر به مع خوفهِ ، فقيلَ له إن لم تفعَلْ ما أمرت به من دعوتهم إلى الإسلامِ ، وعبتَ دينَهم فقد بطلَ جميعُ ما فعلتَ من قبلِ التبليغِ ، كأنَّك لم تبلِّغْ شيئاً من الرسالةِ ، ولهذا قرأ نافعُ وابن عامر وعاصم : (رِسَالاَتِهِ) بلفظ الجمعِ ، وقد يُذكر الواحد ويراد به الجماعةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } ؛ أمانٌ من اللهِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم كيلاَ يخافَ ولا يحذرَ ، كما رُوي في الخبرِ : " أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا دَخَلَ الْمَدِيْنَةَ قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ : يَا مُحَمَّدُ إنَّا ذوُو عُدَدٍ وَنَاسٍ ، فَإنْ لَمْ تَرْجِعْ قَابَلْنَاكَ ، وإنْ رَجَعْتَ زَوَّدْنَاكَ وَأكْرَمْنَاكَ. فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَحْرِسُهُ مِائَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار يَبيتُونَ عِنْدَهُ ، وَيُخْرُجُونَ مَعَهُ خَوْفاً مِنَ الْيَهُودِ ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } عَلِمَ أنَّ اللهَ يَحْفَظُهُ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ ، فَقَالَ لِلْمُهَاجِرِيْنَ وَالأنْصَارِ : " انْصَرِفُوا إلَى رِجَالِكُمْ ، فَإنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ الْيَهُودِ " فَكَانَ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ ذلِكَ يَخْرُجُ وَحْدَهُ فِي أوَّلِ اللَّيْلِ وَعِنْدَ السَّحَرِ إلَى أوْدِيَةِ الْمَدِيْنَةِ وَحَيْثُ مَا شَاءَ ، فَعَصَمَهُ اللهُ مَعَ كَثْرَةِ أعْدَائِهِ وَقِلَّةِ أعْوَانِهِ ، فَعَاشَ حَمِيداً وَمَاتَ سَعِيداً صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } ؛ أي لا يُرْشِدُهم إلى دينهِ وحُجَّته ، ولا يهدِيهم إلى طريقِ الجنة في الآخرةِ.

(٠/٠)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي لستُم على شيءٍ من الدِّين والثواب إلاّ أن تُقرُّوا بما في التوراةِ والإنجيل من نعتِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ومبعَثِهِ ونبوَّتِهِ وسائرِ الأحكام التي فيها ، وتُقِرُّوا بالقرآنِ الذي أنزلَ على كافَّة الناس من ربهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً } ؛ قد ذكرنَا تفسيرَهُ ، { فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } ؛ أي ليس عليكَ إلاَّ تبليغُ الرسالةِ فلا تحزَنْ عليهم إن كذبوكَ ؛ أي لا تحزَنْ على هلاكِهم إذا أهلكنَاهم.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ معنى الآيةِ : إنَّ الذين آمَنُوا بألسِنَتِهم ولم تؤمِنْ قلوبُهم ، والذين مَالُوا عن الإسلامِ وسُمُّوا باليهوديَّة ، والذين صَبَتْ قلوبُهم ، وهم صِنْفٌ من النصارَى يقال لهم السَّابحون يحلقون أوساطَ رُؤوسِهم.

ويقال : الصَّابئُ هو الخارجُ من ملَّة فيها أمةٌ عظيمة إلى ملَّة فيها شرذمةٌ قليلة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ } أي من آمَنَ من هذه الفرقِ بالله وبجميعِ ما أنزل اللهُ ، والبعثِ بعد الموتِ ، وعَمِلَ صالحاً فيما بينَهُ وبين اللهِ ، فلا خوفٌ عليهم ، حيث يخافُ أهلُ النار ، ولا هم يحزَنون حيث يحزنُ أهل النار.

وأما الرفعُ في قولهِ : (وَالصَّابئُونَ) : فقال الكسائيُّ : هو نسَقٌ على المضمرِ في (هَادُوا) تقديرهِ : هادُوهم والصابئون. وقال الخليلُ وسيبويه والبصريُّون قوله : { وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ } مرفوعٌ بالابتداءِ ؛ تقديرهُ : إنَّ الذين آمَنُوا ومن آمَنَ مِن الذين هَادُوا والصابئون والنصارَى ، مَن آمَن بالله واليوم الآخرِ. وَقِيْلَ : إنما رُفِعَ لأنه عُطِفَ على (الَّذِينَ) قبل دخولِ (إنَّ) ؛ لأنه لا يُحِدثُ معنى ، كما تقولُ : زيدٌ قائمٌ ، وإنَّ زَيداً قَائِمٌ معناهُما واحدٌ. وقرأ الحسنُ : (إنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتُهُ) برفع التاءِ.

وأما نفيُ الحزنِ عن المؤمنين ها هنا ، فقد ذهبَ بعض المفسِّرين إلى أنه لا يكون عليهم حزنٌ في الآخرةِ ولا خوفٌ ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ }[فصلت : ٣٠].

وقال بعضُهم : إنَّ المؤمنين يخافون ويحزَنون لقولهِ تعالى : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ }[الحج : ٢] وقولهُ تعالى : { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ }[عبس : ٣٤-٣٥]. وقال صلى الله عليه وسلم : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً " فَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَاسَوْأَتَاهُ! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " أمَا سَمِعْتِ قَوْلَهُ تَعَالَى : { لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } " قالُوا : وإنما نفَى اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الحزنَ عن المؤمنين ؛ لأن حزنَهم لِما كان يعرض الزوالَ ، ولم يكن له بقاءٌ معهم لم يعتدَّ بذلك.

(٠/٠)

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي أخَذنا عهدَ بني إسرائيلَ على أن يعمَلُوا بما في التوراةِ والإنجيلِ ، وكل نبيٍّ يبعثهُ الله إلى قومهِ فآمنوا به ، فذلك أخذُ ميثاقِهم ، { وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ } ؛ أي كلَّما جاءَهم رسولٌ بما لا يوافقُ هوَاهم ولا ما هُم عليهِ ، { فَرِيقاً كَذَّبُواْ } ؛ أي كذبوا جماعةً من الرُّسل مثلَ عيسى ومُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِمَا ، { وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ } ؛ مثلَ زكريَّا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ.

(٠/٠)

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ } ؛ أي ظنُّوا ألاَّ يكون عَذاباً وعقوبةً ، وَقِيْلَ : ابتلاءً بسبب قتلِهم الأنبياء وتكذيبهم الرسُلَ. من قرأ (يَكُونَ) بالنصب فمعنى (أنْ يَكونَ) ، ومن قرأ بالرفعِ فمعناهُ : (أنَّهُ لاَ يَكُونُ) أي فحَسِبُوا أنَّ فعلَهم غيرُ فاتنٍ لهم ، { فَعَمُواْ وَصَمُّواْ } ؛ عن الحقِّ ؛ أي عَمِلُوا معاملةَ الأعمى الذي لا يُبصر ، والأصمَّ الذي لا يسمعُ ، فصاروا كالعُمْيِ والصُّمِّ. { ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } ؛ أي تجاوزَ عنهم بأن أرسلَ إليهم مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم يُعلِمُهم أنه قد تابَ عليهم إن آمَنُوا وصدَّقُوا فلم يؤمِنْ أكثَرُهم ، ويقال : دَانُوا بعد ذلك وتابُوا من الكفرِ فقَبلَ اللهُ توبتَهم ، فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم وجاءَهم ما عرَفُوا كفَرُوا بهِ ، فذلك قولهُ : { فَعَمُواْ وَصَمُّواْ } أي عَمُوا عن الهدَى ، وصَمُّوا عن الحقِّ بعد أنِ ازدادَ لهم الأمرُ وضوحاً بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ } ؛ بدلٌ من الواوِ في قوله (عَمُوا) كأنه قالَ : عَمِي وصَمَّ كثيرٌ منهم ، وهذا كما يقالُ : جاءَني قومُكَ أكثرُهم ، وقوله : { كَثِيرٌ مِّنْهُمْ } يقتضي في المرة الثانيةِ أنَّهم لم يكفُروا بأكملِهم ، وإنما كفَرَ أكثرُهم ، كما قالَ تعالى : { لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ }[آل عمران : ١١٣] وقال تعالى : { مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ }[المائدة : ٦٦].

ويُحكى عن بعضِ أهل اللُّغة جوابَ جمعِ الفعل متقدِّماً على الاسمِ ، كما يقالُ : أكَلُوني البراغيثُ ، ويجوزُ أن يكون (كَثِيرٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ ؛ معناهُ : العميُ والصمُّ كثيرٌ منهم.

وقوله : { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } ؛ أي بما تعمَلون من التكذيب ونقضِ الميثاق وتحريف الكلام.

(٠/٠)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } ؛ نزَلت في نصارى نَجران السيِّدِ والعاقب ومَن معهُما ، وهم الماريعقوبيَّة ؛ قالوا : إنَّ اللهَ هو المسيحُ بن مريمَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ } ؛ إعلامٌ من اللهِ تعالى أن المسيحَ دعاهم إلى توحيدِ الله تعالى ، وأعلمَهم أنَّ شيئاً حالهُ في أمه مربوبٌ كحالهم ، وأعلمَهم أن مَن أشركَ مع اللهِ شيئاً غيرَهُ فهو كافرٌ من أهلِ النار ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } أي وحِّدوهُ ، فهو خالِقي وخالقُكم ورازقي ورازقُكم. { فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ } ؛ أن يدخلَها ، { وَمَأْوَاهُ النَّارُ } ؛ ومصيرهُ في الآخرة النارُ ، { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ } ؛ أي ما للمشرِكين من مانعٍ يمنعُهم من عذاب الله.
ثم بيَّن اللهُ كُفرَ الفريقِ الآخر من النَّصارى ، وهم المرقُوشيَّة ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ } ؛ أي أحدُ ثلاثةٍ : أبٌ ؛ وابنٌ ؛ وروحُ قدسٍ ، { وَمَا مِنْ إِلَـاهٍ إِلاَّ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ } ؛ أي المنافقون ؛ { عَمَّا يَقُولُونَ } ؛ من مقالتِهم الأُولى والثانية ، { لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي ليُصِيبَنَّ الذين أقَامُوا على مقالةِ الكفر ، { مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ وجيعٌ يخلصُ وجعه إلى قلوبكم.

(٠/٠)

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ } ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ استفهامٌ ، ومعناها الآمرُ ؛ أي تُوبوا إلى اللهِ عن النصرانيَّة ، واستغفروهُ من هذه المقالةِ الشَّنيعة ، { وَاللَّهُ غَفُورٌ } ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ ، { رَّحِيمٌ } ؛ بمَن ماتَ على التَّوبة.

(٠/٠)

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ } ؛ أي ما المسيحُ إلاَّ رسولٌ من رُسُلِ اللهِ ، فإنَّ إبراءَ الأَكْمَهِ والأبرصِ ، وإتيانهِ بالمعجزات كما أتَى موسَى بالمعجزاتٍ ؛ أي الآياتِ ، وكما أتَى إبراهيمُ عليه السلام وغيرهما من الأنبياءِ ، فلو وَجبت عبادةُ الأنبياءِ لظهور المعجزاتِ عليه لوجبت عبادةُ سائرِ الأنبياء واتخاذُهم آلهةً بسبب المعجزات ، { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } ؛ أي كَثيرَةُ الصِّدق والتصدُّقِ ، وذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام أتَاها فقالَ لها : إنَّمَا أنَا رَسُولُ رَبكِ ؛ فصدَّقَتْهُ ، كما قال تعالى : { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا }[التحريم : ١٢].

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ } ؛ بيانُ أنَّهما كانا مُحدَثَين محتاجَين ، وهذا احتجاجٌ بيِّنٌ على القومِ في أنه لم يكن إلَهاً ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهُ في الآيةِ بصفاتٍ تُنافِي الآلهيَّة ، منها : أنَّهُ رسولٌ بعدَ أن لم يكُنْ ، ومنها : أنه كسائرِ الرُّسل فيما ظَهرت منه وعليه ، ومنها : أنه مولودٌ من أمٍّ ، ومنها : أنَّهما كَانا يعِيشان بالغذاءِ كما يعيشُ سائر الآدميِّين ، وكيف يكون إلَهاً مَن تكون حياتهُ بالحيلةِ ولا يقيمهُ إلاّ أكلُ الطعامِ.

ومنها ما قالوا : إنَّ أكلَ الطعامِ في الآية كنايةٌ عن قضاءِ الحاجة ؛ لأن الذي يأكلُ الطعامَ لا بدَّ له من قضاءِ الحاجة. فكلُّ هذه الصفاتِ دلالةٌ على كونهِ عَبداً مخلوقاً مربُوباً مستحيلاً أن يكون إلَهاً قَديماً ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ } ؛ أي انظُرْ يا مُحَمَّدُ كيف نبيِّنُ لهم العلاماتِ في أمر عيسَى أن لم يكُنْ إلَهاً ولا ابناً له ولا ثالثَ ثلاثةٍ ، { ثُمَّ انْظُرْ } ؛ يا مُحَمَّدُ ، { أَنَّى يُؤْفَكُونَ } ؛ أي مِن أين يُصرَفون عن الحقِّ الواضح إلى الباطلِ.

وَالإفْكُ : هو الصَّرْفُ ، كلُّ شيءٍ صَرَفْتَهُ فهو مأْفُوكٌ ، تقولُ : أفَكْتُهُ عَنْهُ أفَكَهُ إفكاً ، ويسمَّى الكذبُ إفْكاً ؛ لأنه يصرفُ عن الحقِّ.

(٠/٠)

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لهؤلاء النَّصارى ومَن سَلَكَ طريقتَهم واتَّخذ غيرَ اللهِ إلهاً : أتَعبُدون من دونِ الله ما لا يقدرُ على دفعِ ضُرٍّ عنكم ولا جرَّ نفعٍ إليكم ، { وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } ؛ لِمقالتِكم فِي عيسى عليه السلام وأمِّه ، { الْعَلِيمُ } ؛ بكم وبعقوبتِكم.

(٠/٠)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : لا تتجَاوَزُوا الحدَّ في دينِكم إلى غيرِ الحقِّ فتقولوا : هل فعلَ أحدٌ مثلَ فعلِ عيسى ؟ وتجعَلُوا للهِ وَلداً ؟ فإنه ليس بحقٍّ ، ويقالُ : هذا خطابٌ لليهودِ والنصارى ؛ أي لا ترفَعُوا عيسَى عليه السلام عن درجةِ النبُوَّة إلى درجةِ الرُّبوبيَّة ، ولا تَحُطُّوهُ عن درجتهِ فتقولوا : إنه مولودٌ على غيرِ رُشدهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ } ؛ أي لا تتَّبعوا شَهواتِ أوليائِكُم ورُؤسَائِكُمْ ، ولا تُؤثِرُوا الهوَى على البيان والبرهان ، { وَأَضَلُّواْ كَثِيراً } ؛ من السَّفلة الذين أطَاعُوهم ، { وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ } ؛ وأصَرُّوا على ضلالتِهم عن قصدِ الطريق.

(٠/٠)

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي طُرِدَ الذين كَفَرُوا من بني إسرائيلَ وبُوعِدُوا من رحمةِ الله ، { عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ } ؛ أي بدُعائه عليهم حين اعتَدوا في السَّبتِ ، فمسخَهم اللهُ قردةً. { وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } ، أي ولُعِنُوا بدُعاء عيسى حين كفَرُوا بعد ذلكَ بالمائدةِ فمسخَهم اللهُ خَنازيرَ ، { ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } ؛ ذلك اللَّعنُ والتعذيبُ بعصيانِهم واستحلالِهم المعاصي وقتلِهم الأنبياءَ

عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ بغيرِ حقٍّ.
ثم بيَّن اللهُ تعالى سببَ المعصية والكفرِ ، فقال تعالى : { كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ } ؛ أي لا ينهَى بعضُهم بعضاً عن قبيحٍ يعملونَهُ ، واصطَلَحوا على الكفِّ عن نَهي المنكرِ ، { لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } ؛ ودخولُ اللامِ في (لَبئْسَ) للقسَمِ والتوكيدِ.

(٠/٠)

تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ ترَى يا مُحَمَّدُ كَثيراً من اليهودِ يُوالون مُشرِكي العرب على مُعاداتِكَ ومحاربتِكَ ، يعني كعبَ بن الأشرَفِ وأصحابَهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : ترَى كثيراً من المنافقين يتولَّون اليهودَ ، { لبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ } ؛ أي بئْسَ ما عمِلُوا لأنفسهم حين ، { أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } ؛ وموضعُ (أنْ سَخِطَ) نَصْبٌ على تأويلِ بئسَ الشيءُ ذلك لإن أكسبَهم السُّخْطَ ، فانتصبَ (أنْ) بلامِ (كَيْ) ، ويجوزُ أن يكون موضعهُ رَفعاً على إضمار (هُوَ) تقديرهُ : هُوَ أنْ سَخِطَ اللهُ عليهم ، { وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } ؛ أي مُقيمون دائمون.

(٠/٠)

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله } ؛ معناهُ : لو كان اليهودُ يصدِّقون بوحدانيَّة اللهِ تعالى : { والنَّبِيِّ } ، وبمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، { وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ } ؛ أي والقرآنِ الذي أنزل إليه ؛ { مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ } ، ما اتَّخذوا كفارَ قُرَيشٍ وسائرَ عَبَدَةِ الأوثانِ أحبَّاءَ في العونِ والنُّصرة على حربِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم { وَلَاكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ } ؛ من اليهودِ ؛ { فَاسِقُونَ } ؛ خارجون عن الطاعةِ ، ناقِضُوا العهدِ.

(٠/٠)

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ } ؛ أي لتجدنَّ يا مُحَمَّدُ أشدَّ الناسِ عداوةً لكَ وللذين آمَنُوا اليهودَ ، وهم يهودُ بني قُريظَة وبني النضير وفدك وخيبرَ ، كانوا أشدَّ اليهودِ عداوةً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. ورُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَا خَلاَ يَهُودِيَّانِ بمُسْلِمٍ إلاَّ هَمَّا بقَتْلِهِ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ } يعني مُشركي العرب كانوا في العداوةِ مثلَ اليهودِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى } ؛ لم يرِدْ جميعَ النَّصارى مع ما هم فيه من عداوةِ المسلمين ، وتخريب بلادِهم وهدمِ مساجدهم وقتلِهم وأسرِهم وأخذِ مصاحفهم.

وإنما نزَلت هذه الآيةُ في النجاشيِّ وأصحابِهِ. قال ابنُ عبَّاس وسعيدُ بن جبير والسديُّ : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ ، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ نَصْرَانِيّاً قَبْلَ ظُهُور الإِسْلاَمِ ، ثُمَّ أَسْلَمَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ).

قال المفسرون : ائتمَرَتْ قريشُ أن يَفتنُوا المسلمين عن دِينهم ، فوثَبتْ كلُّ قبيلةٍ على مَن فيهم مِن المسلمين ، يؤذونَهم ويعذِّبونَهم فافتتنَ كثيرٌ ، وعَصَمَ اللهُ من شاءَ منهم ، ومنَعَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعمِّه أبي طالبٍ ، فلمَّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابِهِ ، ولم يقدِرْ على مَنعِهم ولم يُؤمَرْ بالجهادِ ، أمرَهم بالخروجِ إلى أرضِ الحبشةِ ، وقَالَ : [إنَّ بهَا مَلِكاً صَالِحاً لاَ يَظْلِمُ وَلاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أحَدٌ ، فَاخْرُجُوا إلَيْهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لِلمُسْلِمِينَ فَرَجاً] ، وأرادَ به النجاشيَّ واسمهُ أصْحَمَةُ ، وهوَ بالحبشيَّة عطيَّة ، وإنما النجاشيُّ اسمُ الملكِ ، كقولِهم : كِسرَى وقَيصَرَ.

فخرجَ إليه سِرّاً أحدَ عشر رجلاً وأربعُ نسوةٍ ، وهم عثمانُ بن عفَّان وامرأتهُ رُقَيَّةُ بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، والزُّبير ، وعبدُالله بن مسعودٍ ، وعبدُالرحمن بن عَوفٍ ، وأبو حُذيفة بن عقبةَ وامرأتهُ سَهلَةُ بنت سُهيل ، ومصعبُ بن عُمَير ، وأبو سَلَمَة وامرأتهُ أمُّ سَلمة ، وعثمانُ بن مظعونٍ ، وعامرُ بن رَبيعة وامرأتهُ لَيلَى بنتُ جَثْمَةَ ، وحَاطبُ بن عمرَ ، وسُهيل بن بيضاءَ. فخرَجُوا إلى البحرِ وأخَذُوا سفينةً بنصفِ مثقالٍ إلى الحبشةِ ، وذلك في رَجب في السَّنة الخامسةِ من عهد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهجرةُ الأُولى.

ثم خرجَ جعفرُ بن أبي طالبٍ وتتابعَ المسلمون ، وكان جميعُ مَن هاجرَ إلى الحبشةِ من المسلمين اثنينِ وثَمانين رجُلاً سوَى النِّساء والصبيان ، فلما عِلمَتْ قريشُ بذلك وجَّهت عمرَو بن العاصِ وصاحبَهُ بالهدايا إلى النجاشيِّ وإلى بَطَارقَتِهِ ليردُّوهم إليهم ، فعصمَهم اللهُ تعالى ، وقد ذكرنا هذه القصَّة في سورةِ آل عِمرانَ.

فلمَّا انصرفَا خَائِبَين أقامَ المسلمون هناك بخيرِ دار وأحسنِ جوار إلى أن هاجرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعَلاَ أمرهُ ، وذلك في سَنة ستٍّ من الهجرةِ.

(٠/٠)

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلاً قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرَ ابْنِ أبي طَالِبٍ ، وَاثْنَانِ وَثَلاَثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الشَّامِ ، فَلَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الْقُرْآنَ عَرَفُوهُ ، فَرَقُّوا لَهُ فَفَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ وَلَمْ يَسْتَكْبِرُواْ أَنْ يَدْخُلُواْ فِي دِينِهِ).

ومعنَى الآيةِ : وإذا سَمِعوا القرآنَ ترَى الدمعَ يسيلُ من أعيُنِهم بمعرفتهم الحقَّ من صفةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ونعتهِ في كتابهم ، { يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا } ؛ أي صدَّقنا بوحدانيَّتِكَ وكتابكَ ورسولِكَ ، { فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } ؛ أي مَع مَن شَهِدَ من أنبيائِكَ ومؤمنِي عبادِكَ بأنَّكَ واحدٌ لا إلهَ غيرك ؛ أي اجعَلنا في جُملتهم.

قال ابنُ عبَّاس : (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ لاَمُوهُمْ عَلَى الإِيْمَانِ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآن وَقَالَوا لَهُمْ : تَرَكْتُمْ مِلَّةَ عِيسَى عليه السلام وَدِينَ آبَائِكُمْ ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ } ؛ أي نحن نرجو أن يُدخِلَنا ربُّنا في الآخرةِ مع صالِحي أمَّة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ } ؛ أي جازَاهم اللهُ بأنْ أوجبَ لهم الجنةَ في الآخرةِ بقولهم (رَبَّنَا آمَنَّا) ، وقولِهم : (وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ باللهِ). { جَنَّاتٍ } ؛ أي بساتين ، { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛

تجري من تحت شجرِها ومساكنها وغُرَفِها أنْهَارُ الماءِ والعسل والخمرِ واللبن ، { خَالِدِينَ فِيهَا وَذالِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي ذلك الثوابُ جزاءُ الموحِّدين المخلصين.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ } أي الذين جَحَدوا وكذبوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ فماتوا على ذلك ، ف { أُوْلَئِكَ } ، هم ، { أَصْحَابُ } ، أهل ، { الْجَحِيمِ } ؛ النار الشَّديدة الوقودِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ } ؛ قال المفسِّرون : (جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْماً ، فَذَكَرَ النَّارَ وَوَصَفَ الْقِيَامَةَ ، فَرَقَّ النَّاسُ وَبَكَواْ ، فَاجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنْ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُمْ أبُو بَكْرٍ ؛ وَعُمَرَ ؛ وَعَلِيٌّ ؛ وَعَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ؛ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ الْجَمْحِيُّ ؛ وَالْمِقْدَادُ ؛ وَعَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ ؛ وَأبُو ذرٍّ ؛ وَسَالِمُ مَوْلَى أبي حُذَيْفَةَ ؛ وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ ؛ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ؛ وَمَعْقِلُ بْنُ مُصَرِّفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، تَوَاثَقُوا فِي دَار عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ أنْ يَصُومُوا النَّهَارَ وَيَقُومُوا اللَّيْلَ ، وَيَرْفُضُوا الدُّنْيَا ، وَيَسِيحُوا فِي الأَرْضِ ، وَيَجُبُّوا مَذاكِيرَهُمْ وَيَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ، وَلاَ يَأْكُلُواْ لَحْماً وَلاَ دَسَماً ، وَيَلْبَسُوا الْمُسُوحَ. فَبَلَغَ ذلِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللهُ فِيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : لا تحرِّموا على أنفُسِكم طيِّبات ما أحلَّ اللهُ لكم من الطعام والشراب واللباسِ والجماع ، ولا تظلِمُوا أنفسكم بقطعِ المذاكيرِ ، { وَلاَ تَعْتَدُواْ } ؛ أي لا تُجاوزوا حدودَ اللهِ بتحريم حلالهِ ، فإن مُحَرِّمَ ما أحلَّ اللهُ ، كمُحِلِّ ما حرَّمَ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ؛ أي لا يرضَى عمل المعتدِين على أنفُسِهم المتجاوزين حدودَ الله.

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً } ؛ أي كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ من الطعامِ والشراب حلالاً أحلَّهُ الله لكم ، { وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ }. وَقِيْلَ : " أنَّهُ لما بلغَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خبرُهم ؛ أتَى دَارَ عُثْمَانَ بْنَ مَضْعُونٍ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَقَالَ لامْرَأةِ عُثْمَانَ بْنِ مَضْعُونٍ – أمِّ حَكِيمٍ بنْتِ أمَيَّةَ وَاسْمُهَا الْخَوْلَةُ وَكَانَتْ عَطَّارَةً – : " أحَقٌّ مَا بَلَغَنِي عَنْ زَوْجِكِ وَأصْحَابِهِ ؟ " فَكَرِهَتْ أنْ تَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ وَكَرِهَتْ أنْ تُبْدِيَ خَبَرَ زَوْجِهَا ؛ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنْ كَانَ أخْبَرَكَ عُثْمَانُ فَقَدْ صَدَقَ ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

فَلَمَّا جَاءَ عثْمَانُ أخْبَرَتْهُ زَوْجَتُهُ بذلِكَ ، فَعَنِيَ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَسَأَلَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ ذلِكَ ، فَقَالَ : نَعَمْ. فَقَالَ عليه السلام : " أمَّا أنَا ؛ فَلَمْ أوْمَرْ بذلِكَ ، إنَّ لأَنْفُسِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً ؛ فَصُومُوا وَأفْطِرُواْ ؛ وَقُومُواْ وَنَامُواْ ، فَأَنَا أقُومُ وَأنَامُ ، وَأصُومُ وَأفْطِرُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ وَالدَسَمَ ، وآتِي النِّسَاءَ ، مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ".

ثُمَّ جَمَعَ النَّاسَ وَخَطَبَهُمْ وَقَالَ : " مَا بَالُ قَوْمٍ حَرَّمُوا النِّسَاءَ وَالطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالنَّوْمَ ، أمَّا أنَا فَلاَ آمُرُكُمْ أنْ تَكُونُوا قِسِّيسِينَ أوْ رُهْبَاناً ، فَإنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِينِي تَرْكُ اللَّحْمِ وَالنِّسَاءِ ، وَاتِّخَاذُ الصَّوَامِعِ ، فَإنَّ سِيَاحَةَ أمَّتِي الصَّوْمُ ، وَرَهْبَانِيَّتَهُمُ الْجِهَادُ ، فَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ، وَحُجُّوا وَاعْتَمِرُواْ وَأقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَصُومُوا رَمَضَانَ ، وَاسْتَقِيمُوا لِيَسْتَقِيمَ لَكُمْ ، فَإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بالتَّشْدِيدِ ، شَدَّدُواْ عَلَى أنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ ".

وعن سعيدِ بن المسيِّب ؛ قال : " جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ مَضْعُونٍ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بأَنْ أخْتَصِي ، قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! إنَّ اخْتِصَاءَ أمَّتِي الصِّيَامُ]. قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ أتَرَهَّبَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ ، قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانَ! فَإنَّ تَرَهُّبَ أمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ لانْتِظَارِ الصَّلاَةِ ".

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ أخْرُجَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ. قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ صَدَقَتَكَ يَوْمٌ بيَوْمٍ ، وَتَعِفُّ بنَفْسِكَ وَعِيَالِكَ ، وَتَرْحَمُ الْمَسَاكِينَ وَالْيَتِيمَ ، فَتُعْطِيهِمَا أفْضَلُ مِنْ ذلِكَ ". قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ أطَلِّقَ امْرَأتِي خَوْلَةَ. قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ الْهِجْرَةَ فِي أمَّتِي مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ ، أوْ هَاجَرَ إلَيَّ فِي حَيَاتِي ، أوْ زَارَ قَبْرِي بَعْدَ وَفَاتِي ، أوْ مَاتَ وَلَهُ امْرَأةٌ أوْ امْرَأتَانِ أوْ ثَلاَثٌ أوْ أرْبَعٌ ".

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! فَإِنْ نَهَيْتَنِي أنْ لاَ أطَلِّقَهَا فَإنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ لاَ أغْشَاهَا. قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ الْمُسْلِمَ إذا غَشِيَ امْرَأتَهُ أوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ رَقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدٌ ، كَانَ لَهُ وَصِيْفَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَإنْ كَانَ مِنْ وَقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدٌ ، فَمَاتَ قَبْلَهُ كَانَ لَهُ فَرْطاً وَشَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَإنْ مَاتَ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ لاَ آكُلَ اللَّحْمَ. قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنِّي أحِبُّ اللَّحْمَ وَآكُلُهُ إذا وَجَدْتُهُ ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِي أنْ يُطْعِمَنِيَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لأَطْعَمَنِيَهُ ". قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! فَإنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أنْ لاَ أمَسَّ الطِّيبَ. قَالَ : " مَهْلاً يَا عُثْمَانُ! فَإنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أمَرَنِي بالطِّيب غَبّاً " ، وَقَالَ : " يَوْمَ الْجُمُعَةِ لاَ تَرْكَهُ ، يَا عُثْمَانَ لاَ تَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِي ، فَإنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أنْ يَتُوبَ ، صَرَفَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَجْهَهُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

(٠/٠)

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ } ؛ قال ابن عبَّاس : (هُوَ أنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ باللهِ فِي الشَّيْءِ يَرَى أنَّهُ كَذلِكَ). وقالت عائشةُ : (هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ : لاَ وَاللهِ ، وَبَلَى واللهِ ، يَصِلُ بِهِ كَلاَمَهُ وَلاَ يَعْقِدُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ). واللَّغْوُ في اللغة : هو الكلامُ الساقطُ الذي لا يعتدُّ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَاكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ } ؛ أي بما وكَّدتم الأيمان. قرأ أهلُ الحجاز وحفص وأبو عمرو : (عَقَّدْتُمْ) بالتشديدِ ، وقرأ أهلُ الكوفة إلاَّ حفصاً : بالتخفيف (عَقَدْتُمْ). ومعناه : أن يحلِفَ الرجلُ على أمرٍ في المستقبل ليفعلَهُ ثم لا يفعلهُ ، أو يحلفَ أن لا يفعلَهُ ثم يفعلهُ. فمَن قرأ (عَقَّدْتُمْ) بالتشديدِ فمعناهُ المبالغة والتأكيدُ. وفائدتهُ أن يعتقدَها في قلبهِ ، ولو عقدَها في أحدِهما دون الآخرِ لم يكن مُعتقداً ، وهو كالتعظيمِ.

وكان أبو الحسنِ الكرخيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى يقول : (قِرَاءَةُ التَّشْدِيدِ لاَ تَحْتَمِلُ إلاَّ الْعَقْدَ بالْقَوْلِ ، وَقِرَاءَةُ التَّخْفِيفِ تَحْتَمِلُ عَقْدَ الْقَلْبِ ، وَهُوَ الْعَزِيْمَةُ وَالْقَصْدُ إلَى الْقَوْلِ). ويحتملُ عقد اليمينِ قَولاً ؛ يقال : عقدتُ على أمرِ كذا ؛ إذا عزمتُ عليه.

وَقِيْلَ : الأصحُّ أن المرادَ بالعقدِ القولُ ؛ لأنه لا خلافَ بين الأئمَّة أن القصدَ من اليمينِ لا يتعلقُ به وجوبُ الكفَّارة ، وإن وجوبَها متعلقٌ باللفظِ دون القصدِ. ويحتملُ أن يكون معنى التشديدِ : أنه متى

أعادَ اليمينَ على وجه التكرار ، وهو يريدُ التكرارَ لا يلزمهُ إلا كفارةٌ واحدة.
وقرأ أهلُ الشام : (عَاقَدْتُمْ) بألف وهو من المعاقَدة ، وهو أن يحلفَ الرجلُ لصاحبِهِ على مسأَلته ، أو يحلفَ كلُّ واحد منهما لصاحبِهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَفَّارَتُهُ } ؛ أي كفَّارة ما عقَّدتُم من الأيمانِ عند الحنثِ ، { إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ } ؛ أي مِنْ أعدل مَا تُطْعِمُونَ أهْلِيكُمْ غداءً وعشاء ولا وَكَسَ ولا شَطَطَ.
وَقِيْلَ : معناهُ : من أوسَطِهِ في الشَّبع ، ولا تفرطُ في الأكلِ ، ولا يكون دون المغنى عن الجوعِ ، فإن أرادَ أن يُطعِمَهم الطعامَ أعطَى لكلِّ مسكين نصفَ صاعٍ من حنطة عند أصحابنا ، هكذا رُوي عن عمرَ وعليٍّ وعائشة. وقال الشافعيُّ ومالك : (مُدّاً بمُدِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم).
وَالْمُدُّ : رَطْلٌ وَثُلُث ، وهكذا رُوي عن زيدِ بن ثابت وابنِ عبَّاس وابن عمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين.
وأما غدَاؤهم وعشاؤهم فلا عبرةَ بمقدار الطعام ، إلا أن يكون فيهم صبيٌّ صغير لا يستوفِي الأشياءَ يسيراً فلا يعتدُّ به حينئذ ، وإنما قال : يُغَدِّيهِمْ ويُعَشِّيهم ؛ لأن ذلك أوسطُ طعامِ الأهل ؛ لأن أكثرَ الأكلِ ثلاثُ مرات ، وأقلُّه وجبة ، والغالبُ الأوسط ؛ والأوسطُ الغالب مرَّتان. وقال سعيدُ بن جبير : (يُعْطِي لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدَّيْنِ ؛ مُدٌّ لِطَعَامِهِ وَمُدٌّ لإِدَامِهِ).
وسُئل شريح عن الكفَّارة ؛ فقال : (الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ). فقال له السائلُ : رأيتَ إن أطعمتُ الخبزَ واللحم ، فقال : (ذَلِكَ أَرْفَعُ طَعَامِ أَهْلِكَ وَطَعَامِ النَّاسِ).

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ } ؛ الْمَيْسِرُ : هو القِمَارُ كلُّه. والأَنْصَابُ : هي الأحجَارُ ؛ كانوا ينصبونَها ويعبدونَها. والأَزْلاَمُ : هي الأَزْلاَمُ التي كانوا يخيلونَها عند المعزمِ على الْمَسِيرِ.
نَهى اللهُ عن هذه الأشياءِ ، وحرَّمَها بأبلغِ أسباب التحريمِ ؛ لأنه تعالى سَمَّاها كلها رجْساً ، والرِّجْسُ : هو الشيءُ المستقذرُ النَّجِسُ ، الذي يرتفع " في القُبحِ " ، ذكرَهُ بالفتحِ ؛ يقال : رَجَسَ الرَّجُلُ يَرْجِسُ ، ورَجِسَ يَرْجِسُ. والرَّجْسُ بفتحِ الراءِ : شدَّةُ الصوتِ ، ورعدٌ رَجَّاسٌ إذا كان شديدَ الصوتِ. وسُميت هذه المعاصي رجْسًا ؛ لوجوب اجتنابها كما يجبُ اجتناب الشيءِ المستقذر.
قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } ؛ أي من تزيينهِ ؛ لأنه هو الداعِي إليه والمرغِّبُ فيه والمزيِّنُ له

في قُلوب فَاعليه. وقولهُ تعالى : { فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ أمرٌ باجتنابهِ وهو تَركُه بَاطناً ، وظاهر الأمرُ على الوجوب. وروي عن عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه أنه قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللهَ تَعَالَى يُجْمِعُ الْخَمْرَ وَالإِيْمَانَ فِي قَلْب مُؤْمِنٍ أبَداً " وقالَ صلى الله عليه وسلم : " مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابدِ الْوَثَنِ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا ، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ "
وقالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا سَقَاهُ اللهُ مِنْ سُمِّ الأَسَاوِدِ ، وَسُمِّ الْعَقَارب ، إذا شَرِبَهُ تَسَاقَطَ لَحْمُ وَجْهِهِ فِي الإنَاءِ قَبْلَ أنْ يَشْرَبَهَا ، فَإذا شَرِبَهَا يُفَسَّخُ لَحْمُهُ بالْجِيفَةِ ، يَتَأَذى بِهِ أهْلُ الْمَوْقِفِ. وَمَنْ مَاتَ قَبْلَ أنْ يَتُوبَ مِنْ شُرْب الْخَمْرِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يَسْقِيَهُ بكُلِّ جُرْعَةٍ شَرِبَهَا فِي الدُّنْيَا شَرْبَةً مِنْ صَدِيدِ أهْلِ جَهَنَّمَ "
وقال صلى الله عليه وسلم : " لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ وَسَاقِيَهَا ؛ وَشَارِبَهَا ؛ وَبَائِعَهَا ؛ وَمُبْتَاعَهَا ؛ وَعَاصِرَهَا ؛ وَمُعْتَصِرَهَا ؛ وَحَامِلَهَا ؛ وَالْمَحْمُولَةَ إلَيْهِ ؛ وآكِلَ ثَمَنِهَا " وقالَ صلى الله عليه وسلم : " اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ ، فَإنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ " وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ أنْ حَرَّمَهَا اللهُ عَلَى لِسَانِي ، فَلَيْسَ لَهُ أنْ يُزَوَّجَ إذا خَطَبَ ، وَلاَ يُصَدَّقَ إذا حَدَّثَ ، وَلاَ يُشَفَّعَ إذا شَفَعَ ، وَلاَ يُؤْتَمَنَ عَلَى أَمَانَةٍ ؛ فَمَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَى أمَانَةٍ فَاسْتَهْلَكَهَا فَحَقٌّ عَلَى اللهِ تَعَالَى أنْ لاَ يُخْلِفَ عَلَيْهِ "

(٠/٠)

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } ؛ وذلك أنَّ مَن شربَ الخمر وسَكِرَ زال عقلهُ وارتكبَ القبائحَ ، وربَّما عَرْبَدَ على جُلسائه ، فيؤدِّي ذلك إلى العداوةِ والبغضاء ، وكذلك القمارُ يؤدِّي إلى ذلك. قال قتادةُ : (كَانَ الرَّجُلُ يُقَامِرُ غَيْرَهُ عَلَى مَالِهِ وَأَهْلِهِ ، فَيَقْمِرُهُ وَيَبْقَى حَزِيناً سَلِباً ، فَيُكْسِبُهُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِذهَاب مَالِهِ عَنْهُ بغَيْرِ عِوَضٍ وَلاَ مِنَّةٍ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ } ؛ أي يريدُ الشيطان أن يَصرِفَكم عن طاعةِ الله وعن الصَّلوات الخمسِ على ما هو معلومٌ في العادةِ من أحوال أهلِ الشَّراب والقِمار.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ } ؛ معناهُ : انْتَهُوا عنهُما ، وهذا نَهيٌ بألطفِ الوجُوهِ ؛ ليكون أدعى إلى تنهاكما ، كما قال تعالى : { فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ }[هود : ١٤] معناه : أسلِمُوا. فلمَّا نزَلت هذه

الآيةُ قالوا : (انْتَهَيْنَا يَا رَبُّ). فأنزلَ الله تعالى هذه الآيةَ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ } ؛ أي أطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ في تركِ جميعِ المعاصي عُموماً ، واحذرُوا شُربَ الخمرِ وتحليلها وسائرِ المعاصي ، { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ } ؛ أي أعرَضتُم عن طاعةِ الله وطاعة الرسولِ ، { فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ } ؛ أي تبليغُ الرسالة عن اللهِ بأوامره ونواهيه بلُغَة تعرفونَها. وأما التوفيقُ والخذلان والثواب والعقابُ ، فإلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فلمَّا نزلَ تحريمُ الخمرِ والميسر قال الصحابةُ : (يَا رَسُولَ اللهِ! فَكَيْفَ بإخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؟) حتى قال المهاجِرون : (يَا رَسُولَ اللهِ! قُتِلَ أصْحَابُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَمَاتُوا فِيْمَا بَيْنَ بَدْر وأحُدٍ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ ؛ فَمَا حَالُ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ؟) فأنزل اللهُ قَولَهُ تعالى : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ } ؛ أي فيما شَرِبوا من الخمرِ ، { إِذَا مَا اتَّقَواْ } ؛ الشِّركَ ، { وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ } ؛ وصدقوا واجتنبوا الخمرَ والميسرَ بعد تحريمها ، { وَآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ } ؛ ما حرَّمَ الله كلَّهُ ، { وَّأَحْسَنُواْ }.

وَقِيْلَ : معناه : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا – بالله ورسوله – وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني الطاعاتِ (جُنَاحٌ) أي حرَجٌ ومَأْثَمٌ (فيمَا طَعِمُوا) من الحرامِ وشربوا من الخمرِ قبل تحريمها ، وقبل العلمِ بتحريمها إذا ما اجتَنبوا الكفرَ والشِّركَ وسائرَ المعاصي فيما مضى ، { وَآمَنُوا } أي وصدَّقوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ { وَعَمِلُواْ } الطاعات { ثُمَّ اتَّقَواْ } شربَ الخمرِ بعد التحريم { وَآمَنُوا } أي أقَرُّوها بتحريمها { ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ } أي ثم دَاوَمُوا على ذلك وضَمُّوا إلى ذلك الإحسانَ في العملِ.

وَقِيْلَ : أرادَ بالاتقاءِ الأول : اتقاءُ جميع المعاصِي فيما مضَى ، وأراد بالثاني : اتقاءُ المعاصي في المستقبلِ ، وأراد بالثالثِ : اتقاءُ ظُلمِ العباد في المعاملاتِ. وَقِيْلَ : أرادَ بقوله : (إِذَا مَا اتَّقَواْ وَآمَنُواْ) إذا ما اجتَنبوا شُربَ الخمرِ بعد تحريمها وصدَّقوا بتحريمها ، { ثُمَّ اتَّقَواْ } سائرَ المعاصي ، وأقرُّوا بتحريم ما يحدُثُ تحريمهُ من بعد مجانبته ، ثم جَمعوا بين اتِّقاء المعاصي وإحسانِ العمل والإحسان إلى الناسِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ } ؛ أي ليعاملنَّكم اللهُ معاملةَ المختبرِ ليجازيَكم على ما يظهرُ منكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ } ؛ اختلَفُوا فيهُ ؛ فقال بعضُهم : (مِن) ها هنا للتبعيضِ

، وأرادَ بذلك صيدَ البرِّ دون صيد البحرِ ، وصيدَ الإحرامِ دون الإحلالِ.
وقال بعضهم : (مِن) ها هنا للجنس كقوله تعالى : { فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ }[الحج : ٣٠] معناه : اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الذي هو وثَنٌ. وقال بعضُهم : أرادَ بقوله : (بشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) بما يكون من جزاءِ الصَّيد وإن لم يكن صَيداً كالبيضِ والفرخ والريشِ ، والآية شاملةٌ لجميع هذه المعانِي.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ } ؛ أي تأخذونَهُ بأيديكم من فراخِ الطَّير وصغار والوحش والبيضِ ، وما تصيبهُ رماحُكم من كبار الصَّيد التي لا تُصاد باليدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ } ؛ أي ليميِّزَ اللهُ مَن يخافهُ ممن لا يخافه في السرِّ بينه وبين اللهِ تعالى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ } ؛ أي من تجاوزَ الحدَّ في أخذ صيدِ البرِّ مع الإحرامِ ، وأخذ الصيد في الحرمِ بعد البيان له والنهيِ عنه ، { فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ يعني التعزيرَ والكفَّارة في الدُّنيا ؛ يفرق الضربُ على أعضائهِ كلِّها ما خلاَ الوجهَ والرأس والفرجَ ، فيضربُ ضَرباً وجيعاً ويؤمر بالكفَّارة ، ويكون هذا المتعدِّي مأخوذاً بعذاب الآخرة إن ماتَ قبل التوبة.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } ؛ رُوي أن هَاتين الآيتَين نزلَتا بالحديبيةِ ، وكان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مُحرِمين ، وكان الصيدُ من الوحشِ والطير يغشَى رحالَهم. وفي قوله { وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } وجهانِ ؛ أحدُهما : وأنتم مُحرِمون بحجٍّ أو عُمرة ، والثاني : وأنتم داخِلون في الحرَمِ.
وقولهُ تعالى : { لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ } دليلٌ على أن كلَّ ما يقتلهُ المحرِمُ من الصيدِ لا يكون مِلكاً ؛ لأن اللهَ تعالى سَمَّى ذلك قَتلاً ، ولا يجوزُ أكلُ المقتولِ وإنما يجوز أكلُ المذبوحِ على شرط الذكاة.
والصيدُ في اللغة : اسمٌ لكل مُمتَنعٍ متوحِّش ، فلا يفرقُ الحكمِ في وجوب الحلِّ بين المأكولِ منه وبين غيرهِ ، إلا أنه رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " خَمْسٌ فَوَاسِقَ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : الْحَيَّةُ ؛ وَالْعَقْرَبُ ؛ وَالْغُرَابُ ؛ وَالْفَأْرَةُ ؛ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ " وأرادَ بالكلب العقور : الذئبَ على ما وردَ في بعض الرواياتِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ } ؛ روي أنه نزلَ في كعب بن

عمرٍو ؛ عُرِضَ له حمارُ وحشٍ فطعنَهُ برُمحهِ فقتلَهُ ، ولم يكن عَلِمَ بنُزولِ التحريمِ.
واختلَفُوا في صفةِ العمل الموجب للجزاءِ والكفّارة في قتلِ الصيد ، فقال الأكثَرون من أهلِ العلم : سواءٌ قَتَلَ الْمُحرِمُ الصَّيدَ عَمداً أو خطأً فعليه الجزاءُ ، وجعلوا فائدةَ تخصيصِ العمل بالذِّكر في هذه الآيةِ ما في نَسخِها بقوله : { وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ } ؛ لأن المخطئَ لا يجوزُ أن يلحقه الوعيدُ.
والقول الثاني : ما رُوي عن قتادةَ وطاووس وعطاء ؛ أنَّهم قالوا : (لاَ شَيْءَ عَلَى الْخَاطِئ) وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاس.
والقولُ الثالث : وهو قولُ مجاهدٍ والحسن : (أنَّ الْمُرَادَ بهِ إذا قَتَلَهُ نَاسِياً لإحْرَامِهِ ، وَحَصَلَ الْقَتْلُ عَمْداً). وهذا القولُ يقتضي أن غيرَ العامدِ الذاكر لإحرامهِ لا يؤمَرُ بالكفَّارة ، ولكنَّ اللهَ يعاقبهُ في الآخرةِ على ما فعلَهُ. وعلى هذا التأويلِ قالوا : إنَّ معنى قولهِ : { وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ } أي عادَ إلى هذا الفعلِ من بعد العلمِ بالنهي ، كان عقوبتهُ النقمة ينتقمُ الله منه.
وقال آخَرون : هو القتلُ عَمداً وهو ذاكرٌ لإحرامه ، فحُكم عليه في العمدِ والخطأ الكفارةُ والجزاء ، وهو اختيارُ الشافعيِّ. وقال الزهريُّ : (نَزَلَ الْقُرْآنُ بالْعَمْدِ ، وَجَرَتِ السُّنَّةُ بالْخَطَأ). وقال ابنُ عبَّاس : (إنْ قَتَلَهُ عَمْداً سُئِلَ : هَلْ قَتَلَ قَبْلَهُ شَيْئاً مِنَ الصَّيْدِ ؟ فَإنْ قَالَ : نَعَمْ ؛ لَمْ يُحْكَمْ عَلَيْهُ ، وَيُقَالُ لَهُ : اذْهَبْ ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَإنْ قَالَ : لَمْ أقْتُلْ قَبْلَهُ شَيْئاً ، حُكِمَ عَلَيْهِ ، فَإنْ عَادَ إلَى قَتْلِ الصَّيْدِ ثَانياً وَهُوَ مُحْرِمٌ بَعْدَمَا حُكِمَ ، وَلَمْ يُحْكَمْ عَلَيْهِ ثَانِياً ، ويُمْلأُ بَطْنُهُ وَظَهْرُهُ ضَرْباً وَجيعاً). وعندَنا إذا عادَ حُكم عليه ثانياً ، وعليه الجمهورُ.

(٠/٠)

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ } ؛ أي أحِلَّ لكم اصطيادُ ما في البحرِ ، { وَطَعَامُهُ } ؛ أي ما لَفَظَهُ البحرُ وحسَرَ عنه الماءُ ، وهذا قول أبي بكرٍ وعمر وأبي هريرةَ. وقال بعضُهم : (طَعَامُهُ) هو الملحُ ؛ وهو قولُ سعيدِ بن جُبير وعكرمة والنخعي وقتادة.
وقولهُ تعالى : { مَتَاعاً لَّكُمْ } ؛ أي منفعةً لكم. وهو مصدرٌ مؤكِّد للكلامِ ؛ أن تَمتَّعوا مَتاعاً لكم. وقولهُ تعالى : { وَلِلسَّيَّارَةِ } ؛ أي ومنفعةٌ للمارَّة في السفر. قال ابن عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي مُدْلَجٍ ، كَانُوا أهْلَ صَيْدِ الْبَحْرِ ، أتَوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالُوا : إنَّا نَصْطَادُ فِي الْبَحْرِ ، وَرُبَّمَا يَعْلُو الْبَحْرُ وَرُبَّمَا مَدَّ الْبَحْرُ ، فَيَعْلُو الْمَاءُ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ يَرْجِعُ وَيَبْقَى السَّمَكُ بالأَرْضِ ، وَيَذْهَبُ

الْمَاءُ عَنْهُ فَنُصِيبُهُ مَدّاً ، فَحَلاَلٌ لَنَا أَكْلُهُ أَمْ لاَ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً } ؛ أي وحرَّمَ عليكم اصطيادَ ما في البرِّ. ويقالُ : عَينُ صيدِ البر ما دُمتم مُحرِمين ، ولا خلافَ في الاصطيادِ أنه حرامٌ على الْمُحْرِمِ في البرِّ ، فأما عينُ الصيدِ فإن صادَهُ حلالٌ بأمرِ الْمُحْرِمِ أو بإعانتِهِ أو دلالته وإشارتِهِ حَرُمَ على المحرمِ تناولهُ ، وإنْ صادَهُ حلالٌ بغيرِ أمر المحرمِ حلَّ للمحرم تناولهُ كما رُوي في حديث أبي قتادةَ ؛ قالَ : "كُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنَ الْمُحْرِمِينَ وَأَنَا حَلاَلٌ ، فَبَصُرْتُ بِحِمَارِ وَحْشٍ فَقُلْتُ : نَاوِلْنِي الرُّمْحَ ، فَأَبَوْا ، فَأَخَذْتُهُ وَأَتَيْتُ الصَّيْدَ ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ أَكْلِهِ فَقَالَ : " هَلْ أعنْتُمْ ؟ هَلْ أشَرْتُمْ ؟ هَلْ دَلَلْتُمْ ؟ " فَقَالُوا : لاَ ؛ فَقَالَ : " إذاً فَكُلُوا ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ؛ أي اتَّقوا اللهَ في أخذِ الصَّيد في الإحرامِ الذي إلى موضعِ جزائه تُبعثون.

(٠/٠)

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ } ؛ أي جعلَ الله الكعبةَ أمْناً للناسِ ، بها يقُومون ويأمنون ، وذلك أنَّ الرجلَ كان إذا أصابَ ذنباً في الجاهليَّة والإسلامِ ، أو قَتَلَ قتيلاً لجأَ إلى الحرمِ فأَمِنَ بذلك ، وكانت الكعبةُ قِوَاماً بمعايشِهم وعماداً لَهم في أمرِ دينهم ودُنياهم ؛ لِمَا يحصلُ في ذلك من الحجِّ والعُمرة والتجاراتِ ، وما يجيءُ إلى الحرمِ من ثَمرات كلِّ شيء.

وَقِيْلَ : معنى قولهِ : { قِيَاماً لِّلنَّاسِ } أي قِبلَةً لهم ، أمروا أن يقوموا في الصلاةِ متوجِّهين إليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ } أي جعلَ الشهر الحرامَ آمِناً أيضاً ، كانوا إذا دخلَ الشَّهرُ الحرامُ لم يقتُلوا فيه أحداً حتى يمضيَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْهَدْيَ وَالْقَلآئِدَ } ؛ جعل الهديَ الذي يُهدى إلى البيت أمناً للرِّفقة ، وجعلَ القلائدَ أمناً ، والقلائدُ البُدْنُ من البقرِ والإبل كانوا يقلِّدونَها بنعلٍ أو خُفٍّ ، وربَّما كانوا يقلِّدون رواحلَهم إذا رجَعوا من مكَّة من لحاءِ شجرِ الحرم فيأمَنون بذلك ، وكان أهلُ الجاهلية يأكلُ الواحد منهم القضيبَ والشجرَ من الجوع وهو يرَى الهديَ والقلائد فلا يتعرَّضُ له تَعظيماً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ؛

معناهُ : ذلك أمرُ الجاهلية دليلٌ أنه تعالى يعلمُ ما في السَّموات وما في الأرضِ وما فيه صلاحُ الخلقِ إذ جعلَ في أعظمِ الأوقات فَساداً يؤمَنُ به ، وشرعَ الحجَّ وفيه مصالِحُ الخلقِ على نحو ما تقدَّمَ.

(٠/٠)

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ لمن استحلَّ ما حرَّمَ اللهُ ، { وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ لمن تابَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ } ؛ أي ما على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إلاّ تبليغُ الرسالة في أمرِ الثواب والعقاب ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ } ؛ أي ما تُظهِرون من القولِ والعمل ، { وَمَا تَكْتُمُونَ } ؛ وليس على مُحَمَّدٍ طلبُ سرائرِكم ، ولا يعلمُ السرائرَ إلاّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(٠/٠)

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ : لا يستوِي الحلالُ والحرام ، { وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ } ؛ ولو أعجبكَ كثرةُ الحرامِ ، فمثقالُ حبَّة من الحلالِ أرجحُ عندَ الله من جبالِ الدُّنيا من حرامٍ.
وَقِيْلَ : مَعناهُ : ولا يستوِي الكافرُ والمؤمن ولو أعجبكَ كثرةُ الكافرِ ، والعدلُ والفاسقُ وإنْ كان في الفُسَّاقِ كثرةٌ ، ولا يبارِكُ في الحرامِ وإنما يبارِكُ في الحلالِ ، { فَاتَّقُواْ اللَّهَ ياأُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ أي اخشَوا عذابَ الله في أخذِ الحرام يا ذوي العقولِ ، لكي تفوزُوا بالنجاةِ والسَّعادات في الآخرةِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ }[آل عمران : ٩٧] قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَيْدٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أفِي كُلِّ عَامٍ؟

فَوَجَدَ مِنْ قَوْلِ ذلِكَ الرَّجُلِ وَجْداً شَدِيداً ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : [مَا كَانَ يُؤْمِنُكَ أنْ أقُولَ : نَعَمْ ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ فِي كُلِّ عَامٍ فَلاَ تُطِيقُوهُ ، فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ كَفَرْتُمْ ، ذرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ]).

وفي بعضِ الروايات : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَامَ خَطِيباً ، فَسَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ أشْيَاء ، فَقَالَ : " لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إلاَّ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ " ، فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ السُّؤَالَ حَتَّى سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْحَجِّ : أفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَأَعَادَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ ثَالِثاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لَوْ قُلْتُ لَكُمْ : نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ " فَقَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ : أفِي الْجَنَّةِ أنَا أمْ فِي النَّار؟! فَاشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : رَضِينَا باللهِ رَبّاً وَبالإسْلاَمِ دِيناً وَبكَ نَبيّاً ، نَعُوذُ باللهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَسَرَى عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الْغَضَبُ ".

وروي : " أن رجلاً قال يا رسولَ اللهِ أين أبي ؟ فقال : " فِي النَّار " ، فَقَامَ عُمَرُ رضي الله عنه وَقَالَ : رَضِينَا باللهِ رَبّاً وَبالإسْلاَمِ دِيناً وَبمُحَمَّدٍ نَبيّاً وَبالْقُرْآنِ إمَاماً ، إنَّا يَا رَسُولَ اللهِ حَدِيثُو عَهْدٍ بالْجَاهِلِيَّةِ فَاعْفُ عَنَّا عَفَا اللهُ عَنْكَ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ".

ورويَ : " أنَّ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ حُذافَةَ ، وَكَانَ يُطْعَنُ فِي نَسَبِهِ إذا لاَحَى ؛ أيْ يُدْعَى لِغَيْرِ أبيهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أبي ؟ قَالَ : " أبُوكَ حُذافَةُ ". قَالَ الزُّهْرِيُّ : فَقَالَتْ أمُّهُ : مَا رَأَيْتُ وَلَداً أعَقَّ مِنْكَ قَطْ! أكُنْتَ تَأْمَنُ أنْ تَكُونَ أمُّكَ قَارَفَتْ مَا قَارَفَ " نِسَاءُ " أهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَيَفْضَحَهَا عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ ".

وفي رواية أخرى : " أنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُ : " أبُوكَ حُذافَةُ " ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أبي فُلاَنٌ ، قَالَ : " إنَّكَ وَلَدُ الزَّانِيَةِ ، وَإنَّ الَّذِي وُلِدْتَ عَلَى فِرَاشِهِ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ ، فَتَعَرَّضَتْ أُمُّكَ لِحُذَافَةَ فَجَامَعَهَا فَاشْتَمَلَتْ بكَ " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ. ومعناها : يا أيُّها الذين آمَنوا باللهِ ورسولِهِ لا تسألُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن أشياء إنْ أظهرَ لكم جوابَها ساءَكم ، ذلك { وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ } ؛ وإنْ تسألوا عنها عندَ نُزول القرآنِ أظهرَ لكم جواباً ، { عَفَا اللَّهُ عَنْهَا } ؛ أي عن مسألَتِكم لم يؤاخذكم بالبحثِ عنها. ويقال : أراد بالعفوِ السترَ عليهم ، { وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ } ؛ أي متجاوزٌ عن العباد ، حليمٌ عن الجهَّال لا يعجِّلُ عليهم بالعقوبةِ.

(٠/٠)

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ } ؛ أي قد سألَ نحوَ هذه المسائل مَن قبلَكم ، قال ابنُ عبَّاس : (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُؤْمَرُواْ بِهَا ، فَإِذا بَيَّنُوا لَهُمْ حُكْمَهَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَعَذبَهُمُ اللهُ وَأَهْلَكَهُمْ بسَبَب ذلِكَ ، كَمَا سَأَلَ قَوْمُ عِيسَى الْمَائِدَةَ ثُمَّ كَفَرُوا ، وَسَأَلَ قَوْمُ صَالِحٍ النَّاقَةَ ثُمَّ عَقَرُوهَا وَكَفَرُواْ).

(٠/٠)

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ } ؛ أي لم يجعلِ اللهُ ما يقولهُ كفّار قريشٍ من تحريم البَحيرةِ والسَّائبة والوصيلةِ والحامِي ، { وَلَـاكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } ، ولكنَّهم هم الذين جعَلوا من ذاتِ أنفسهم ، واختلقوا على اللهِ بأنه حرَّم هذه الأشياء ، { وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } وهم السَّفَلَةُ والعوَامُّ لا يعقِلون ، بل يُقلِّدُون رُؤساءَهم فيما يقولون.

وأما تفسيرُ البَحِيرَةِ : كانت الناقةُ إذا نتَجت خمسةَ أبطُنٍ نظَرُوا ، فإنْ كان البطنُ الخامس ذكراً ذَبَحوهُ لآلهتِهم ، وكان لَحمهُ للرِّجال من سَدَنَةِ آلهتِهم ومن أبناءِ السَّبيل دونَ النِّساء ، وإن ماتَ قبل الذبحِ أكلَهُ الرجالُ والنِّساء ، وإن كان الخامسُ أنثى نَحرُوا أذُنَها ؛ أي شَقُّوها شَقّاً وَاسعاً وهي البَحِيرَةُ : لا تُركَبُ ولا تذبَحُ ولا تطرَدُ من ماءٍ ولا أكلٍ ، وألبانُها ومنافعُها للرِّجال من السَّدَنَةِ وأبناءِ السبيلِ دون النِّساء حتى تموتَ ، فاذا مَاتت اشتركَ فيها الرجالُ والنساء.

وأما السَّائبة : فكان إذا قَدِمَ الرجلُ من سَفَرٍ أو بَرِئَ من مرضٍ أو بنى بناءً ، سَيَّبَ شيئاً من إناثِ الأنعام وسلَّمها إلى سَدَنَةِ آلهتهم ، فيُطعمون منه أبناءَ السَّبيل من ألبانِها وأسمانِها إلاّ النساءَ ، فإنَّهم كانوا لا يُطعمونَهن منها شيئاً حتى تموتَ ، فإذا ماتت أكلَها الرجالُ والنساء جميعاً.

وأما الوَصِيلَةُ : فهي من الغَنم كانت الشاةُ إذا نَتجت سبعةَ أبطُن ، فإنْ كان البطنُ السَّابع ذكراً ذبَحوهُ

لآلهتهم ، وإنْ كانت أنثى صَنَعوا بها ما يصنَعون بالأُنثى من البَحِيرَةِ ، وإنْ كان ذكراً وأنثى قالوا : إنَّها وصَلَتْ أخَاها ، فلم تَذبح الذكرَ لمكانهِ منها ، وكان منافعُهما للرِّجال دون النساءِ من السَّدَنَةِ وأبناءِ السَّبيل الى أن يموتَ واحدٌ منهما فيشتركُ فيه الرجالُ والنساء.

وأما الْحَامِي : فهو الفحلُ إذا رَكِبَ ولدُ ولدهِ قالوا : قد حَمَى ظهرَهُ فلا يُركب ولا يحمل عليه ولا يُمنع من ماءٍ ولا مرعَى حتى يموتَ ، فيأكلهُ الرِّجالُ والنساء.

وقد رُوي عن زيدِ بن أسلمَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنِّي لأَعْرِفُ أوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ ، وَأوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ " ، قَالُوا : مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " عَمْرُو بْنُ لَحِي ، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّار يُؤْذِي أهْلَ النَّار بريحِ قُصْبِهِ. وَإنِّي لأَعْرِفُ أوَّلَ مَنْ بَحَّرَ الْبَحَائِرَ " ، قَالُوا : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : " رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدْلَجَ ، كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ فَجَدَعَ أذُنَيْهِمَا وَحَرَّمَ أَلْبَانَهَا ، ثُمَّ شَرِبَهُ بَعْدَ ذلِكَ ، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ فِي النَّار يَعَضَّانِهِ بأَفْوَاهِهِمَا وَيَخْبطَانِهِ بأَخْفَافِهِمَا ".

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قَالَ : " قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأَكْثَمَ الْخُزَاعِيَّ : " رَأيْتُ عَمْرَو ابْنَ لُحَي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّار ، فَمَا رَأيْتُ مِنْ رَجُلٍ أشْبَهَ برَجُلٍ مِنْهُ بكَ وَلاَ بكَ مِنْهُ ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ عليه السلام ، وَنَصَبَ الأَوْثَانَ ، وبَحَّرَ الْبَحِيرَةَ ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ ، وَحَمَى الْحَامِي ، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ فِي النَّار يُؤْذِي أهْلَ النَّار بريحِ قُصْبِهِ " ، قَالَ أكْثَمُ : يَا رَسُولَ اللهِ أيَضُرُّنِي شَبَهُهُ ؟ فَقَالَ : " إنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ ".

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ } ؛ معناهُ : إذا قيلَ لأهلِ مكة هَلُمُّوا إلى تحليلِ وتحريم ما أنزَلَ اللهُ في كتابه وبيَّنَهُ الرسولُ في سُننه ، قالوا : يَكفينا ما وجَدنا عليه آباءَنا من الدِّين والسُّنة ، يقولُ اللهُ تعالى : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً } ؛ من الدِّين والسُّنة ، { وَلاَ يَهْتَدُونَ } ؛ الطريقَ المستقيمَ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } ؛ أي الزَمُوا أنفُسَكم واحفظوها كما يقال : عليكَ زَيداً ، فتنصبُ زَيداً على الإغراءِ بمعنى : الزَمْ زَيداً ، كأنَّهُ تعالى قال : عليكم أيُّها المؤمنون بإصلاحِ أنفُسِكم ، ومتابعةِ سُنَّة نبيِّكم ، فإنكم إذا فعلتُم ذلك لا يضرُّكم ضلالةُ مَن ضلَّ من أهلِ مكة إذ هُديتم أنتم ، { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ } ؛ في الآخرةِ ، { جَمِيعاً } ؛ البرُّ والفاجرُ ، والمؤمنُ والكافر ، { فَيُنَبِّئُكُمْ } ؛ فيجزيكم ؛ { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ من خيرٍ أو شرٍّ.

ورُوي عن السَّلف في تأويلِ هذه الآية أحاديثُ مختلفة الظواهرِ ، وهي متفقةٌ في المعنى ، فمِنها ما رُوي عن أبي بكرٍ رضي الله عنه قال على المنبرِ : أيُّها النَّاسُ ، إنِّي أرَاكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " مَا مَنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ بالْمَعَاصِي فَلَمْ يُغَيِّرُوهَا إلاَّ يُوشِكُ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعِقَابِهِ "

وعن أبي أمَامَةَ قالَ : سَأَلْتُ أبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ : لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبيراً ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لِي : " يَا أبَا ثَعْلَبَةَ ائْتَمِرُوا بالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَإذا رَأيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحّاً مُطَاعاً ، وَإعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ برَأيِهِ ، فَعَلَيْكَ بنَفْسِكَ ، فَإنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أيَّامَ الصَّبْرِ ، وَالصَّابرُ فِيهَا كَالْقَابضِ عَلَى الْجَمْرِ ، وَالصَّبْرُ فِيْهَا كَالْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، وَالْمُتَمَسِّكُ فِيهَا بمِثْلِ الَّذِي أنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ عَامِلاً مِنْكُمْ ".

ففي هذه الأخبار دليل على أنَّ فرضَ الأمرِ بالمعروف والنهيَ عن المنكرِ لا يسقطُ إلاَّ عند العجزِ عن ذلك. كما رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إذا رَأى أحَدُكُمْ مُنْكَراً وَاسْتَطَاعَ أنْ يُغَيِّرَهُ فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبلِسانِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبقَلْبِهِ ، وذَلِكَ أضْعَفُ الإيْمَانِ "

وحكي : أنَّهُ لَمَّا مَاتَ الْحَجَّاجُ قَالَ الْحَسَنُ رضي الله عنه : (اللَّهُمَّ أنْتَ أمَتَّهُ فَاقْطَعْ عَنَّا سُنَّتَهُ ، فَإنَّهُ أتَانَا أخَيْفِشُ أعَيْمِشُ ، يَمُدُّ بيَدٍ قَصِيرَةٍ ، وَاللهِ مَا عَرِقَ فِيهَا فِي سَبيلِ اللهِ عَنَانٌ ، يَرْجُلُ جُمَّتَهُ وَيَتَبَخْتَرُ فِي مِشْيَتِهِ ، وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فَيَهْدِرُ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلاَةُ ، لاَ مِنَ اللهِ يَتَّقِي وَلاَ مِنَ النَّاسِ يَسْتَحْيِي ، فَوْقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَحْتَهُ مِائَةُ أَلْفٍ أوْ يَزِيدُونَ ، لاَ يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ : الصَّلاَةُ أيُّهَا الرَّجُلُ. ثُمَّ جَعَلَ الْحَسَنُ يَقُولُ : هَيْهَاتَ ، وَاللهِ حَالَ دُونَ ذلِكَ السَّيْفُ وَالسَّوْطُ). وفي هذا الخبرِ دليلٌ أن السَّلفَ كانوا مُعذُورينَ في ذلك الوقتِ في تركِ الإنكار باليدِ واللِّسان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ثَلاثَةِ نَفَرٍ ، خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ لِتِجَارَةٍ ، أَحَدُهُمْ : عَدِيُّ بْنُ بَدَّاءِ ، وَالآخَرُ عَامِرُ بْنُ أَوْسٍ الدَّارِيُّ ، وَهُمَا نَصْرَانِيَّانِ ، وَالثَّالِثُ بَدِيلُ بْنُ وَرْقَاءَ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَكَانَ مُسْلِماً مُهَاجِراً ، فَحَضَرَ بَدِيلَ بْنُ وَرْقَاءَ الْوَفَاةُ وَكَانَ مُسْلِماً ، فَأَوْصَى إِلَى صَاحِبَيْهِ ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَدْفَعَا مَتَاعَهُ إِلَى أَهْلِهِ إذا رَجَعَا ، فَمَاتَ بَدِيلُ فَفَتَّشَا مَتَاعَهُ ، وَأَخَذا مِنْهُ إِنَاءً مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشاً بالذهَب كَانَ فِيهِ ثَلاَثُ ُمِائَةِ مِثْقَالٍ.

فَلَمَّا قَدِمَا الْمَدِيْنَةَ وَسَلَّمَا الْمَتَاعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَجَدَ أَهْلُهُ كِتَاباً فِي دُرْجِ الثِّيَاب فِيْهِ أَسْمَاءُ الأَمْتِعَةِ ، قَالُوا لَهُمَا : هَلْ بَاعَ صَاحِبُكُمَا شَيئاً مِنْ مَتَاعِهِ ؟ قَالاَ : لاَ ، فَهَلْ طَالَ مَرَضُهُ فَأَنْفَقَ شَيْئاً ؟ قَالاَ : لاَ ، إِنَّمَا مَرِضَ حِينَ قَدِمَ الْبَلَ َدَ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ. فَقَالَ لَهُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَالْمُطَّلِبُ ابْنُ أبي وَدَاعَةَ : فإِنَّا وَجَدْنَا فِي مَتَاعِهِ صَحِيفَةً فِيهَا تَسْمِيَةً مَتَاعِهِ ، وَفِيْهَا إِنَاءٌ مَنْقُوشٌ مُمَوَّهٌ بالذهَب فِيْهِ ثَلاَثُمِائَةِ مِثْقَالٍ. قَالاَ : مَا نَدْري ، إِنَّمَا أَوْصَى إِلَيْنَا بشَيْءٍ وَأَمَرَنَا أَنْ نَدْفَعَهُ إِلَيْكُمْ فَدَفَعْنَاهُ. فَرَفَعُوهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَذَكَرُوا ذلِكَ لَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

ومعناها : يا أيُّها الذين آمَنوا شهادةُ الحالِ الذي بينكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ فأراد الوصيَّةَ شهادةُ اثنين ذوي عدلٍ منكم ؛ أي من أهل دينِكم. وهذه جملةٌ تامَّة تتناولُ حكمَ الشَّهادة على الوصيَّة في الحضر والسفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ } ؛ مقيَّدٌ بالسَّفرِ خاصَّة ، معناهُ : أو آخَران من غير أهل دينكم ، { إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ } ؛ إن أنتم سافَرتُم في الأرضِ ، { فَأَصَابَتْكُم } ؛ في السَّفرِ ، { مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ } ؛ ولم يكن يحضرُكم مسلمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ } ؛ أي تَقِفونَهما وهما النصرانيَّان ، والمرادُ بقوله : { بَعْدِ الصَّلاَةِ } بعد صلاةِ العصر كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقضي بعدَ صلاة العصرِ وهو وقتُ اجتماعِ الناس ، وأهلُ الكتاب يعظِّمونَهُ ، { فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً } ؛ أي الشَّاهدان النصرانيان يَحلفان باللهِ إذا ادَّعى عليهما ورثةُ الميِّت بسبب شأنِهم في جِنايتهما ، ويقولان في اليمينِ :

لاَ نشتري بهذا القول الذي نقولهُ بأنا دفَعنا المالَ جميعه إليكم عَرَضاً يَسِيراً من الدُّنيا ، { وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } ؛ أي وإن كان الميْتُ ذا قرابةٍ منَّا في الرَّحِمِ ؛ أي لم نَخُنْ في التِّركة لقرابته منَّا. رُوي أنه كان بين الميْتِ المسلمِ وبين هذين النصرانيين قرابةٌ في الرَّحِم ، ومعنى قوله : { إِنِ ارْتَبْتُمْ } أي شَكَكْتُمْ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ } ؛ أي ويقولون في اليمينِ : ولا نكتمُ شهادةَ اللهِ ، { إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الآَثِمِينَ } ؛ أي العاصِين إنْ كتمنَاهما كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى

(٠/٠)

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ } يعني يومَ القيامةِ ، ونُصِبَ (يَوْمَ) على إضمار اذكُروا واحذرُوا ، ويحتمل أنه انتصبَ بقولهِ { وَاتَّقُوا الله } ، والسُّؤال للرسلِ توبيخٌ للذين أرسِلُوا إليهم ، كما في قوله تعالى{ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ }[التكوير : ٨] إنما تُسأل الموءودَةُ لتوبيخِ قاتِلها.
وأما قولُ الرسلِ : (لاَ عِلْمَ لَنَا) ، فقال ابنُ عبَّاس والحسن والسديُّ ومجاهد : (إِنَّ هَذا الْجَوَابَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ زَفْرَةِ جَهَنَّمَ ، وَجُثُوِّ الأُمَمِ عَلَى الرُّكَب ، لاَ يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلاَّ قَالَ : نَفْسِي نَفْسِي ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَطِيرُ الْقُلُوبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا ، فَتَقُولُ الرُّسُلُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ الْمَسْأَلَةِ وَهَوْلِ الْمَوْطِنِ : لاَ عِلْمَ لَنَا) { إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } ؛ تُرجِعُ إليهم عقولُهم ، فيشهَدُون على قومِهم أنَّهم بلَّغوهم الرسالةَ ، وأنَّ قومَهم كيف ردُّوا عليهم.
فإن قِيْلَ : كيف يصحُّ ذُهول العقلِ مع قولهِ تعالى{ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ }[الأنبياء : ١٠٣] قِيْلَ : إن الفزعَ الأكبرَ دخولُهم جهنَّم. وعن ابنِ عبَّاس : (أَنَّ مَعْنَى : لاَ عِلْمَ لَنَا ؛ أَيْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا) ، فَحُذِفَ الاسْتِثْنَاءُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لا علمَ لنا بتفصيلِ الأمُور.

(٠/٠)

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي

فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ } ؛ معناهُ : واذكُروا أيُّها المؤمنون { إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى } ، ويجوز أنْ يكون عَطفاً على قولِهِ : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ } تقديرهُ : إذ يقولُ الله : يا عيسَى بنَ مريَم ، إلاَّ أنه ذكرَهُ بلفظ الماضِي لتقديم ذكرِ الوقت.

ومعنى الآيةِ : أظْهِرْ مِنَّتِي عليكَ بالنبوَّة وعلى أمِّك بأن طهَّرتُها واصطفيتُها على نساءِ العالَمين ؛ ليكون حجَّة على من كَفَرَ وادَّعاكَ إلهاً ، فيكون ذلك حسرةً وندامةً عليهم يومئذٍ. والفائدةُ في ذكرِ أمِّهِ : أنَّ الناس تكلَّمُوا فيها كما تكلَّمُوا فيه.

ثم عدَّ الله نِعمَةً نعمةً : { إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ } ؛ أعَنتُكَ وقرَّبتُكَ بجبريلَ الطاهر حين حاولَتْ بني إسرائيل قتلَكَ ، ويقال : أيَّدتُكَ به في الحجَّة في كلِّ أحوالِكَ.

وقوله تعالى : { ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ } انتصبَ (ابْنَ مَرْيَمَ) لأنه مُنادَى مضافٌ ؛ أي يا عيسى يا ابنَ مريمَ ،

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ } معناهُ : اذكر نِعمَتي ، لفظة واحدةٌ ومعناها الجمعُ ، كقوله تعالى : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا }[إبراهيم : ٣٤] أي نِعَمَ اللهِ ، لأنَّ العددَ لا يقعُ على الواحدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً } ؛ أي تكلِّمُ الناسَ في حِجْرِ أمِّكَ في حالِ صِغَرِكَ ، وتخاطبُهم كَهلاً بعد ثلاثين سَنة ، على صفةٍ واحدة واحداً واحداً ، وذلك من أعظمِ الآيات.

ويقال : أرادَ بالمهدِ الذي يُربَّى فيه الطفلُ حين قال لَهم وهو في المهدِ : { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً }[مريم : ٣٠]. قال الكلبيُّ : (مَكَثَ فِي رسَالَتِهِ بَعْدَ ثَلاَثِيْنَ سَنَةً ثَلاَثِينَ شَهْراً ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ). وَقِيْلَ : ثلاثَ سنين ، ثم رُفع إلى السَّماء وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سَنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ } ؛ أي علَّمتُكَ كُتبَ الأنبياء قبلَك والفهمَ ، ويقال : أرادَ بالكتاب الخطَّ بالقلمِ ، وأرادَ بالحكمةِ كلَّ صوابٍ منهنَّ من قول أو فعلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي } ؛ معناهُ : إذ تُصوِّرُ من الطينِ كَشِبهِ الْخُفَّاشِ بأمرِي ، { فَتَنفُخُ فِيهَا } ؛ أي في الهيئةِ ، { فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي } ؛ يطيرُ بين السَّماء والأرضِ بأمرِ الله ، ويكون النفخُ كنفخِ الرَّاقِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي } ؛ الأكمَهُ : الذي وُلد أعمَى ، والأَبْرَصُ : الذي لا تعالِجهُ الأطبَّاء ، وهو الذي إذا غُرزَ الإبرةَ لا يخرجُ منه الدَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي } ؛ أي الموتَى تخرِجُهم من قُبورهم احياءَ بإرادتي ، والمرادُ أنَّ الله تعالى كان يأذنُ له في المسألةِ والدُّعاء ، فيقعُ ذلك عن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ } ؛ معناه وإذ صَنعتُ (صَرَفْتُ) أولادَ يعقوب عنكَ حين

هَمَّوا بقتلِكَ ، { إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالمعجزاتِ الدالَّة على رسالتِكَ ، { فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَاذَا } ؛ أي ما هذا الذي يُرينا عيسى ، { إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } ؛ سحرٌ ظَاهِرٌ. ومن قرأ (سَاحِرٌ مُبينٌ) أراد به عيسَى عليه السلام.

(٠/٠)

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي } ؛ معناهُ : وإذ ألْهَمْتُ الحواريِّين وهم خَوَاصُّ عيسى ، وألقيتُ في قلوبهم : أن صدِّقوا بتوحيدِي وبرَسولي ، { قَالُواْ آمَنَّا } ؛ وصدَّقنا ، { وَاشْهَدْ } ؛ يا عيسَى ، { بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } ؛ أي مُخْلِصُون بالعبادة والتوحيدِ.

(٠/٠)

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ } ؛ كأنه قالَ : اذكُرْ نِعمَتِي عليكَ إذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ.

وقولهُ تعالى : { هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ }. قرأ الكسائيُّ (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) بالتاءِ بإدغام ونصب الباءِ من رَبَّكَ ، أي هل تقدرُ أن تسأَلَ رَبَّكَ؟.

وقد رُوي عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالت : (كَانَ الْحَوَارِيُّونَ أعْلَمَ باللهِ مِنْ أنْ يَقُولُوا : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ؟) وفيه ثلاثةُ أقوالٍ :

أحدهم : أنَّ هذا السؤالَ كان في ابتداءِ أمرهم قبل أن تَستحكِمَ معرفتُهم باللهِ تعالى ولذلك أنكرَ عليهم عيسَى عليه السلام فقال : (اتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) لأنه لم يُسْتَكْمَلَ إيمانُهم في ذلك الوقتِ.

والقولُ الثاني : أنَّ معناهُ : هل يفعلُ ذلك كما يقول الرجلُ لآخرَ : هل تستطيعُ أن تقومَ معي في أمرِ كذا ؟ أي هل أنتَ فاعلهُ؟

والقولُ الثالث : أنَّ معناهُ : هل يستجيبُ لكَ ربُّكَ ؟ وهل يُطِيعُكَ إنْ سألتَهُ ؟ كما تقولُ : استجابَ

بمعنى أجابَ.
وَالْحَوَارِيُّونَ : خواصُّ أصحاب عيسى عليه السلام. قال الحسنُ : (كَانُوا قَصَّارينَ) وقال مجاهدُ : (كَانُوا صَيَّادِينَ) وَقِيْلَ : كانوا مَلاَّحِينَ. وقال قتادةُ : (الْحَوَارِيُّونَ : الْوُزَرَاءُ) وقال عكرمة : (هُمُ الأَصْفِيَاءُ) وكانوا اثنَى عشرَ رجُلاً.

(٠/٠)

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا } ؛ أي قال الحواريُّون : نريدُ بما سألناكَ أن نأكُلَ من المائدةِ ، وتسكُنَ قلوبُنا بما جِئتَنا به من المعجزاتِ ، { وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا } ؛ بأنَّكَ رسولُ الله ، وَقِيْلَ : صَدَقْتَنَا في دُعائك ، وفيما دَعوتَنا من كفايةِ الله تعالى إيانا ، { وَنَكُونَ عَلَيْهَا } ؛ على المائدةِ ؛ { مِنَ الشَّاهِدِينَ } ؛ إذا رجَعنا إلى قومِنا.

(٠/٠)

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا } ؛ أي قال عيسَى : يا الله ، إلاَّ أنه أقيم الميمُ في آخرهِ مقامَ النداءِ في أوَّلِهِ ، وقوله : { أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ } أي طَعاماً ، { تَكُونُ لَنَا عِيداً } أي نتَّخذُ اليومَ الذي تنْزِلُ فيه المائدةُ يومَ سُرورٍ لأزمَانِنا ولمن يكون خلفَنا. ورُوي : (أنَّ نُزُولَ الْمَائِدَةِ كَانَ في يَوْمِ الأَحَدِ ، فَاتَّخَذتِ النَّصَارَى ذلِكَ الْيَوْمَ عِيداً). وقرأ زيدُ ابن ثابت : (لأُوْلاَنَا وَأُخْرَانَا).
وقولهُ تعالى : { وَآيَةً مِّنْكَ } ؛ أي تكون المائدةُ دَلالة وحجةً لِمَنْ آمنَ على مَن كفرَ ، { وَارْزُقْنَا } ؛ أي اجعَلْ ذلك رزقاً لنا ، وَقِيْلَ : ارزُقنا الشُّكرَ عليه ، { وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } ؛ وأنتَ أفضلُ الْمُعْطِينَ والموفِّقين.

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ } ؛ أي قالَ اللهُ : يا عيسَى إنِّي مُنزِلٌ المائدةَ عليكم. قرأ أهلُ المدينة والشامِ وقتادة وعاصم : (مُنَزِّلُهَا) بالتشديدِ ؛ لأنها نزَلت مِرَاراً ، والتفعيلُ يدلُّ على التكثيرِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ كقوله تعالى{ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً }[الإسراء : ١٠٦], وقرأ الباقون بالتخفيفِ كقوله : (أنزِلْ عَلَيْنَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ } ؛ أي فمَن يكفُرْ بعدَ نُزول المائدةِ ، وَقِيْلَ : بعد ما أكَلَ من المائدةِ ، فإنِّي أُعذِّبهُ بجنسٍ من العذاب لا أعذِّبُ أحداً من عالَمي زمانِهم بذلك العذاب ، وهو أن جعلَ اللهُ مَن كَفَرَ منهم بعد نزول المائدة خنازيرَ. وَقِيْلَ : أرادَ بهذا عذابَ الآخرةِ ، كما رُوي عن ابنِ عمر أنه قالَ (أشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ : الْمُنَافِقُونَ ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أصْحَاب الْمَائِدَةِ ، وَآلَ فِرْعَوْنَ).

ورُوي عن ابنِ عبَّاس في سبب نُزول المائدةِ : (أنَّ عِيسَى كَانَ إذا خَرَجَ اتَّبَعَهُ خَمْسَةُ آلاَفِ رَجُلٍ أوْ أكْثَرُ مِنْ أصْحَابِهِ الّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِ ، وَأهْلُ الزَّمَانَةِ وَالْمَرْضَى والبطارة ، فَسَلَكَ بِهِمْ ذاتَ يَوْمٍ الْقِفَارَ ، فَفَنِيَ طَعَامُهُمْ وَجَاعُواْ جُوعاً شَدِيداً ، فَأَعْلَمَ النَّاسُ تَلاَمِيذهُ الْحَوَارِيِّينَ قَالُواْ : إنْ كَانَ صَاحِبُكُمْ حَقّاً فَلْيَدْعُ رَبَّهُ يُنَزِّلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، فَكَلَّمَهُ فِي ذلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ يُقَالُ لَهُ : شَمْعُونَ الصَّفَّارُ ، فَقَالَ : قُلْ لَهُمْ يَتَّقُوا اللهَ وَلاَ يَسْأَلُوا لأَنْفُسِهِمْ الْبَلاَءَ ، فَإِنَّهُمْ إنْ كَفَرُوا بَعْدَ نُزُولِهَا عَاقَبَهُمُ اللهُ.

فَأَخْبَرَهُمْ شَمْعُونُ بذلِكَ ، فَقَالُواْ : (نُرِيدُ أنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَا).

فَقَامَ عِيسَى عليه السلام فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ : (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ) ، ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ فَوْقَهَا مَنديلُ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْهَا وَعِيْسَى يَبْكِي ، حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الْمَائِدَةُ بَيْنَ يَدَي عِيسَى وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً ، ثُمَّ كَشَفَ الْمِنْدِيلَ وَقَالَ : بِسْمِ اللهِ ، فَإذا عَلَى الْمَائِدَةِ سَمَكَةٌ مَشْوِيَّةٌ لاَ شَوْكَ فِيهَا ، وَالْوَدَكُ يَسِيلُ مِنْهَا ، وَالْخَلُّ عِنْدَ رَأْسِهَا ، وَالْمِلْحُ عَنْدَ ذنبَهَا ، وَعَلَيْهَا أرْبَعَةُ أرْغِفَةٍ ، وَعَلَيْهَا الْبَقُولُ إلاَّ الكُرَّاثُ – قالَ عطيَّةُ : (كَانَ فِي السَّمَكَةِ طَعْمُ كُلِّ شَيْءٍ).

فَقَالَ لَهُمْ عِيسَى : كُلُوا مِنْ رزْقِ رَبكُمْ ، فَأَكَلُواْ مِنْهَا ، وَرَجَعَتِ الْمَائِدَةُ كَمَا كَانَتْ ، فَلَمَّا فَرَغَ الْقَوْمُ إلَى قَرَارِهِمْ ، وَبَشَّرُوا هَذا الْحَدِيثَ لِسَائِرِ النَّاسِ ، ضَحِكَ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ ، وَقَالَ : وَيْحَكُمْ! إنَّهُ قَدْ سَحَرَ أعْيُنَكُمْ وَأخَذ بقُلُوبكُمْ. فَمَنْ أرَادَ اللهُ بِهِ الخَيْرَ ثبَّتَهُ عَلى الصَّبْرِ ، وَمَنْ أرَادَ فِتْنَتَهُ رَجَعَ إلَى كُفْرِهِ ، فَلَعَنَهُم

عِيْسَى فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ ، ثُمَّ أصْبَحُوا خَنَازِيرَ يَنْظُرُ النَّاسُ إلَيْهِمْ ، الذكَرُ ذكَرٌ وَالأُنْثَى أنْثَى وَيَلْعَنُوهُمْ ، فَمَكَثُوا كَذَلِكَ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ ثُمَّ هَلَكُواْ ، وَلَمْ يَتَوَالَدُواْ وَلاَ طَعِمُواْ وَلاَ شَرِبُواْ).

وقال بعضُهم : لَمَّا دعَا عيسى ربَّهُ أن يُنزِّلَ عليهم مائدةً من السَّماء ، أقبَلت الملائكةُ بمائدةٍ يحملونَها ، عليها سبعةُ أرغفةٍ وسبعةُ أحْوَاتٍ حتى وضَعُوها بين أيديهم ، فأكلَ منها آخرُهم كما أكلَ أوَّلُهم.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ معطوفٌ على قولهِ : { إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ }[المائدة : ١١٠] ويجوزُ أن يكون عَائداً على ما تقدَّم من قولهِ : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ }[المائدة : ١٠٩] كأنه قالَ : إذ يقولُ الله يومَ القيامةِ ، وفي آخرِ السُّورة ما يدلُّ على هذا ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ اللَّهُ هَاذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ }[المائدة : ١١٩] وذكرَ اللفظَ على صيغةِ الماضي ؛ لتحقُّقِ أمرهِ كأنه قد وقَعَ وشُوهِدَ ، ونظيرهُ{ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ }[الأعراف : ٤٤] وقوله : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ }[إبراهيم : ٢٢] أي سيَقُولُ.

وقال السديُّ وقطرب : (إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِعِيسَى عليه السلام هَذا الْقَوْلَ حِينَ رَفَعَهُ) ، واحتجَّا بقولهِ : { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ }[المائدة : ١١٨] ، ولا خلافَ أنَّ الله لا يَغفِرُ لِمُشرِكٍ ماتَ على شِركهِ ، وإنما معنى الآية : وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ بتَوْبَتِهِمْ.

وقال أكثرُ المفسِّرين : إنَّما يقولُ الله تعالى هذه المقالةَ يوم القيامةِ ، بدليلِ ما ذكَرنا من قولهِ : { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ }[المائدة : ١٠٩] ، { يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ }[المائدة : ١١٩] ، فإن قالوا (إذْ) للماضي ، قُلنا قد تكون بمعنى (إذا) كقوله : { وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ }[سبأ : ٥١] أي إذا فَزِعوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ } يعني أأنتَ قُلتَ لَهم في الدُّنيا : { اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ } ؟ فإنْ قيلَ : ما وجهُ سؤالِ الله تعالى لعيسَى مع علمهِ بأنه لم يقُلْ ؟ قِيْلَ : ذلكَ توبيخٌ لقومِ عيسى وتحذيرٌ لهم عن هذه المقالةِ. وَقِيْلَ : أرادَ الله بذلك أن يُقِرَّ عيسَى بالعبوديَّة على نفسهِ ، فيظهرُ منه تكذيبُهم بذلك ، فيكون حجَّةً عليهم.

قال أبو رَوْقٍ وميسرةَ : (إذْ قَالَ اللهُ لِعِيسَى عليه السلام : أأنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ ارْتَعَدَتْ مَفَاصِلُهُ ، وَانْفَجَرَتْ مِنْ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْ جَسَدِهِ عَيْنٌ مِنَ الدَّمِ).

ثُمَّ يَقُولُ عِيسَى عليه السلام مُجيباً اللهَ عَزَّ وَجَلَّ : { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } ؛ أي تَنزيهاً لكَ يا رب ، ما ينبغِي لي أن أدَّعي شيئاً لستُ بجديرٍ له ، { إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي } ؛ عندي وما في ضَمِيري ، وما كان منِّي في الدُّنيا ، { وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } ؛ غَيبكَ ، { إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } ؛ لا يعلمُ الغيبَ أحدٌ غيرُكَ. وَقِيْلَ : معناهُ : تعلمُ ما أريدُ ، ولا أعلمُ ما تريدُ ، { إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } أي ما كانَ وما يكون.

وأمَّا ذِكْرُ النفسِ في قوله : { وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } فعلى من أوجُه الكلامِ : بأن الغيبَ من اللهِ تعالى في حُكمِ الضميرِ من الآدميِّين ، والنَّفْسُ في كلامِ العرب على ضُروب ؛ تُذكَرُ ويرادُ بها ذاتُ الشيءِ ، كما يقالُ : جاءَني زيدٌ نفسُه ؛ أي ذاتهُ ، وقتَلَ فلانٌ نفسَهُ ، وأهلَكَ فلان نفسَهُ ، ويرادُ بذلك الذاتُ بكمالِها.

(٠/٠)

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ } ؛ أي ما قُلت لهم شيئاً إلاّ القولَ الذي أمَرتَني به ، { أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } ؛ أو وحِّدوهُ وأطيعوهُ ، { وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ } ؛ معناهُ : فلمَّا قبَضتَني إليك من بينِهم ، ورفَعتَني إلى السَّماء كنتَ أنتَ الحفيظَ عليهم ، { وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } ؛ من مقالَتي ومقالتِهم ، مطَّلعٌ عالِمٌ مشاهدٌ.

وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أن معنى قولهِ : { فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي } أمَتَّني ، وقالوا : إنَّ عيسى ليس بحيٍّ في السَّماء. إلاّ أنَّ القولَ الأولَ أشهرُ ، ويحتمل أنَّ الله تعالى أمَاتَهُ ، ثم أحياهُ ورفعَهُ إلى السَّماء.

وقال الحسن : (الْوَفَاةُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى عَلَى ثَلاَثَةِ أَوْجُهٍ : وَفَاةُ الْمَوْتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا }[الزمر : ٤٢] ، وَوَفَاةُ النَّوْمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ }[الأنعام : ٦٠] أيْ يُنيمُكُمْ ، وَوَفَاةُ الرَّفْعِ كَقَوْلِهِ : { ياعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ }[آل عمران : ٥٥].

(٠/٠)

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ } ؛ قرأ الحسنُ : (عَبْدُكَ) ، قِيْلَ : معناهُ التبعيضُ ؛ أي إن تُعذِّبَ الذين أقَامُوا على الكفرِ فإنَّهم عبادُك ، { وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ } ؛ للَّذين أسلَمُوا وتابوا ، { فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ لأنه قالَ : { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ }[المائدة : ١١٦] ، وما قلتُ لهم ، وفيهم المسلمون والمشركون ، فقوله : { إِن تُعَذِّبْهُمْ } راجعٌ إلى الكافرين ، وقوله : { وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ } راجعٌ إلى المؤمنين.

عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في معنى هذه الآيةِ : (وَإِنْ تُعَذِّبْهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الَّتِي أجْزَمُوهَا فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ يَتُوبُوا فَتَغْفِرَ لَهُمْ). قولهُ : { فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ، أي المنيعُ في مغفرتِكَ لهم لا يمنعُكَ أحدٌ مما تريدُ ، الحكيمُ في أمرِكَ.

فإنْ قيلَ : ظاهرُ الآية يقتضي سؤالَ المغفرةِ للكفَّار ، واللهُ لا يغفِرُ أن يُشركَ به ، فما معنى هذا السؤالِ ؟ قِيْلَ : يحتملُ أنه لم يكن في كتابهِ : إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ بهِ ، ويحتملُ أن يكون معناهُ : إنْ تغفِرْ لهم كَذِبَهم الذي قالوا عليَّ.

وَقِيْلَ : إنَّ عيسى عَلِمَ أنه منهم مَن آمنَ ، ومنهم من أقامَ على الكفرِ ، فكأنه قالَ : إن تعذِّب الكفارَ منهم فإنَّهم عبادُكَ ، وأنت القادرُ عليهم ، وإنْ تغفِرْ لِمَن تابَ منهم فذلك تفضُّلٌ منكَ ؛ لأنه كان لكَ أن لا تفعلَ ذلك بهم بعد عظيمِ فِريَتِهم عليكَ ، وكان هذا القولُ من عيسَى عليه السلام على وجهِ الخضوعِ والانقيادِ والاستسلام على معنى أنَّكَ أنتَ المالكُ والقادر على كلِّ شيء ، فلذلك قالَ : { فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ولو كان قالَ : فإنك أنتَ الغفورُ الرحيم ، لأوْهَمَ الدعاءُ بطلب المغفرة والرحمةِ.

ورُوي : أنه لَمَّا نزَلت هذه الآيةُ ، " أخْيَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَتَهُ بهَا ، وَكَانَ بهَا يَقُومُ وَبهَا يَقْعُدُ وَبهَا يَسْجُدُ ، ثُمَّ قَالَ : " أمَّتِي أمَّتِي يَا رَب " ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ فَقَالَ : إنَّ اللهَ تَعَالَى يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ لَكَ : " إنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءَكَ ".

(٠/٠)

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قَالَ اللَّهُ هَاذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } ؛ مَن قرأ (يَوْمُ) بالرفعِ فمعناهُ : قالَ اللهُ لعيسَى عليه السلام هذا يومُ ينفع النبيِّين صدقُهم بتبليغِ الرسالة ، والمؤمنين إيمانُهم الذي هو صدقٌ في الدنيا والآخرةِ ، ولا ينفعُ الكفارَ صِدقُهم في الآخرةِ.

ومن قرأ (يَوْمَ) بالنصب فعلى الظرفِ ، على معنى : قالَ اللهُ لعيسى هذا القولَ الذي تقدَّم ذِكرهُ في يومِ ينفعُ الصادقين صدقُهم. وقال الكلبيُّ : (مَعْنَى الآيَةِ : قالَ اللهُ : هَذا يَوْمُ يَنْفَعُ الْمُؤمِنِينَ إيْمَانُهُمْ) ، وَقِيْلَ : ينفعُ الصَّادقين في الدُّنيا صِدقَهم وفي الآخرةِ. وقرأ الأعمشُ (هَذَا يَوْمٌ) بالتنوينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ أي بساتينُ تجري من تحت شجرها وغُرَفها الأنهارُ ، { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } ؛ أي إلى الأبدِ ، { رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ } ؛ بإيمانِهم وطاعتهم ، { وَرَضُواْ عَنْهُ } ؛ بإكرامِهم في الجنَّة النجاةَ الوافرة. وحقيقةُ الفوز نيلُ المرادِ. قوله عزّ وَجَلَّ : { وَرَضُواْ عَنْهُ } أي بما أكرمهم به من الثواب ، { ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } أي ذلكَ الثوابُ والخلود في الجنَّة النجاةُ الوافرة ، وحقيقةُ الفوز نيلُ المرادِ.

(٠/٠)

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { للَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ } ؛ أي للهِ خزائنُ السَّموات والأرضِ ، وما فيهنَّ من الخلقِ ، يُعطي من شاءَ ما شاءَ ، ويغفرُ لِمَن يشاءُ ، ويعذِّبُ مَن يشاءُ ، { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ مما يريدُ بعبادهِ من المغفرةِ والعذاب قادرٌ.

والغرضُ من هذه الآيةِ نفيُ الربُّوبية عن عيسَى عليه السلام ، وبيانُ أنَّ الله تعالى هو المستحقُّ للعبادةِ دونَ غيره ، فإنه هو القادرُ على كلِّ شيءٍ من الجزاء ؛ تَرغيباً في الطاعةِ ؛ وتَحذيراً عن المعصيةِ.

وعن أبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْمَائِدَةِ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ يَتَنَفَّسُ فِي الدُّنْيَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمُحِيَ عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ "

(٠/٠)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } ؛ قال كعبُ الأحبار : وأولُّ مفتاحِ التوراة (الحمدُ لله الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ) ، وخاتِمتُها خاتِمة سورة هُود{ وَللَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }[هود : ١٢٤]. قال مقاتلُ : (قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ رَبُّكَ ؟ قَالَ : { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } فَكَذَبُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى حَامِداً نَفْسَهُ دَالاً عَلَى تَوْحِيْدِهِ : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } أي خلقَ السَّموات بما فيها من الشَّمسِ والقمر والنجوم ، والأرضَ بما فيها من البَرِّ والبحر ؛ والسَّهلِ والجبل ؛ والنَّباتِ والشجَر ، خلقَ السموات وما فيها في يومين ؛ يومِ الأحدِ ويوم الاثنين ؛ وخلقَ الأرضَ وما فيها في يومين ؛ يومِ الثلاثاء ويوم الأربعاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } ؛ قال السديُّ : (ظُلْمَةَ اللَّيْلِ وَنُورَ النَّهَار). وقال الواقديُّ : (كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور فَهُوَ الْكُفْرُ وَالإِيْمَانُ ؛ إلاَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَإِنَّهُ يُرِيْدُ بِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ). قال قتادةُ : (يَعْنِي الْجَنَّةَ وَالنَّارَ). وقال الحسنُ : (يَعْنِي الْكُفْرَ وَالإِيْمَانَ).

وقيل : خلقَ الليلَ والنهار لمصالحِ العباد ؛ يستريحون باللَّيل ويبصرون معايشَهم بالنهار. وإنَّما جَمَعَ (الظُّلُمَاتِ) ووحَّدَ (النُّورَ) لأن النورَ يتعدَّى ، والظلمةَ لا تتعدَّى.

وقال أهلُ المعاني : (جَعَلَ) ها هنا صلةٌ ؛ والعربُ تزيد (جَعَلَ) في الكلامِ كقول الشاعرِ : وَقَدْ جَعَلْتُ أَرَى الاثْنَيْنَ أَرْبَعَةً وَالْوَاحِدَ اثْنَيْنِ لَمَّا هَدَّنِي الْكِبَرُوتقديرُ الآية : { الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } والظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. وقيلَ : معناهُ : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) ؛ لأنه خَلَقَ الظلمةَ والنورَ قبل السمواتِ والأرض. وقال قتادةُ : (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ قَبْلَ الأَرْضَ ، وَالظُّلْمَةَ قَبْلَ النُّور ، وَالْجَنَّةَ قَبْلَ النَّار).

وقال وهبُ : (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ مَكَاناً مُظْلِماً ، ثُمَّ خَلَقَ جَوْهَرَةً فَأَضَاءَتْ ذلِكَ الْمَكَانَ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْجَوْهَرَةِ نَظَرَ الْهَيْبَةِ ، فَصَارَتْ مَاءً وَارْتَفَعَ بُخَارُهَا وَنبَذ زَبَدُهَا ، فَخَلَقَ مِنَ الْبُخَار السَّمَواتِ ؛ وَمِنَ الزَّبَدِ الأَرْضِيْنَ).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } ؛ أي (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بَعْدَ هذا البيان (بربِهِمْ يَعْدِلُونَ) الأوثانَ ؛ أي يُشْرِكُونَ. وقيل : معناهُ : (يَعْدِلُونَ) أي يجعلون لله عَدِيْلاً ويعبدون الحجارةَ والأموات ؛ وهم يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ خالقُ هذه الأشياءِ ، فالأصنامُ لاَ تَعْقِلُ شيئاً من ذلك.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

َقَوْلَهُ تَعَالَىَ : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً } ؛ معناهُ : خلقَكُم منَ آدمَ عليه السلام ، فأخرجَ الخطابَ له ؛ لأنَّهم ولَدَهُ ، قال السُّديُّ : (لَمَّا أرَادَ اللهُ خَلْقَ آدَمَ ، بَعَثَ جِبْرِيْلَ إِلَى الأَرْضِ لِيَأْتِيَهُ بِطَائِفَةٍ مِنْهَا ، فَاسْتَعَاذتِ الأَرْضُ باللهِ أنْ يَنْقُصَ مِنِّي ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ. فَبَعَثَ مِيْكَائِيْلَ ؛ فَاسْتَعَاذتْ ، فَبَعَثَ مَلَكَ الْمَوَتِ ؛ فَاسْتَعَاذتْ باللهِ مِنْهُ ؛ فَقَالَ : وَأَنَا أَعُوذُ باللهِ أنْ أُخَالِفَ أمْرَهُ ، فَأَخَذ مِنْ وَجْهِ الأَرْضِ ، فَخَلَطَ السَّوْدَاءَ وَالْبَيْضَاءَ وَالْحَمْرَاءَ ؛ فَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ الأَلْوَانُ ؛ أَلْوَانُ بَنِي آدَمَ ، ثُمَّ عَجَنَهَا بالْمَاءِ الْعَذْب وَالْمِلْحِ وَالْمِسْكِ ؛ فَلِذلِكَ اخْتَلَفَتْ أَخْلاَقُهُمْ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلَكِ المَوْتِ : رَحِمَ جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيْلُ الأَرْضَ وَلَمْ تَرْحَمْهَا ؛ لاَ جَرَمَ أنْ أجْعَلَ أَرْوَاحَ مَنْ أَخْلُقُ مِنْ هَذا الطِّيْنِ بَيِدِكَ).

وروى أبو هريرةُ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، وَجَعَلَهُ طِيْناً ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى كَانَ حَمَأً مَسْنُوناً ، ثُمَّ خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إذا كَانَ صَلْصَالاً كَالْفَخَّار ؛ مَرَّ بِهِ إبْلِيْسُ لَعَنَهُ اللهُ ، فَقَالَ : خُلِقْتَ لأَمْرٍ عَظِيْمٍ. ثُمَّ نَفَخَ اللهُ فِيْهِ الرُّوح ".

قَوْلَهُ تَعَالَى : { ثُمَّ قَضَى أَجَلاً } أي خَلَقَكُم مِن آدمَ عليه السلام { ثُمَّ قَضَى أَجَلاً } أي جعلَ لِحياتكُم وفاةً تحيونَ فيه وهو مُدَّةُ كلِّ واحدٍ منَّا مِنْ يومِ يولدُ إلى يومِ يَموت. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ } ؛ أي مدَّة انقضاء الدُّنيا إلى أنْ تقومَ الساعةَ ؛ ولا يعلمُ وقتَ قيامِها إلاَّ اللهُ. وقال مجاهدُ وابن جبير : (ثُمَّ قَضَى أجَلاً) يَعْنِي أجَلَ الدُّنْيَا { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ } وُهُوَ الآخِرَةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ } أي ثُمَّ أنتُم بعدَ هذا البيان تَشُكُّونَ في موضعٍ ليس هو موضعُ الشَّكِّ. وَالْمِرْيَةُ هي الشَّكُّ الْمُجْلِبُ بالشُّبهة ؛ أصلُها مِن : مَرَيْتُ النَّاقَةَ إذا مَسَحْتَ ضَرْعَهَا لِيَنُزَّ لَبَنُهَا ، وَيَجْلِبَهُ لِلْحَلْب.

(٠/٠)

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ } ؛ معناه : هو اللهُ المعبود المنفردُ بالتدبيرِ في السَّموات والأرضِ ، العالِمُ بما يُصْلحهما وبما يعملُ فيهما. يعلمُ جهرَكم وسرَّ أعمالِكم وعلانيةَ أموركم ، { وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } ؛ أي ما تعلمونَ مِن خيرٍ وشرٍّ. وعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ؛ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قَرَأَ مِنْ أَوَّلِ سوُرَةِ الأَنْعَامِ ثَلاَثَ آيَاتٍ إِلَى قَوْلِهِ : { وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } وَكَّلَ اللهُ بِهِ أرْبَعِيْنَ مَلَكاً يَكْتُبُونَ لَهُ مِثْلَ عِبَادَتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْزِلُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مَعَهُ مَرْزَبَةٌ مِنْ حَدِيْدٍ ، فَإِذا أرَادَ الشَّيْطَانُ أنْ يُوَسْوسَ لَهُ ؛ ضَرَبَهُ

بَها ضَرْبَةً كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سَبْعُونَ حِجَاباً ، فَإِذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : امْشِ فِي ظِلِّي ؛ وَكُلْ مِنْ ثِمَار جَنَّتِي ؛ وَاشْرَبْ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ ؛ وَاغْتَسِلْ مِنْ مَاءِ السَّلْسَبِيْلِ ؛ وَأَنْتَ عَبْدِي وَأَنا رَبُّكَ ".

(٠/٠)

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ } ؛ أي ما تأتي كفَّارَ مكةَ من دلائلِ التوحيد والنبوَّة ؛ مثلَ كسُوف الشمسِ والاستسقَاء ، وكسوفِ القمرِ والدُّخان ؛ إلا كانوا عن هذهِ الآيات والعلامات معرضينَ مكذِّبين تاركين لَها.

(٠/٠)

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } ؛ أي فقد كَذبَ أهلُ مكة بُمحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ ؛ وبما رَأوْهُ من انفلاق القمَر بمكةَ ، كما رويَ عن ابنِ مسعود (أنَّ الْقَمَرَ انْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ حَتَّى رَأواْ اجْرَابَي فِلْقَتَي الْقَمَرِ ، ثُمَّ ذهَبَتْ فِلْقَةٌ وَبَقِيَتْ فِلْقَةٌ).
وقَوْلَهُ تَعَالَى : { فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } هذا وعيدٌ لَهم ؛ أي سيعلمون ما يَؤولُ إليه عاقبةُ استهزائِهم بالرُّسُلِ والكُتُب والآيات التي كانت تأتيهم ، فَقَتَلَهُمُ اللهُ يومَ بَدْرٍ بالسَّيف ، ويأتيهم خبرُ استهزائهم حين يرون العذابَ ومعاينةَ. والنبأُ عبارةٌ عن خَبَرِ الَّذي لهُ عِظَمٌ وشَأْنٌ.

(٠/٠)

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ } ؛ أي ألَمْ يعلم أهلُ مكَّة كم أهلَكنا من قبلهم من قرنٍ بكفرهم ، مثلَ قومِ نُوح وعَاد وثَمود, { مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ } ؛ وأمهلناهم في العُمْرِ والولد ورفعِ الموانع ما لَمْ نُمْهلْ لكم ، { وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً } ؛ أي فأنزلنا عليهم المطرَ دَارّاً دائماً يتبعُ بعضُه بعضاً ، { وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ } ؛ " أي مِنْ تَحْتِ " أشجارِهم وبساتينهم ، فلم يشكرُوا وعَصَوا ربَّهم وكذبوا رسلَهُم ، { فَأَهْلَكْنَ&#١٦٤٨;هُمْ بِذُنُوبِهِمْ } ؛ بكفرهم وتكذيبهم ، { وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ } ؛ أي مِن بعدِ هلاكِهم ، { قَرْناً } ؛ قَوْماً ، { آخَرِينَ } ؛ فسكَنُوا ديارَهم ، ثم بُعِثْتْ إليهم الرُّسلُ ، فمن لم يأخُذْ بِملَّةِ الرُّسُل ومنهاجهم أهلكَهم الله. والقَرْنُ – في قول أكثرِ المفسِّرين – : أهلُ عَصْرٍ واحِد ، سُمُّوا قَرْناً ؛ لاقترانهم في قَرْنٍ واحد. ويقالُ : أهلُ كلِّ عصرٍ فيهم نبيٌّ أو عالِمٌ ، لاقترانِهم بالنبوَّة والعلم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُمْ " وأرادَ بالقرن ، الأوَّل : الصَّحابةَ ، وبالثاني : التابعين ، وبالثالِث : تابعِي التابعين. اختلفُوا في مدَّة القرن ؛ قال بعضُهم : ثَمَانُونَ سنَةً ، وقيل : مِائةُ سنةٍ ، وبين القرنين ثَمَانِي عشرةَ سنَةً.

(٠/٠)

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ } ؛ قال ابن عباس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أَبي أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيِّ ؛ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَنَّكَ رَسُولُهُ). وقال مقاتلُ والكلبيُّ : (نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَعَبْدِاللهِ ابْنِ أبي أُمَيَّةَ ، وَنَوْفَلِ بْنِ خُوَيْلِدٍ ؛ قَالُواْ لِلنَّبِيِّ صلى لله عليه وسلم : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَنَّكَ رَسُولُهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي) صَحِيْفَةٍ وعلَّقناهُ بين السَّماءِ والأرضِ ينظرون إليه ويعاينونَه ويلمسونَه بأيديهم ، { لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ كفَّارُ مكَّة بعد معاينةِ ذلكَ : { إِنْ هَاذَآ } ؛ مَا هَذَا ؛ { إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي كما قالُوا في انشقاقِ القَمَرِ : { سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ }[القمر : ٢] وفي الآية بيانُ أنَّهم كانوا مُعاينين مصرِّين على التكذيب.

(٠/٠)

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ } ؛ أي قالُوا : لولا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ مَلَكٌ نشاهدُه ونعاينُه يخبرنا بأنه نبِيٌّ ، يقولُ تعالى : { وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً } كما سألوهُ فكذبوا لعذبناهُم بعذاب الاستئصال { ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ } أي لا يؤجَّلون ولا يُمْهَلُونَ بعدَ نزولِ الآية المقترحة ، نحوَ ما ذكرَ اللهُ تعالى في قصَّة قومِ صالحٍ وغيرِهم. قال الضحَّاك : (مَعْنَاهُ : لَوْ أَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَتِهِ لَمَاتُوا).

(٠/٠)

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } ؛ أي لو أرسَلنا إليهم رسُولاً من الملائكةِ لأرسلناهُ في صورةِ الإنسان ؛ لأنَّهم لا يستطيعون النظرَ إلى الملائكَةِ ؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى هلاكِهم ؛ وليكونَ الشكلُ إلى الشكلِ أميلَ ، وبه الذهن إلى الفهمِ عنه أقربَ ، وإلى القَبول منه أسرع ، ولو نظرنا إلى الْمَلَكِ على هيبتهِ لصُعِقْنَا.

وقد كانتِ الملائكةُ تأتِي الأنبياء فِي صورة الإِنسانِ ؛ من ذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام كان يأتِي النبِيَّ صلى الله عليه وسلم في صورةِ دحية الْكَلْبِيَّ ، وجاءتِ الملائكةُ إلى إبراهيمَ عليه السلام في صورةِ الضَّيفين ، وجاءتِ الملائكةُ إلى داودَ عليه السلام في صورة رَجُلَيْنِ يختصمان إليه ، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } أي لو أنزلنا إليهم مَلَكاً لجعلنا ذلكَ في صورةِ الرَّجُلِ أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } أي اخْتَلَطْنَا وشَبَّهْنَا عليهم ما يَخْلُطُونَ على أنفسِهم حتى شَكُّوا ؛ فلا يدرونَ أمَلَكٌ هو أم رجُلٌ ؟ وهذا لأنَّهم أنكرُوا نبوَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بعدَما عرفُوه بالصدقِ والأمانةِ ، ثم لَبَسُوا على أنفسهم وعلى ضَعَفَتِهِمْ ؛ فقالوا : إنَّما هو بَشَرٌ ، فلو نزلَ الملَك على صورةِ رجلٍ لَلَبَسُوا على أنفسهم أيضاً فلم يقبلُوا منه وقالوا : إنهُ في مِثْلِ صورَتنا!

(٠/٠)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ } ؛ أي اسْتَهْزَأتِ الأممُ الماضية بأنبيائِهم كما اسْتَهْزَأ بكَ يا مُحَمَّدُ قومُكَ ، { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } ؛ أي نَزَلَ بهم وحَلَّ بالمستهزئين من الكفَّار عقوبةُ استهزائهم بالكتاب والرسُول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.
وقال الضَّحاك : (كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم جَالِساً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ : بلاَلٍ وَصُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَغَيْرِهِمْ ، فَمَرَّ بِهِمْ أَبُو جَهْلٍ فِي مَلإٍ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَقَالَ : تَزْعُمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ هَؤُلاَءِ مُلُوكُ الْجَنَّةِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ لِيُثَبِّتَ فُؤَادَهُ وَيَصْبِرَ عَلَى أذى الْمُشْرِكِيْنَ). أي إن سَخِرَ أهلُ مكَّة من أصحابكَ ، فقد فَعَلَ ذلك الجهلةُ برسلِهم قبلكَ.
وَالْحَيْقُ في اللُّغة : مَا اشْتَمَلَ عَلَى الإِنْسَانِ مِنْ مَكْرُوهِ فِعْلِهِ ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ }[فاطر : ٤٣]. وأما الاستهزاءُ فهو إيْهَامُ التَّفْخِيْمِ بِمَعْنَى التَّحْقِيْرِ.

(٠/٠)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ سافِرُوا في الأرضِ ، ثم انظرُوا بأبصاركم وتأمَّلوا بقلوبكم كيفَ صارَ إجرامُ المكذِّبين بالرُّسل والكتب مِثْلُ عَادٍ وَثَمُودُ وَغَيْرِهِمُ ، الذينَ عذبَهم اللهُ تعالى بعذاب الاستئصال ، وكانت آثارُ ديارهم باقيةً قريبةً من مكَّة. وقال الحسنُ : (مَعْنَى { سِيرُواْ فِي الأَرْضِ } أي اقْرَأوا الْقُرْآنَ وَتَفَكَّرُواْ فِيْهِ ، فَإِنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَفَكَّرَ فِيْهِ فَكَأَنَّهُ سَارَ فِي الأَرْضِ).

(٠/٠)

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل للَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ لكفار مكَّة : لِمَنْ مُلْكُ ما في السَّموات والأرضِ ، فإنْ أجابوكَ وقالوا : الله ، وإلا فَقُلْ لَهم " الله " إذ هُم يعلمونَ ويُقِرُّونَ أن الأصنامَ لا تَملك خَلْقَ شيء ، وإنَّما اللهُ يَمْلِكُ ذلك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } أي أوْجَبَ على نفسهِ الرَّحمةَ فضلاً وكَرَماً. أو قيل : معناهُ : أوجبَ على نفسهِ الثوابَ لِمن أطاعَهُ ؛ وقيل : أوجبَ على نفسهِ الرحمةَ بإمهالِ مَن عصاهُ ؛ ليستدركَ ذلك بالتوبةِ ولم يُعَاجِلْهُ بالعقوبةِ ، وهذا استعطافٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ للمُتَوَلِّيْنَ عنه إلى الإقبالِ ، وإخبارٌ بأنه رَحِيْمٌ بعبادهِ لا يُعَجِّلُ عيهم بالعقوبة ، ويقبلُ منهم الإنابةَ والتوبةَ.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ ؛ كَتَبَ فَوْقَ الْعَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ". وقال عمرُ رضي الله عنه لكعب الأحبار : (مَا أَوَّلُ شَيْءٍ ابْتَدَأَ اللهُ بِهِ ؟ فَقَالَ كَعْبٌ : كَتَبَ اللهُ كِتَاباً لَمْ يَكْتُبْهُ بقَلَمٍ وَلاَ مِدَادٍ ؛ كِتَابُهُ الزُّبَرْجَدُ وَاللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتَ : إنِّي أنا اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أنا ، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي).

وفي الخَبرِ : أنَّ للهِ تعالى مائة رحمةٍ كلُّها مِلْءُ السَّموات والأرضِ ، فأهبطَ اللهُ تعالى منها رحمةً واحدة لأهلِ الدُّنيا ، فهم بها يتراحَمون ؛ وبها يتعاطَفون ؛ وبها يتراحمُ الإنس والجنُّ وطيرُ السَّماء وحيتانُ الماء ؛ وما بين الهواء ودواب الأرض وهوامِّها ، وأخَّرَ تِسْعاً وتسعين رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ } ؛ بدلُ من الرحمةِ وتفسيرٌ لَها ، فكأنَّهُ قالَ : لَيَجْمَعَنَّ بين المؤمنينَ والكفار ، بين المؤمنِ والكافر في الرِّزق والنِّعمةِ والدَّولةِ إلى يوم القيامة ، لا شَكَّ فيه عند المؤمنينَ أنهُ حقٌّ كائنٌ ، ثم تكونُ العاقبةُ بَدَلَ البعثِ للمؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ } ؛ ابتدأ كلامَهُ ؛ وجوابهُ { فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ لأنَّ (الَّذِيْنَ) في موضعِ شرطٍ ؛ وتقديرُ الآية : الذين غَبَنُوا أنفسَهم وأهليهم ومنازلَهم وخَدَمَهُمْ في الجنَّة في سابق عِلْمِ الله لا يؤمنونَ ؛ أي لا يُصَدِّقُونَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قولَه تعالى : { لَيَجْمَعَنَّكُمْ } كلامٌ مبتدأ على وجهِ القَسَمِ ، و(الَّذِيْنَ) بدلٌ من الكافِ والميم في (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) ، كأنهُ قال : لَيَجْمَعَنَّ هؤلاءِ المشركين { الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ } إلى هذا اليومِ الذي يجحدونَه ويكفُرونَه. ويحتملُ أن يكونَ قولهُ : { الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ } راجعاً إلى المكذِّبين ، كأنهُ قال : عاقبةُ المكذبين { الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ }.

(٠/٠)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } قال ابنُ عبّاس : (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ أتَوا رَسُولَ اللهِ صلى عليه وسلم فَقَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ إلاَّ الحَاجَةَ ، فَنَحْنُ نَجْعَلُ لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أغْنَانَا رَجُلاً ، وَتَرْجِعُ عَمَّا أنْتَ عَلَيْهِ. فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ),

ومعناهُ : ولله مُلْكُ ما استقرَّ { فِي الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ } من الخلائقِ كلِّهم ، وهذا اللفظُ يشتمل على جميعِ المخلوقات ؛ لأنَّ من الحيوانات ما يَتَصَرَّفُ بالنهار ويسكنُ بالليل ، ومنها ما يتصرفُ بالليل ويسكنُ بالنَّهار. وقال محمدُ بن جُرير : "كُلُّ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ فَهُوَ مِنْ سَاكِنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ، وَالْمُرَادُ : جَمِيعُ مَا فِي الأَرْضِ ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى إلاَّ وَهُوَ سَاكِنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ).

وقال أهلُ المعاني : في الآية إضمارٌ تقديرهُ : ولهُ ما سَكَنَ وتَحَرَّكَ في الليلِ والنهار. فإن قيلَ : فَلِمَ قالَ : { وَلَهُ مَا سَكَنَ } ولَمْ يَقُلْ : ولهُ ما تَحَرَّكَ ؟ قيلَ : لأنَّ الساكنَ في الأَشياءِ أعمُّ ؛ لأنهُ ما من مُتَحَرِّكٍ إلا وسَكَنَ ؛ وفي الأشياءِ الساكنة ما لا يتحركُ البَتَّةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } معناهُ : السميعُ لِمَقَالَةِ الكفَّار ، الْعَلِيْمُ بهم وبعقوبَتِهم. ويقالُ : هو السميعُ للأصواتِ والأقوال ، العليمُ بالأشياءِ والأرزَاق.

(٠/٠)

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : أسِوَى اللهِ أَعْبُدُ رَبّاً وأتَّخِذُ نَاصراً ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } أي خالِقُهُما ومُبْدِعُهُما ، قال ابنُ عبَّاس : (مَا كُنْتُ أدْري مَا (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) حَتَّى أتَانِي أعْرَابِيَّان يَخْتَصِمَانِ في بئْرٍ ، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أنا فَطَرْتُهَا ، أي ابْتَدَأتُهَا ، يَعْنِي ابْتَدَأتُ حَفْرَهَا).

قَوْلَهُ تَعَالى : { وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ } ؛ أي يرزقُ ولا يُرزق ولا يُعاوَن على الرِّزق. وقرأ الأعمشُ : (وَلاَ يَطْعَمُ) بفتحِ الياء ؛ أي يرزقُ ولا يَأْكُلُ ؛ أي لا يجوزُ عليه الحاجةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ } انخفضَ لأنه نعتٌ لا اسمٌ لله تعالى ، ويجوزُ نَصْبُهُ على معنى : أعْنِي فَاطِرَ السموات ، ويجوزُ رفعه على إضمار (هُوَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : إنِّي أمِرْتُ أن أكُونَ

أوَّلَ من أخلصَ لله بالتوحيدِ والعبادة من أهلِ هذا الزَّمان.
قَوْلُهُ تَعَالَىَ : { وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ؛ لا يجوزُ أن يكونَ عطفاً على قولهِ : { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } لأنه غيرُ مأمورٍ بأن يقولَ : { وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } وإنَّما هو نَهْيٌ معطوف على أمرٍ من حيثُ المعنى دون اللَّفظ ؛ لأنَّ معنى الآيةِ : قِيْلَ لِي كذا : أوَّل من أسلمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

(٠/٠)

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } أي قُلْ يا مُحَمَّد : إِنِّي أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ عَصَيْتُ رَبي وعبدتُ غيرَه ، أن يُنْزِلَ بي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ شأنهُ وهو يومُ القيامةِ.

(٠/٠)

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ } ؛ أي مَنْ يُصْرِفُ اللهُ عنه العذابَ العظيمَ يوم القيامةِ فقد رَحِمَهُ ، { وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ } ؛ أي النجاةُ الوافرة الظَّاهرة. قرأ أهلُ الكوفة إلا حَفْصاً : (مَنْ تَصْرِفُ) بفتحِ التَّاء وكسرِ الراء ؛ وتفسيرهُ ما ذكرناه. وقرأ الباقون (يُصْرَفُ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ ؛ أي من يُصرف عنهُ العذابَ بأمرِ الله ؛ فقد سبقت رحمةُ اللهِ له بإيجاب الثَّواب.

(٠/٠)

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ } ؛ إنْ يُصِبْكَ اللهُ بفقرٍ أو مَرَضٍ أو بلاء ،

فلا يقدرُ أحدٌ من الأصنام وغيرِها على كَشْفِ ذلك الضُّرِّ إلا اللهُ ، وإنَّما أطلقَ هذا اللفظ وإن كان يُتَصَوَّرُ أن يكشفَ الإنسانُ عن صاحبه كُرْبَةً من الْكُرَب ؛ لأن كاشفَ الضُّرِّ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى ، إمَّا أن يكشفه بفضلهِ أو نسبةً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ } ؛ أي بفَضْلٍ وسَعَةٍ في الرزق وصحَّة في الجسمِ ، فلا مُزِيْلَ لَها إلا هُوَ. إلا أنهُ لَمْ يَقُلْ : فلا مزيلَ لَها إلا هوَ ؛ لأنه لَمَّا أكَّدَ هذا في الضُّرِّ دلَّ على هذا في الخيرِ فاستغنَى عن إعادتهِ. وإنَّما قال (يَمْسَسْكَ) مع أن كون الْمَسِّ المعيَّن من صفةِ الأجسام ؛ لأنَّ المعنى يَمْسَسْكَ اللهُ تعالى الضَّرَرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ } ؛ أي لا يقدرُ أحدٌ أن يَمْنَعَهُ عن فعلِ ما أرادَ فِعْلَهُ من كَشْفِ ضُرٍّ أو غيرِه.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : " أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَرَاءَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى بَغْلَةٍ ، فَلَمَّا سَارَ بي مَلِيّاً الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ لِي : " يَا غُلاَمُ ". قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ ، وَإِذا سَأَلْتَ فَسْأَلِ اللهَ ، وَإِذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَقَدْ مَضَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَوْ جَهِدَ الْخَلاَئِقُ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِمَا لَمْ يَقْضِ اللهُ لَكَ ؛ مَا قَدِرُواْ عَلَى ذلِكَ ، وَلَوْ جَهِدُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِمَا لَمْ يَكْتُب اللهُ عَلَيْكَ ؛ لَمَا قَدِرُواْ عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ : أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ مَعَ الْكَرْب الْفَرَجُ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ".

(٠/٠)

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } ؛ أي هو الغالبُ على أمرِ عباده. والقَهْرُ : هُوَ الاسْتِعْلاَءُ بالاقْتِدَارِ عَلَى الْغَلَبَةِ. وأراد بقولهِ : (فَوْقَ) أنَّهم تحتَ التسخير والتذليل عمَّا علاَهم من الاقتدارِ عليهم ، لا ينهاكَ أحدٌ منهم. قولهُ : { وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } ؛ أي الْمُحْكِمُ لصنعِهِ ؛ الخبيرُ بأعمال الخلقِ.

(٠/٠)

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ أتَوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَقَالُواْ : يا مُحَمَّدُ ؛ أمَا وَجَدَ اللهُ رَسُولاً يُرْسِلُهُ غَيْرُكَ؟! مَا نَرَى أحَداً يُصَدِّقُكَ بمَا تَقُولُ ؛ وَلَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؛ فَزَعَمُواْ أنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَهُمْ ذِكْرٌ وَلاَ صِفَةٌ وَلاَ نَعْتٌ ، فَأَرِنَا مَنْ شَهِدَ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ كَمَا تَزْعُمُ. فأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : أيُّ أحدٍ أعظمُ وأعدلُ برهاناً وحجَّةً ؟ فإن أجابوكَ وقَالوا : اللهُ ، وإلاَّ فَقُلْ : اللهُ أكْبَرُ شَهَادَةً مِن خَلْقِهِ ، وهو شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، بأنِّي رسولُ اللهِ ، وأنَّ هذا القرآنَ كلامهُ.

والشاهدُ هو الْمُبَيِّنُ للدعوَى ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى دعوَى رسولِهِ بالبراهين والمعجزات والآيَات الدالَّةِ على توحيدِ الله ونبوَّة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَاذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ } ؛ معناهُ : أُنْزِلَ إِلَيَّ هَذا الْقُرْآنُ لأُخَوِّفَكُمْ به بما فيه من الدلائلِ ؛ وأخبار الأُمَم السَّالفةِ ؛ والإنباءِ بما يكونُ ؛ والتأليفِ الذي عَجَزَ عنه العربُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ بَلَغَ } أي وَأَنْذِرْ مَن بَلَغَهُ القرآنُ سواكم من العَجَمِ ، وغيرِهم من الجنِّ والإنس إلى أن تقومَ الساعةَ ؛ لأنه ليس من بَعْدِ القرآنِ كتابٌ ، ولا من بعدِ مُحَمَّدٍ رسولٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ } ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ ؛ أي إنْ كنتم تشهدونَ بإثباتِ شريكٍ لله ؛ فأنا لا أشهدُ بما تشهدونَ به. وإنَّما قالَ : (أُخْرَى) ولَمْ يَقُلْ أُخَرُ ؛ لأن الجمعَ تُذَكَّرُ بلفظ وحْدَانِ التأنيث ، كما قالَ تعالى : { قَالَتِ الأَعْرَابُ }[الحجرات : ١٤] ومثله كثيرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَاهٌ وَاحِدٌ } ؛ لا شريكَ له ولا وَلَدَ ، { وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } ؛ بهِ من الأصنَامِ والأوثان.

(٠/٠)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ } ؛ أي الذين أعطيناهُمْ التوراةَ والإنجيلَ يعرفون مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم بما يجدونَه مكتوباً عندهم من صِفَتِهِ ونَعْتِهِ ، كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ إذا رأوهم بين الغِلْمَانِ. كما روي في الخبرِ : (أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه قالَ لِعَبْدِالله بْنِ سَلاَمٍ : يَا أَبَا حَمْزَةَ ؛ أَتَعْرِفُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم كَمَا تَعْرِفُ ابْنَكَ ؟ قَالَ : يَا عُمَرُ ؛ إنَّ مَعْرِفَتِي بِهِ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بابْنِي ؛ لأنَّ أمِيْنَ السَّمَاءِ – يَعْنِي جِبْرِيْلَ قَدْ جَاءَ بنَعْتِهِ إلَى أمِيْنِ الأَرْضِ وَهُوَ مُوسَى عليه

السلام. فَقالَ عُمَرُ : وَكَيْفَ ذلِكَ ؟ قَالَ : أشْهَدُ أنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتابنَا فَعَرَفْتُهُ ، وَأَمَّا ابْنِي فَلاَ أدْري مَا أحْدَثَ النِّسَاءُ بَعْدِي. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : وَفَّقَكَ اللهُ يَا ابْنَ سَلاَمٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ ابتداءُ كلامٍ معناهُ : وَالَّذِينَ غَبَنُوا أنفسَهم بذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم ، وهم المعاندونَ الذين يعرفون ويَجْحَدُونَ مِنْ رؤساءِ اليهود والنصارَى ، فهم لا يُقَرِّونَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ.

(٠/٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } ؛ معناهُ : أيُّ أحدٍ أظْلَمُ في فاحشةٍ أتاهَا مِمَّنِ اختلقَ على الله كَذِباً بإضافتهِ إلى الله ما لَمْ يُضِفْهُ إلى نفسهِ من صفة أو أمرٍ وقَوْلٍ ، وهم الذين إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أمَرَنَا بهَا ؛ قُلْ : إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بالْفَحْشَاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } أي بدَلاَئِلِهِ ؛ { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي لا يُؤْمَنُ من عذاب الله ولا يَصِلُ إلى مُراده ؛ وبُغْيَتِهِ القومُ الكافرون.

(٠/٠)

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } ؛ أي وَاذْكُرُوا يومَ نَبْعَثُ الكفَّارَ وآلِهَتَهُمْ جميعاً للحساب والجزاء. وقال بعضُهم : الواوُ عاطفةٌ على قوله : { لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }[الأنعام : ٢١] كأَنَّهُ قال : لاَ يُفْلِحُونَ في الدُّنيا وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ. والْحَشْرُ : جَمْعُ النَّاسِ إلَى مَوْضِعِ مَعْلُومٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ } ؛ معناهُ : ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِيْنَ أَشْرَكُواْ باللهِ غَيْرَهُ : { أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ } ؛ آلِهَتُكُمْ : { الَّذِينَ كُنتُمْ } ؛ التي كُنْتُمْ تعبدونَ مِنْ دون اللهِ ؛ و ؛ { تَزْعُمُونَ } ، أنَّهم شركاءُ اللهِ وشفعاؤُكم.

(٠/٠)

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } ؛ أي ثُمَّ لم تكن معذرتُهم يومَ القيامة إلا مقالتَهم : { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } في دار الدُّنيا. وإنَّما سميت المعذرةُ فتنةً ؛ لأنَّها عينُ الفتنةِ.

ومَن قرأ (فِتْنَتَهُمْ) بالنصب فعلى خبر (لَمْ تَكُنْ) واسْمها (أنْ قَالُوا). ومن قرأ (رَبَّنَا) بالنصب فمعناه النداءُ. وقراءة حفصٍ على البدلِ ، ويجوزُ الرفع على إضمار (هو). وقيل : المرادُ بالفتنة محبَّتُهم للأوثان التي كانوا مُفْتَتَنِيْنَ بها في الدُّنيا ، فأعلمَ اللهُ تعالى أنه لم يكن افتتانُهم بشركهم وإقامتِهم عليه ، إلا أن تَبَرَّأواْ منه وانتهوا عنه ، فحلفوا أنَّهم ما كانوا مشركينَ.

(٠/٠)

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ } ؛ أي انظر يا مُحَمَّدُ كيف صارَ وَبَالُ الكذب عليهم ؟ { وَضَلَّ عَنْهُمْ } ؛ أي عَزَبَ عنهم افتراؤُهم بما لَحِقَهُمْ من الذُّهول والدَّهَشِ ، قال الضحَّاك : (وَذلِكَ حِيْنَ نَطَقَتِ الْجَوَارِحُ ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِمْ أيْدِيْهِمْ وَأرْجُلُهُمْ بَعْدَ حَلْفِهِمْ{ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ }[الأنعام : ٢٣] يقولُ الله تعالى : { انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ } { مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }.

(٠/٠)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ أبَا سُفْيَانَ وَالْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالنَّضِرَ بْنَ الْحَارِثِ وَأُبِيَّ بْنَ خَلَفٍ وَجَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ؛ كَانُواْ يَسْمَعُونَ إِلَى حَدِيْثِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالُواْ لِلنَّضِرِ : مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ : لاَ أدْرِي مَا يَقُولُ ؟ إلاَّ أنِّي أرَاهُ مُحَرِّكاً شَفَتَيْهِ وَيَتَكَلَّمُ بشَيْءٍ وَلاَ يَقُولُ إلاَّ أَسَاطِيْرَ الأَوَّلِيْنَ مِثْلَ مَا كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ. وَكَانَ النَّضِرُ كَثِيرَ الْحَدِيْثِ عَنِ الْقُرُونِ الأَوَّلِيْنَ وَأَخْبَارِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناهَا : ومِن أهلِ مكة من يستمعُ إلى حديثكَ وقراءتك ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أغْطِيَةً كراهةَ أنْ يَفْقَهُوهُ ؛ وَفِي آذانِهِمْ ثُقْلاً وصَمَماً ، فلا يسمعونَ الْهُدَى. وموضعُ { أَن يَفْقَهُوهُ } نُصِبَ على أنه مفعولٌ له ؛ أي جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً لِكَرَاهَةِ أنْ يَفْقَهُوهُ. والوَقْرُ بفتح الواو : الثَقَلُ فِي الأُذُنِ ، والوِقْرُ بكسر الواو : مَا يُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا } ؛ أي وإن يروا كُلَّ حُجَّةٍ ودلالةٍ لا يُقِرُّوا ولا يصدِّقوا بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ } ؛ أي يُخَاصِمُونَكَ بالباطل ؛ { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } ؛ أي يقولُ النَّضِرُ بن الحارثِ وأصحابُه : مَا هَذا إلا أحاديثُ الأوَّلين وأباطيلُهم.

(٠/٠)

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } ؛ قال مقاتلُ (نَزَلَتْ فِي أَبي طَالِبٍ ، كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُوهُ إلَى الإِسْلاَمِ ، فاجْتَمَعَتْ قُرَيْشُ إلَى أبي طَالِبٍ يُرِيدُونَ سُوءاً بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : واللهِ لَنْ يَصِلُواْ إِلَيْكَ بجَمْعِهِمْ حَتَّى أوَسَّدَ فِي التُّرَاب دَفِيْنَافَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَأَبْشِرْ بذاكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونَاوَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أنَّكَ نَاصِحِي فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثمَّ أمِيْنَاوَعَرَضْتَ دِيْناً لاَ مَحَالَةَ أنَّهُ مِنْ خَيْرِ أدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِيْنَالَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أوْ حِذارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بذاكَ بِقِيْنَافَأنزلَ اللهُ تعالى : { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ } ويَنْهَوْنَ الناسَ عن أذى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم { وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } أي يَتَبَاعَدُونَ عمَّا جاءَ به من الْهُدَى ، فَلاَ يُصَدِّقُونَهُ.

وقال السُّدِّيُّ والضحَّاك : (نَزَلَتْ الآيَةُ في جَمِيْعِ كُفَّار مَكَّةَ) يعني وَهُمْ يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم والإيمانِ ؛ ويُبْعِدُونَ أنفسَهم عَنْهُ. { وَإِن يُهْلِكُونَ } ؛ بذلكَ ، (إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } ؛ وما يعلمون أنَّهمْ يهلكون أنفُسَهم.

(٠/٠)

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ ياليْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا } ؛ أي وَلَوْ تَرَى يا مُحَمَّدُ كفارَ قريشٍ إِذْ حُبسوا عَلَى النَّار ؛ إذ عاينُوها ودخلُوها وعرفوا عذابَها ؛ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبنَا ؛ تَمَنُّوا الرجعةَ إلى الدُّنيا.

وقرأ ابن السميقع : (وَقَفُوْا) فبفتحِ الواو والقاف من الوُقُوفِ. القراءةُ الأُولى من الوَقْفِ ، وجوابُ (لا) محذوفٌ وتقديرهُ : ولو تَرَاهُمْ في تلكَ الحالةِ لرأيتَ عَجَباً ، وقيلَ : لعَلِمْتَ ماذا يَنْزِلُ بهم من الْخِزْيِ والندامةِ ، ورأيتَ حسرةً يا لهَا من حَسْرَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا } { وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قرأ حمزةُ ويعقوب وحفص : (وَلا نُكَذِّبَ) (وَنَكُونَ) بالنصب على جواب التَّمَنِّي ، والعربُ تنصب جوابَ التمني بالواو كما تنصبهُ بالفاء ، كما قالوا : يا ليتَكَ تصيرُ إلينا ونُكرِمَك ، أو فُنكرِمَك فكلاهما بالنصب.

وقرأ ابنُ عامر (وَلا نُكَذِّبُ) بالرفع (وَنَكُونَ) بالنصب ؛ لأنَّهم تَمَنَّوا الردَّ وأن يكونوا مؤمنين وأخبروا أنَّهم لا يكذبون بآياتِ ربهم وإنْ ردُّوا إلى الدنيا. ومعناه : يا ليتنَا نُرَدُّ ، ويا ليتنا لا نُكَذبُ ، كأنَّهم تَمَنُّوا الردَّ والتوفيقَ بالتصديقِ. ويجوز أن يكون ذلكَ رفعاً على معنى : ونحنُ لا نُكَذِّبُ بآيات ربنا ، رُدِدْنَا أو لَمْ نُرَدَّ.

(٠/٠)

بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ } ؛ أي بل ظَهَرَ للذين يتَّبعون الغُوَاةَ ما كان الغُوَاةُ يُخفون عنه من أمرِ البعث والنُّشور ، وما كان رؤساؤُهم يُخْفُونَ من سَفَلَتِهِم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ } ؛ أي لو رُدُّوا إلى الدنيا كما سَأَلُوا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه

من الكفرِ والشِّرك. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ؛ يعني وإِنَّهم لكاذبون في قولِهم : { وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[الأنعام : ٢٧] لأنَّهم لا يؤمنون لسابقِ عِلْمِ الله تعالى فيهم أنَّهم خُلِقُوا للنار.

(٠/٠)

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } ؛ أي قالَ كُفَّارُ مكَّةَ : ما حياتُنا إلا كحياةِ الدُّنيا ، { وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } ؛ بعَد الموتِ.

(٠/٠)

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ } ؛ أي لو ترى يا مُحَمَّدُ إذ حُبسُوا عند ربهم للسؤالِ والحساب. ويقال : عَرَفُوا ما وَعَدَهم ربُّهم من البعثِ والقيامة والجنَّة والنار. { قَالَ } ؛ يقولُ الله تعالى لَهم : { أَلَيْسَ هَاذَا } ؛ البعثُ والعذاب ، { بِالْحَقِّ } ؛ أي بالصِّدق ، { قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا } ؛ إنهُ لَحَقٌّ ؛ أي لَصِدْقٌ ، { قَالَ } ؛ يقولُ الله تعالى : { فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } في الدُّنيا.
وإِنَّما ذكر الذوْقَ بمعنى الْخُلُودِ ؛ لِيُبَيِّنَ أن حالَهم في كلِّ وقت كَحَالِ مَنْ يُعَذبُ بالعذاب المبتدأ.
ومعنى { وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ } أي على حُكْمِ ربهم وقضائِهِ ، فتقولُ لَهم الملائكةُ بأمرِ الله تعالى : أَلَيْسَ هَذا العذابُ بالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَى وَرَبنَا إنه حقٌّ.

(٠/٠)

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللَّهِ } ؛ أي قد غُبنَ الذين كَذبُوا بالبعثِ بعد الموتِ ، { حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } ؛ أي فَجْأَةً نَدِمُوا في وقتٍ لا ينفعُهم الندامةُ. وسُميِّت القيامةُ ساعةً ؛ لِتوَهُّمِ قيامِها في كلِّ ساعةٍ.

وقوله تعالى : { قَالُواْ ياحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } ؛ أي على ما قَصَّرْنَا وضَيَّعْنَا في الدُّنيا من عملِ الآخرة ، { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ } ؛ معناهُ : والكفَّارُ يحملون أثقالَ آثامِهم فوق ظهروهم بذنوبهم ، والذنبُ من أثقلِ ما يحمل. وقيل : معناهُ { عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } أي في الصفقةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ } قال السُّدِّيُّ : (لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ظَالِمٍ يَمُوتُ فَيَدْخُلُ قَبْرَهُ إلاَّ أتَاهُ رَجُلٌ قَبِيْحُ الْوَجْهِ ؛ أسْوَدُ اللَّوْنِ ؛ مُنْتَنُّ الرَّائِحَةِ ؛ عَلَيْهِ ثِيَابٌ دَنِسَةٌ ، فَإذا رَآهُ الظَّالِمُ قَالَ لَهُ : مَا أقْبَحَكَ! فَيَقُولُ : أنَا عَمَلُكَ فِي الدُّنْيَا ، فَيَكُونُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ ، فَإذا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامةِ قَالَ لهُ : طَالَمَا كُنْتُ أحْمِلُكَ عَلَى اللَّذةِ وَالشَّهَوَاتِ ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي. فَيَرْكَبُهُ وَفِي يَدِهِ مَقْمَعَةٌ فَيَضْرِبُ بها رَأسَهُ ؛ فَيَفْضَحُهُ عَلَى رُؤُوس الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ : { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } ؛ أي بئْسَ الشيءُ الذي يحملونَ من الآثامِ. ويقالُ : بئْسَ الشيء شيئاً يَزِرُونَهُ ؛ أي يَحْمِلُونَهُ.

(٠/٠)

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا الْحَيَاوةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ } ؛ معناه : ما زينةُ الدُّنيا وزهرتُها إلا استمتاعٌ ؛ يعني مِن قريبٍ ، ثُمَّ يعقبهُ حسرةً وندامة. وسُمِّي ذلك لَعِباً تَشَبُّهاً بلعب الصبِّيان ، يبنونَ بناءً ثم يهدمونَه ، يلعبون بشيء فيلهُونَ به ، كذلكَ أهلُ الدُّنيا يجمعون ما لا يأكلون ؛ ويَبْنُونَ ما لا يسكُونون ؛ ويأْملون ما لا يُدركون.

وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لكفَّار مكَّة ، يفعلون ما لا يَرْجُونَ به الثوابَ ، ولا يخشون منه العقابَ ، ولا يَتَفَكَّرُونَ في العاقبةِ كالصبيان والبهائِم. واللَّعِبُ شَغْلُ النَّفْسِ عَمَّا لاَ حَقِيْقَةَ لَهُ وَلاَ قَصْدَ. واللَّهْوُ : طَلَبُ

الْمَزْحِ بِمثْلِ ذلِكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ } ؛ يعني الجنَّةَ أفضلُ للذين يتَّقون الشركَ والكبائر والفواحشَ ، { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ؛ أن الآخرة الباقيةَّ خيرٌ من الدنيا الفانيةِ. قرأ ابنُ عامر : (وَلَدَارُ الآخِرَةِ) بلامٍ واحدة على الإضافة.

(٠/٠)

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ } ؛ معناه : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ما يقولُ كفارُ مكَّة من تكذيبهم إيَّاك في العلانيةِ وجُحودِهم باللهِ ، { فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ } ؛ في السرِّ ولا بقلوبهم ؛ أي هم يعلمُونَ أنك صادقٌ وكنتَ تُسمَّى فيهم (الأمينُ) قبل الرسَالة ، فلا يحْزُنْكَ تكذيبُهم إيَّاك فيما يعلمون صدقكَ فيه ، { وَلَاكِنَّ الظَّالِمِينَ } ؛ المشركين ، { بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } ؛ بألسنتهم ما تَشْهَدُ به قلوبُهم بكذبهم فيه.
وقال السُّدِّيُّ : (الْتَقَى الأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْق وَأَبُو جَهْلٍ ؛ فَقَالَ الأَخْنَسُ لأَبي جَهْلٍ : يَا أَبَا الْحَكَمِ ؛ أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ ؛ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَا هُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلاَمَنَا ؟ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ ؛ وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ إِذا ذَهَبَ بَنُو قُصَيٍّ باللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالْحِجَابَة وَالنُّبُوَّةِ ؛ فَمَاذا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِه الآيَةَ). وقال : (مَعْنَى : (لاَ يُكَذِّبُونَكَ) لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقُولُوا لَكَ فِيْمَا أَنْبَأْتَ بِهِ مِمَّا فِي كُتُب الأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ : كَذبْتَ!.
وقرأ نافع والكسائيُّ : (يَكْذِبُونَكَ) بالتخفيفِ. ومعناهُ : لا يجدونَكَ كاذباً ، يقال : كَذبتَ فُلاناً بالتشديد إذا قُلْتَ له : كَذبْتَ ، وأكْذبْتَ فُلاناً ؛ إذا رأيتَ ما أتَى به كَذِباً. وقرأ نافعُ (لَيُحْزِنُكَ) بضمِّ الياء ، والمعنى واحدٌ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } ؛ تسليةٌ للنبِيِّ صلى الله عليه وسلم ليصبرَ على أذى الكفار ، ومعناهُ : أنَّ الرسُلَ قبلَكَ كذَبَهُم قومُهم كما كذبَكَ هؤلاء ، وآذوْهُمْ كما آذوْكَ ؛ فَصبَرَ الرُّسلُ على تكذيبهم وإيذائهم { حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } أي أتاهُم نَصْرُنَا بإهلاكِ قومِهم ، فَاصْبرْ أنتَ أيضاً على تكذيب قومك إيَّاكَ وإيذائهم لكَ حتى يأتيكَ نصرُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } ؛ أي لا مُغَيِّرَ لِمَا وَعَدَكَ من النصر والظَّفَرِ بقولهِ : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا }[غافر : ٥١] ، { وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ } أي مِنْ خَبَرِ المرسلين قبلكَ ما يكونَ لكَ فيه سُلْوَةٌ ، فَاعْتَبرْ بأخبارهم.

(٠/٠)

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ } ؛ أي إنْ كان عَظُمَ وثَقُلَ عليكَ يا مُحَمَّدُ إعراضُهم عن القبولِ منكَ وقولُهم : لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وسؤالُهم كلَّ معجزةٍ شاءُوا ، { فَإِن اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ } ؛ فَإن اسْتَطَعْتَ أنْ تطلبَ مَسْلَكاً نافذاً فِي الأرْضِ ؛ كنفقِ الْيَرْبُوعِ ، فتدخلَه هارباً متوارياً ؛ أوْ تطلبَ شيئاً يُسْلِمُكَ إلى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بالآية التي سألُوكها ، فَافْعَلْ ، وليس فِي الْقُرْآنِ فَافْعَلْ ؛ لأنه قد يُحْذفُ ما يكونُ في الكلام دَلِيلاً عليه مثل قولِ الرجُل : إن رأيتَ أن تَمضي معي إلى فلانٍ ، ولا يذكرُ فافعل.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ : إنَّ ما تأتِي من الآياتِ بمَا أحبُّ ، وإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بَشَرٌ لا يقدرُ على الإتيان إلا بمَا شاءَ اللهُ ، وكان قد عَلِمَ أنه لو أنْزَلَ عليهم الْمَلَكَ وكلَّ آية سألُوها لم يُؤْمِنُوا ، فلم يُنْزِلْ إلا ما تَثْبُتُ به الحجَّة عليهم ، فَتُؤْجَرُ بالصبرِ والثَّبات على الإيْمانِ بالآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى } ؛ أي لو شاءَ اللهُ لاضْطَرَّهُمْ إلى الإيْمان كما قال : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ }[الشعراء : ٤]. وقيلَ : معناهُ : ولو شاءَ اللهُ لأَطْبَقَهُمْ على الْهُدَى. وقيل : لَوَفَّقَهُمْ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } ؛ أي لاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ بتركِ الصَّبر وإظهَار الْجَزَعِ ؛ واستشعار الغَمِّ لإعراضِهم عنك ، فإن هذا من فِعَالِ الجاهلين. ويقال : معناهُ : لاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ بَمقْدُوري عليهم.

(٠/٠)

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ } ؛ معناه : إنَّما يُجيب الذين يَقْبَلُونَ الحقَّ ، وأمَّا الذي لا يقبلُ الحقَّ فكأنه أصَمٌّ أو مَيِّتٌ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ } ؛ أرادَ به كفارَ مكة ؛ سَمَّاهُمْ موتى لأنَّهم لم يتَدَبَّرُوا ولم يَتَأَمَّلُوا ، ولم ينتفعوا بحياتِهم ، فكانوا بمنْزِلة الموتَى وإن كانوا في صُورَةِ أحياءٍ ، { ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } ؛ في الآخرةِ فيجازيهم بأعمالِهم.

(٠/٠)

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ } ؛ أي قال كفَّارُ قريشٍ : لولا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ علامةٌ لنبوَّته من ربه ؛ يعنونَ الآياتَ التي كانوا يقترحونَها ، { قُلْ } ؛ يا مُحَمَّدُ ؛ { إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً } ؛ على ما تقترحونَها أنتم ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ ما عليهم من الْمَضَرَّةِ في إنزالِ هذه الآية ، إذِ الحكمةُ تقتضي التعذيبَ بعذاب الاستئصال لِمَنْ كفرَ بعد إنزالِ الآية المقترحَة.

(٠/٠)

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } ؛ أي ما مِنْ دابَّة تدبُّ وتتحرَّك على وجهِ الأرض ، وَلا طَائِرٍ يُطِيرُ بجَنَاحَيْهِ في الْهَوَاءِ ، إلا أُمَمٌ أمْثَالُكُمْ ، في الفقرِ والفَاقَةِ والحاجة إلى مُدَبرٍ يدبرهم في أغذِيَتهم وأكنَّتهم وهدايتهم إلى مراشِدهم ومصالحِهم.

وقيل : معناهُ : إلا أممٌ أمثالُكم في الْخَلْقِ والرزقِ والموت البعثِ ؛ لأنهُ قال : { وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ }[الأنعام : ٣٦] فيكونُ معناه : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } في أنَّ الله يُمِيْتُهَا ويَبْعَثُهَا للجزاء. وقيلَ : معناهُ : { إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } يَفْقَهُ بعضُه عن بعضٍ ، كما يفقهُ بعضكم عن بعضٍ.

وذِكْرُ الجناحين في الآية على جهةِ التَّأكيد ؛ لأنه يقالُ : طَارَ فلانٌ في الأمرِ ؛ أي أَسْرَعَ ، وفلانٌ طُيْرٌ من الطُّيور ؛ لسرعتهِ في الأمور. وقيل : ذِكْرُ الجناحين في الآيةِ لبيان أنَّ المرادَ به الطيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ } ؛ معناهُ : ما تركنا في اللَّوح المحفوظِ شيئاً إلا كَتَبْنَاهُ فيه. ويقالُ : ما تركنا بيانَ شيءٍ فِي الْقُرْآنِ فيما يَحتاجون إليه من أحكام الدِّين والدُّنيا ، بل قدْ بَيَّنَّا في الكتاب كلَّ شيء إما مُفَصَّلاً أو مُجْمَلاً ، أما الْمُفَصَّلَ كقولهِ تعالى : { النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ }[المائدة : ٤٥] وأما الْمُجْمَلُ كقوله : { وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ }[الحشر : ٧].

وقوله تعالى : { ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } ؛ معناهُ : أنَّ الطيورَ والدوابَّ يجمعون مع سَائِرِ الْخَلْقِ يومَ القيامةِ للحساب والجزاء ، كما روي في الخبر عن رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ : " إنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْشُرُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّوَابَّ والطَّيْرَ وَكُلَّ شَيْءٍ ؛ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَئِذٍ أنْ يَأْخُذ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ ، فَإذا مُيِّزَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّار ؛ قَالَ لِلْبَهَائِمِ وَالْوُحُوش وَالطُّيُور : كُونُوا تُرَباً تَسْتَوِي بكُمُ الأَرْضُ ، فَتكُونُ تُرَاباً ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَتَمَنَّى الْكَافِرُ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً ".

والمرادُ بهذا الإفناءِ للبهائمِ بعد أنْ أحياهَا أنهُ إفناءٌ لا يكون فيه أَلَمٌ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ } ؛ معناه : الذين جَحَدُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ صُمٌّ عن الخيرِ لا يسمعونَ الْهُدَى ، خُرْسٌ لا يتكلمون بخيرٍ ؛ أي يكون حالُهم كحالِ الأَصَمِّ الأَبْكَمِ. وحُذِفَ التشبيهُ مِن قوله : { صُمٌّ وَبُكْمٌ } على جِهَةِ المبالغة في الوَصْفِ ، كما يقالُ في وصفِ القوم بالْبَلاَدَةِ : هَؤُلاَءِ حُمُرٌ.

قَولهُ : { فِي الظُّلُمَاتِ } أي في ضَلاَلاَتِ الكفر في ظُلْمَةِ السَّمع والبصرِ والقلب ، { مَن يَشَإِ اللَّهُ

يُضْلِلْهُ } ؛ أي من شَاءَ اللهُ يَتْرُكْهُ في ضلالةِ الكفر ، فلا يُخْرِجُهُ منه ، { وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ وَمَن يشأْ يُرْشِدْهُ ويُوَفِّقْهُ للإسلامِ فَيُثَبِّتْهُ على ذلك حتَّى يَموت عليه ، ويقال : معناهُ : من يَشَأ اللهُ يُضْلِلْهُ في الآخرةِ عن طريقِ الجنَّة إلى طريقِ النّارِ ، ومن يشأْ يجعلْهُ على طريق الجنَّة.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ } ؛ أي قل يا مُحَمَّد لأهلِ مكَّة : أرَايْتُمْ ، والكافُ زائدةٌ في بيان الخطاب للتأكيد كما في (ذلِكَ) و(أُوْلَـٰئِكَ). والمعنى : قُلْ أرَأَيْتُمْ إنْ أتَاكُمْ عذَابُ اللهِ ، كما أتَى الأممَ الماضينَ قبلَكم المكذبين لرسُلِهم ، أوْ أتَتْكُمْ القيامةُ بأهوالِها وشدائدِها. ويقال : أرادَ بـ (السَّاعَةُ) الوقتَ الذي يُصْعَقُ فيه العباد ، فيموتُون كلُّهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ } ؛ أي أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ في كشفِ ذلك العذاب وَدَفْع تلكَ الأهوال عنكُم ، أم تَدْعُونَ اللهَ تعالى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي في مقالتِكم أنَّ الأصنامَ شركاءٌ للهِ ؛ فَهَلاَّ تدعون الأصنامَ عند الشدائدِ. وهو احتجاجٌ مِن الله عليهم بما لا يَدْعُونَهُ ؛ لأنَّهمْ كانوا إذا مسَّهم الضرُّ دَعَوا اللهَ تعالى.

(٠/٠)

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ } ؛ أي بَلْ تدعونَ اللهَ في كَشْفِ العذاب والأهوال ، و(بَلْ) للاستدراك بعدَ النَّفي ، { فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ } أي يكشفُ عنكم الضُّرَّ الذي مِنْ أجله دعوتُموه فكشفَهُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ شَآءَ } إنَّما قُرْنَ بالمشيئةِ ؛ لأنَّ كشفَ العذابِ فضلٌ من الله تعالى ، وفضلُ الله يعطيهِ مَن يشاءُ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } ؛ أي وتتركون دعوةَ آلِهتكُم عند الشِّدة إذا أشرفتُم على الْهَلاَكِ ؛ وَاضْطَرَبَتْ بكم الأمواجُ في لُجَجِ البحار ؛ وفي غير ذلك من السِّجن والأوجاعِ التي لا صَبْرَ عليها ،

وقد يُذْكَرُ النِّسيان بمعنى التَّرْكِ كما في قولهِ : { نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ }[التوبة : ٦٧] أي تَرَكُوا ذِكْرَ اللهِ ، فَتَرَكَهُمُ اللهُ في العذاب.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ } أي وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رسُلاً إِلَى أمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ، كما أرسلناكَ إلى قومِكَ فلم يؤمِنُوا ، فَأَخَذْنَاهُمْ بالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ. والضَّرَّاءُ هِيَ الشِّدَّةُ النَّازِلَةُ ؛ وَالْبَأْسَاءُ مَأْخُوذةٌ مِنَ الْبَأْسِ ، وقيل : مِن الْبُؤْسِ ؛ وهو الفقرُ. والضرَّاءُ هي الأمراضُ والأوجاعُ ؛ وهي مأخوذةٌ من الضَّرَرِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } ؛ أي لكي تَخْشَعَ القلوبُ ، وتَتَضَرَّعَ النفوسُ عند الشِّدة ؛ فيرجعون إلى اللهِ فيؤمنون به ؛ فيكشفُ عنهم ؛ فلم يفعلُوا.

(٠/٠)

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَلَوْلا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ } ؛ أي فَهَلاَّ حين جَاءَهُمْ بَأْسُنا ؛ أي عذابُنا ؛ دَعَوا اللهَ وآمنُوا به ، { لَاكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) ؛ أي يَبسَتْ وجَفَّتْ قلوبُهم ؛ فأقاموا على كُفرهم ؛ إذ لم يكن في قلوبهم رقةٌ ، ولا خوفٌ من اللهِ تعالى ، { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ } ؛ أي حَسَّنَ لَهم ، { مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ في كفرِهم ؛ بأن أغْوَاهُمْ ودعاهم إلى اللَّذةِ والراحةِ دون التَّفَكُّرِ والتدبُّر ببيانِ الْحَقِّ من الباطلِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ أي فلمَّا تَرَكُوا ما وُعِظُواْ به وأُمروا به { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } مِمَّا كان مُغْلَقاً عليهم من الخيرِ والرِّزق والخصب والمطر. وأخْصَبَتْ بلادُهم وَكَثُرَ خيرُهم ، { حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ } ؛ أُعْجِبُوا ؛ { بِمَآ أُوتُواْ } ؛ أي بما أُعطوا مِنَ النِّعَمِ والسِّعةِ وَالصِّحَّةِ ؛ { أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً } ؛ أي فَجْأَةً بالعذاب بعد أن ابتليناهُم في النعمةِ والشدَّة ؛ فلم يزدادوا إلا كُفراً ، { فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } ؛ أي فإذا هم عندَ نزول العذاب بهم آيسُونَ من كلِّ خير ؛ متحسِّرون غايةَ الحسرَةِ. وَالْمُبْلِسُ : الْبَائِسُ الْحَزِيْنُ الشَّدِيْدُ الْحَسْرَةِ ، ويقالُ : هو المنقطعُ عن الحجَّةِ.

فإن قيل : لِمَ أنعمَ الله عليهم حين نَسَوا ما ذُكِّرُوا به ؛ وهذا موضعُ العقوبة دون الإنعامِ ؟ قيل فيه قولان : أحدُهما : أنه أنعمَ عليهم بالدعاءِ لَهم إلى الطاعة ، فإن الدعاءَ إلى الطاعة تارةً يكونُ بالعنف والتشديد ، وتارةً باللِّين والإنعامِ.

والثاني : أنه إنَّما فعلَ ذلك بهم ؛ لأنَّ من يُنْقَلُ من النعمةِ والراحة إلى العذاب يُجْمَعُ عليه العذابُ والحسرةُ على ما فَاتَهُ ؛ فيكون ذلك أشدَّ عليه ممن ينقلُ من الشدَّة إلى العذاب.

(٠/٠)

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ } ؛ أي اسْتُؤْصِلَ بالهلاكِ آخرُ من بقيَ من القوم الكافرين. ودَابِرُ الْقَوْمِ : آخِرُهُمْ مِنْ نَسْلِهِمْ وغيرِهم ، بحيثُ لا يبقى لَهم بعد ذلك باقيةٌ ، { وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ يجوزُ أن يكون حمداً مِن الله تعالى لنفسهِ على إهلاكِهِ القومَ الكافرين والمعاندين بعد أن أعْذرَهُمْ وَأنْذرَهُمْ. ويجوزُ أن يكون قوله : { وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } تعليماً من اللهِ " للنَّاس " يحمدونَهُ على إهلاك الظالمينَ.

وقد قطعَ اللهُ دابرَ المعاندين من أهل مكَّة يومَ بَدْرٍ كما قطعَ دابر المكذبين قبلَهم. وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا رَأيْتَ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي عَبْداً فِي الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ مَا يُحِبُّ ؛ فَإنَّ ذلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ ، ثُمَّ قَرَأَ صلى الله عليه وسلم : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } الآيةُ ".

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَّنْ إِلَاهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد لكفَّار مكة : إنْ سلبَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ التي هي أشرفُ ما قِبَلِكُم من الأعضاءِ ، وخَتَمَ عَلَى قُلُوبكُمْ ؛ فإن سَلَبَ عقولكم حتى لا تفهمُوا بها فعاقَبَكم بذلك على تكذيبكُم الرسلَ ؛ هل مِنْ إلَهٍ غَيْرُ اللهِ يردُّ عليكم ما سَلَبَهُ الله تعالى ؟ وهل يقدرُ على ذلك غيرهُ ؟ { انْظُرْ } ؛ يا مُحَمَّد ؛ { كَيْفَ نُصَرِّفُ } ؛ نُبَيِّنُ لَهُمْ ؛ { الآيَاتِ } ؛ فِي الْقُرْآنِ ؛ ونُخَوِّفُهُمْ بها ؛ { ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } ؛ أي يُعْرِضُونَ عما وَضَحَ لَهم مكذِّبين به ، لا تتحركُ أفئدتُهم. والتصريفُ توجيه المعنىَ في الجهات تُظْهِرُهُ أتَمَّ الإظهار.

(٠/٠)

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ { قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً } ؛ أي أرَأيْتُمْ إنْ أتَاكُمْ وهذا حالُكم في الإصرار على الكفر عَذابُ اللهِ فجأةً وعلانية ؛ نَهاراً جِهاراً ، { هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ } ؛ إلا أنتم وما أشبَهَكُم ؛ لأنكم كفرتُم معاندينَ ، فقد عَلِمْتُمْ أنكم ظالمون. وإنَّما قابلَ البغتةَ بالجهرةِ وإن كان ضدُّ الجهرةِ الخفيةَ ؛ لأن ما يأتي فجأةً فإنَّما يأتي خِفْيَةً.

(٠/٠)

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)

قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } ؛ أي ليسَ على الرسلُ أن يأتوا الناسَ بمَا يقترحون عليهم من الآياتِ ، إنَّما نرسلُهم بالتبشير بالجنَّة للمطيعين ؛ والتحذيرِ بالنار للكافرين ، { فَمَنْ

ءَامَنَ } ؛ بالرسُلِ والكُتُب ؛ { وَأَصْلَحَ } ؛ العملَ فيما بينهُ وبينَ ربه ؛ فأقام على إيْمانه وتوبتهِ ؛ { فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } ؛ حين يخافُ أهل النار ، { وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ إذا حَزِنُوا.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } أي يصيبُهم العذابُ بفِسْقِهِمْ وجحودِهم بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والْقُرْآنِ.

(٠/٠)

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

وَقُوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ } ؛ نزلَت هذه الآيةُ جواباً عن قولِ الكفار للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : يا محُمَّدُ ؛ لولاَ أُنْزِلَ عليكَ كَنْزٌ فتستغني به ؛ فإنك فقيرٌ محتاج! وعن قولِهم : لولا أُنْزِلَ عليهِ مَلَكٌ ، وقولِهم : لولا أُنْزِلَ عليه آيةٌ. ومعناها : قلْ لَهم يا مُحَمَّد : { لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ } أي لا أدَّعي أن مفاتيحَ الرزقِ بيدي ؛ فأقبضُ وأبْسُطُ ، وليس خزائنُ الله مثلَ خزائنِ العباد ، إنَّما خزائنُ الله مقدوراتُه التي لا تُوجَدُ إلا بتكوينهِ إيَّاها ، { وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ } أي لا أدَّعي عِلْمَ الغيب فيما مضَى وما سيكونُ ، { وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ } مِن السَّماء شاهدتُ ما لم تشاهدِ البشرُ ، { إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ } ؛ أي لا أعْلَمُ ولا أقولُ إلا بما نَزَّلَهُ اللهُ على لسانِ بعض الملائكة ، { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } ؛ أي الكافرُ والمؤمن ، ويقال : الجاهلُ والعالِمُ ، { أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ } ؛ في آياتِ اللهِ ومَوَاعِظِهِ.

(٠/٠)

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ } ؛ أي أنْذِرْ بالْقُرْآنِ وخوِّف به { وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ } وخوِّف به الذين يعلمون أنَّ حَشْرَهُمْ إلى ربهم ؛ أي إلى موضعٍ لا يَمْلِكُ فيه أحدٌ نَفعَهم ولا ضُرَّهم إلا اللهَ تعالى. قالوا : والذينَ يخافونَ البعثَ أحدُ رجلين ؛ إما مسلمٌ فَيُنْذرُ ليؤدِّي حقَّ الله في إسلامهِ ، وإما رجلٌ من أهل الكتاب فهو مقرونٌ بأن الله تعالى خَلَقَهم وأنَّهم مبعوثون محاسَبون. { لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }.

(٠/٠)

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } ؛ قال عبدُالله بن مسعودٍ : (مَرَّ جَمَاعَةً مِنَ المُشْرِكِينَ برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَهُ صُهَيْبُ وخَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ وَبلاَلُ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ ؛ فَأَرَادُواْ الْحِيْلَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِيَطْرُدُواْ أصْحَابَهُ ، فَقَالُواْ : يَا مُحَمَدَّ ، لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلاَءِ السَّفَلَةَ وَالْعَبِيْدَ عَنْكَ أتَاكَ أشْرَافُ قَوْمِكَ وَرُسَاؤُهُمْ يَسْتَمِعُونَ مَقَالَتَكَ وَيُصَدِّقُونَكَ ، وَذكَرُواْ ذلِكَ أيْضاً لِعُمَرَ رضي الله عنه ، فَذكَرَ ذلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِرْصاً عَلَى إسْلاَمِ أشْرَافِ قَوْمِهِ ، فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَفْعَلَ بَعْضَ الَّذِي طَلَبُوهُ ، فأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). يعلِّمُه أنه لا يجبُ أن يفضِّل غَنِياً ولا شريفاً على فقيرٍ وضعيف ؛ لأن طريقَهُ فيما أُرْسِلَ به الدِّيْنُ دون أحوالِ الدُّنيا.
فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } أي يعبدون ربَّهم بالصلاةِ المفروضة غُدُوّاً وعَشِيّاً وهم ضَعَفَةُ الصحابةِ وَصَفَهُمُ اللهُ بالمواظبة على عبادتهِ في طرفَي النَّهارِ ؛ ثُم شهِدَ لَهم أنَّهم مخلصون في الإيْمانِ بقولهِ : { يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } أي يريدون وجهَ اللهِ تعالى بذلك ؛ ويطلبون رضَاهُ. وذكرَ الوجهَ على سبيلِ التفخيم كقولهِ تعالى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ }[القصص : ٨٨]. معناهُ : إلاَّ هُو.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ } ؛ أي ما عليكَ مِن حساب عملِهم وباطنِ أمرهم من شيء ، { وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ } ؛ أي مَا عليهم من باطِن أمرِكَ شيءٌ ولا يُسْأَلُونَ عن عملِكَ ولا تسألْ أنتَ عن عملِهم.

وقيل : معناهُ : ما عليكَ من رزقِهم من شيءٍ ، وما مِن رزقِكَ عليهم من شيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَطْرُدَهُمْ } ؛ جوابُ { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم }. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَكُونَ } ؛ جوابُ { وَلاَ تَطْرُدِ }. { مِنَ الظَّالِمِينَ } ، ومعناهُ : فتكون من الضارِّين لنفسكَ أن لو طردتَهم.

وتقديرُ الآية : وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَيْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَتَطْرُدَهُمْ. وقال سلمانُ وخبَّاب : (فِيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ ، فَجَاءَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابسٍ التَّمِيْمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّاريّ وَأصْحَابُهُمْ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ ، فَوَجَدُواْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَاعِداً مَعَ بلاَلٍ وَصُهَيْبَ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ فِي نَاسٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ ، فَلَمَّا رَأوْهُمْ حَوْلَهُ حَقَّرُوهُمْ ؛ وَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ؛ لَوْ جَلَسْتَ فِي صَدْر الْمَسْجِدِ ، وَنَفَيْتَ عَنَّا هَؤُلاَءِ وَرَائِحَةَ جِبَابِهِمْ لَجَالَسْنَاكَ وَحَادَثْنَاكَ وَأخَذْنَا عَنْكَ. وَكَانَ عَلَيْهِمْ جِبَابٌ مِنْ صُوفٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ غَيْرُهَا. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا أَنَا بطَارِدِ الْمُسْلِمِيْنَ " فَقَالُواْ : إنَّا نُحِبُّ أنْ تَجْعَلَ لَنَا مَجْلِساً تَعْرِفُ الْعَرَبُ بِهِ فَضْلَنَا ، فَإنَّ وُفُودَ الْعَرَب تأْتِيْكَ ؛ فَنَسْتَحِي أنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَؤُلاَءِ الأَعْبُدُ ، فَإذا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنَّا ، فَإذا نَحْنُ قُمْنَا فَأَقْعِدْهُمْ مَعَكَ إنْ شِئْتَ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَاؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ } ؛ قال ابنُ عَبَّاس : معناه : (وَكَذلِكَ ابْتَلَيْنَا (بَعْضَهُمْ ببَعْضٍ) : الْعَرَبِيَّ بالْمَوَالِي ؛ وَالْغَنِيَّ بالْفَقِيْرِ ؛ وَالشَّرِيْفَ بالْوَضِيْعِ ؛ لِيَقُولَ الأَغْنِيَاءُ وَالأَشْرَافُ مِثْلُ عُيَيْنَةَ بْنِ حُصَيْنٍ الَّذِي دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ لَهُ : لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلاَءِ السَّفَلَةَ ، وَمِثْلَ أَصْحَابِهِ ؛ كَانُواْ يَقُولُونَ : هَؤُلاَءِ – يَعْنُونَ سَلْمَانَ وَأصْحَابَهُ – مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْمَغْفِرَةِ وَالإِسْلاَمِ مِنْ بَيْنِنَا). وقال الكلبيُّ : (هُوَ أنَّ الشَّرِيْفَ إذا نَظَرَ إلَى الوَضِيْعِ قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَهُ اسْتَنْكَفَ أنْ يُسْلِمَ ، وَقَالَ : قَدْ سَبَقَنِي هَذا بالإسْلاَمِ ؛ فَلاَ يُسْلِمُ).

ومعنى (اللام) في قوله : (لِيَقُولُوا) لامُ العاقبة ؛ ومعناهُ : ليكونَ عاقبةُ أمرِهما ؛ قال الأغنياءُ والأشراف : أهؤلاءِ المستضعفونَ فضَّلهم اللهُ علينا. ونظيرُ هذه اللاَّم في هذهِ الآية قَوْلَهُ تَعَالَى : { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً }[القصص : ٨] ، ومعلومٌ أنَّهم لم يلتقطوهُ لأجلِ أن يكون لَهم عدوّاً وحَزَناً ، ولكن عاقبةُ التقاطِهم إياه أنْ صارَ لَهم عدُوّاً وحَزَناً.

وقال بعضُهم : اللامُ في قوله : (لِيَقُولُوا) معناها الاستفهامُ ؛ أي ليقولَ بعضُهم لبعضٍ استفهاماً لا إنْكاراً : أهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بالإيْمانِ.

والفائدةُ في ذلك أن الأغنياءَ كانوا شاكِّين في أن سَبْقَ الفقراءِ إلى الإيْمان وصبرِهم على طريقةِ الدِّين ؛ هل يوجبُ أن تكونَ نعمةً من الله عظيمة عليهم ، فأمرَهُم اللهُ تعالى أن يَسْتَفْهِمُوا من الرسولِ صلى الله عليه وسلم ما لأجلهِ يقومُ الفقراء بحضرةِ الرسُول صلى الله عليه وسلم واستحقُّوا الإعظامَ ، فيظهرُ عند الاستفهامِ جوابُ النبِيُّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون في سَماعِهم لذلكَ مصلحةٌ عظيمة توجبُ رضَاهُم بتقديمِ النبِيِّ صلى الله عليه وسلم أهلَ الدين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } ؛ استفهامٌ بمعنى التحقيقِ على معنى أنَّ اللهَ أعلمُ بمن هو من أهلِ التوحيد والثَّواب.

(٠/٠)

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

وَقَوْلَهُ تَعَالَى : { وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ اختلفُوا فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ ؛ فقال عكرمةُ : (نَزَلَتْ فِي الَّذِيْنَ نَهَى اللهُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم عَنْ طَرْدِهِمْ ، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم إذا رَآهُمْ بَدَأهُمْ بالسَّلاَمِ وَقَالَ : " الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أمَرَنِي أنْ أبْدَأهُمْ بالسَّلاَمِ ". وقَالَ بانُ عبَّاس والكلبِيُّ : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ{ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ }[الأنعام : ٥٢] الآيةُ ، جَاءَ عُمَرُ رضي الله عنه مُعْتَذِراً مِنْ مَقَالَتِهِ ؛ فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا } الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ { فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ } أي قَبلَ اللهُ مَعْذِرَتَهُمْ وَتَوْبَتَهُمْ). ومعنى السَّلاَمِ : السلامةُ من جميع الآفاتِ.

وقيل : إنَّ اللهَ تعالى أمرَ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أنْ يُسَلِّمَ على المستضعفين إذا جاءُوا إليه ، وإنَّما أمرَهُ بأن يبدأهم بالسَّلامِ مع أن العادةَ أن يُسَلَّمَ على القاعدِ حتى يَنْبَسِطَ إليهم بالسَّلامِ عليهم ؛ لِئَلاَّ يحتشمُوا من الانبساطِ إليه. قال عطاءُ : (نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وأَبي عُبَيْدَةَ وَبلاَلٍ وَسَالِمٍ وَمُصْعَب بْنِ عُمَيْرٍ وَحَمْزَةَ وَجَعْفَرَ وَعُثْمَانَ ابْنِ مَضْعُونٍ وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ).

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قالَ : (أتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رجَالٌ فَقَالُواْ : إنَّا أصَبْنَا ذُنُوباً عَظِيمَةً كَبِيْرَةً ، فَسَكَتَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فأَنْزَلَ اللهُ تعَالَى : { وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }.

واختلفُوا في قوله : { سُوءًا بِجَهَالَةٍ } قال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : لاَ يَعْرِفُ حَلاَلاً مِنْ حَرَامٍ ، فَمِنْ جَهَالَتِهِ

رَكِبَ الأَمْرَ). وقيل : جاهلٌ بما يُورثُهُ ذلك الذنبُ. وقيل : جَهِلَ حين آثَرَ المعصيةَ على الطاعةِ ، واللذةَ اليسيرةَ الفانيةَ على الكثيرةِ الباقية الدائمةِ ، فعلى هذا يسمَّى مرتكبُ المعصيةِ جاهلاً.
واختلفَ القُرَّاءُ في قولهِ تعالى : { أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ } وقولهِ : { فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } فكسَرَهما جميعاً ابنُ كثير وأبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وخلف والأعمشُ على الاستئناف. ونصَبَهما الحسنُ وابن عامر وعاصمُ ويعقوب بدلاً من الرحمةِ. وفتحَ نافعُ الأولَ على معنى : وَكَتَبَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ ، وكسرَ الثاني على الاستئنافِ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ } ؛ أي نُبَيِّنُ بياناً الأَمرَ والنهي فِي الْقُرْآنِ من قبلُ ، وكذا نُبَيِّنُ وَنُنَزِّلُ الآياتِ متفرقةً شيئاً بعد شيء. وقولهُ تعالى : { وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } ؛ معطوفٌ على مُضْمَرٍ تقديرهُ : لِيَظْهَرَ الْحَقُّ مَن الْبَاطِلِ وَلِتَسْتَبِينَ طريقُ الْمُجْرِمِينَ.
وإنَّما لم يقل : سبيلُ المؤمنين ؛ لأن في الكلامِ ما يدلُّ عليه ؛ لأن معناهُ وَلِتَسْتَبِيْنَ سبيلَ المجرمين من سبيلِ المؤمنين. ويقرأ : (وَلِيَسْتَبِيْنَ) بالياء ؛ لأن السبيلَ يُذكَّرُ ويؤنَّثُ ، فَتَمِيْمٌ تُذكِّرُهُ ؛ وأهلُ الحجاز تُؤَنِّثُهُ.
ودليلُ التذكير قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ }[الأعراف : ٨٦] ولم يقل بها ، ودليل التأنيث قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَاذِهِ سَبِيلِي }[يوسف : ١٠٨] ولم يقل هذا سبيلي. وقرأ أهلُ المدينة : (سَبِيْلَ) بالنصب على خطاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ معناهُ : وَلِتَعْرِفَ يا مُحَمَّدُ سبيلَ المجرمين ؛ فالخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ به عامَّة المسلمين ؛ كأنه ولِتَسْتَبِيْنُوا وتزدادوا معرفةً بطريق المجرمين.

(٠/٠)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي قل يا مُحَمَّد لِعُيَيْنَةَ وأصحابه : إنِّي نُهِيتُ عن عبادةِ الذي تعبدون من الأصنام مِنْ دُونِ اللهِ ، { قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ } ؛ فإنَّكم قد عَبَدْتُمُوهُ وسألتموهُ طردَ سلمان وبلالَ وأصحابَهما عن طريق الهدَى ، لا على طريق البيِّنة والبرهانِ ، وقَوْلَهُ تَعَالَى : { قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً } ؛ أي قد ضَلَلْتُ إنْ عبدتُها ؛ معناهُ إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيلَ الحق ، وسلكتُ غيرَ سبيل الهدى.

وقرأ يحيى بن وثَّاب وأبو رجَاء : { قَدْ ضَلَلْتُ } بكسرِ اللام ؛ وهما لُغتان ؛ إلا أنَّ الفتحَ أفصحُ ؛ لأنَّها لغةُ أهلِ الحجاز. وقولهُ : { وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ } ؛ عطفٌ على { ضَلَلْتُ } ؛ أي إنْ أتَّبعْ أهواءَكم فما أنا من الذينَ سلكُوا طريقَ الهدى.

(٠/٠)

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد : إنِّي على بَصِيْرَةٍ وبيانٍ مِن أمرِ ربي ؛ لاَ مُتَّبِعٌ للهَوى ، { وَكَذَّبْتُم بِهِ } أي بالبيانِ ، وإنَّما ذكَرَ الكنايةَ لأن البيِّنةَ والبيانَ بمعنى واحدٍ. ويجوزُ أن يكون معناهُ : وكذبتُم بما آتيتُكم به ؛ وهو الْقُرآنُ. ومعنى البيِّنةِ : الدلالةُ بينَ الحقِّ والباطلِ.

قَوْلَهُ تَعَالَى : { مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } رُوي : أنَّ رؤساءَ قريشٍ كانوا يستعجلونَ العذابَ ، حتى قامَ النضرُ بن الحارثِ في الحَطِيْمِ وقالَ : اللَّهُمَّ إنْ كان ما يقولُ مُحَمَّدٌ حقّاً فَأْتِنَا بالْعَذاب ، فَنَزلت هذه الآيةُ.

وقيل : معناه : { مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } من الآياتِ التي تقترحونَها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ } ؛ أي ما القضاءُ وتنْزيل الآياتِ إلاَّ لله ، { يَقُصُّ الْحَقَّ } ؛ أي يَحْكُمُ بالعدل ويقضي القضاءَ الحقَّ ، { وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } ؛ أي أعدلُ الْفَاصِلِيْنَ.

ومن قرأ (يُقِضُّ الْحَقَّ) بالضادِ المشدَّدة ، فمعناهُ : يُبَيِّنُ ويَأْمُرُ به ، ومن قرأ (يَقْضِي) أي يَحْكُمُ. وقرأ ابن عبَّاس : (يَقْضِي بالْحَقِّ). وأما سقوطُ الياءِ في قراءة من قرأ (يَقُصِّ) فإنَّها سقطت في الخطِّ لالتقاء السَّاكنَين ، كما في قولهِ تعالى : { سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ }[العلق : ١٨]{ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ }[القمر : ٦]. وفي جميعِ المصاحف : (يَقْضِ) بغيرِ ياءٍ.

(٠/٠)

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد : { لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } من العذاب ، { لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ؛ أي لأهلكتُكم ؛ وانقطعَ ما بيني وبينكم من مطالبَتي إياكم بالإخلاص في طاعة الله وعبادتهِ ، وامتناعِكم من ذلكَ ، { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ } ؛ أي بعقوبتِكم ووقتِ عذابكم.

(٠/٠)

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } ؛ قرأ ابن السُّمَيقع : (مَفَاتِيْحُ الْغَيْب) بالياء. واختلفُوا في معنى (مَفَاتِحُ الْغَيْب) فروى عبدُالله بن عمرَ : أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ : " مَفَاتِحُ الْغَيْب خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ اللهُ : عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَنُزُولُ الْغَيْثِ ، وَعِلْمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ، ومَا تَدْري نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْري نَفْسٌ بأَيِّ أرْضٍ تَمُوتُ ". وقال السُّدِّيُّ : (مَفَاتِحُ الْغَيْب : خَزَائِنُ الْغَيْب) وَهِيَ الْمَقْدُورَاتُ الَّتِي يُفْتَحُ بهَا مَا فِي الْغَيْب ، وَسُمِّيَتِ الْخِزَانَةُ مِفْتَاحاً ؛ لأَنَّهُ يَنْفَتِحُ مِنْهُ الأَمْرُ). وقيل : { مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } ما ينفتحُ به علمُ ما في الغيب من وقتِ نزول العذاب الذي كانوا يستعجلُون به وغيرُ ذلك. قيل : معناهُ : { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } أي نزولُ العذاب لا يَعلمُ متَى ينْزل ما غابَ عنكم من الثواب والعقاب ، وما يصيرُ إليه من أمرِي وأمرِكم إلا هوُ. وقيل : معناهُ : { مَفَاتِحُ الْغَيْب } الآجَالُ وأحوالُ العباد من السَّعادة والشَّقاوةِ ، وعواقب الأمور ، وخواتِم الأعمال. وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه : (أوْتِيَ نَبيُّكُمْ عليه السلام كُلَّ شَيْءٍ إلاَّ مَفَاتِحَ الْغَيْب). وَالْمَفَاتِحَ جَمْعُ مِفْتَحٍ ، وَالْمَفَاتِيْحُ جَمْعُ مِفْتَاحٍ ؛ وهو معرفةُ المغيَّب.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ؛ أي يَعْلَمُ ما في البرِّ من النباتِ والْخَلْقِ ؛ وَما في الْبَحْرِ من الدواب والعجائب. وقيل : يعلمُ رزقَ كلِّ مَنْ في البرِّ والبحر ، يسوقُ إلى كلِّ ذي روحٍ رزقَهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَا مِنْ شَجَرَةٍ فِي الْبَرِّ إلاَّ وَبِهَا مَلَكٌ مُوكَّلٌ يَعْلَمُ مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا ، وَمَا يَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهَا ، وَيَعْلَمُ عَدَدَ مَا بَقِيَ عَلَى الشَّجَرَةِ مِنَ الْوَرَقِ وَمَا يَسْقُطُ مِنْهُ). وقيل : معنى الآيةِ : { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ } من أوراقِ الشَّجر ، { إِلاَّ يَعْلَمُهَا } اللهُ ثابتةً وساقطةً ، ويعلمُ متَى سقوطُها وموضعُ سقوطها.

قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ } ؛ أي كلُّ حبَّة تكون في الأرضِ حتى الحبَّةُ التي تكون تحتَ الصخرة التي هي أسفلُ الأرضين يعلمُها الله ، وقيل : أرادَ كلَّ حبَّة تكون في شُقوق الأرضِ مِمَّا يخرجُ منها النبات. ومن قرأ (وَلاَ حَبَّةٌ) بالرفعِ فعلى الابتداء ؛ وخبرهُ { إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }.

وَقَوْلَهُ تَعَالَى : { وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } ؛ أرادَ بالرَّطْب الماءَ والخضر ، وباليابسِ الحجرَ والمدرَ ، كلُّ ذلك مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ ، أثبتَ اللهُ تعالى فيه كلَّ ما يخلقُ قبلَ أن يخلقَهُ ، كما قالت تعالى : { مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ }[الحديد : ٢٢].

وَاعْلَمْ : أنهُ قد أثبتَ ما خَلَقَ قبل خلقِهِ. والرطبُ واليابس عبارةٌ عن جميع الأشياءِ التي تكون في السَّموات والأرضِ ؛ لأنَّها تخلق من أحدِ هاتين الصِّفتين. وعن النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " مَا زَرْعٌ عَلَى الأَرْضِ وَلاَ ثِمَارٌ عَلَى الأَشْجَار ؛ إلاَّ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ : بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ ، رزْقُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ ".

فإن قيلَ : ما الفائدةُ في كون ذلك مكتوباً في اللَّوح مع أنَّ اللهَ لا يخفى عليه شيءٌ ، وأنه كان عالِماً بذلك قبلَ أن يخلقَه وقبل أن يكتبَه ؛ ولم يكتُبها ليحفظَها ويدريها. قيل : فائدتهُ أن الحوادثَ إذا حدثت موافقةً للمكتوب ، ازدادَتِ الملائكةُ بذلك علماً ويقيناً بعِظَمِ صفاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيلِ } ؛ معناه : هو الذي يقبضُكم عن التصرُّفِ بالنوم وما تصيرونَ في منامكم بالليلِ في قبضتهِ لا تَمْلكون لأنفسِكُم تصريفاً في أموركم.

والتَّوفِّي في اللغة : هُوَ الْقَبْضُ ؛ إلاَّ أن روحَ النائمِ لا تصيرُ مقبوضةً في حال نومه على جهةِ الحقيقة ؛ لأن النائمَ يستمدُّ من الهواءِ على حسب ما يفعلهُ المنتبهُ ، ولكنَّ الله يحدثُ في حال النوم من بدنِ النائم ضرباً من الاسترخاءِ في إغماءٍ منه ، إمّا بسلب عقله ، أو بإحداثِ فعلٍ في البدن يكونُ ذلك

الفعل سبباً لراحةِ البدن ، كما قال تعالى : { وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً }[النبأ : ٩] فلما صارَ النائمُ كالميتِ في أنه لا يعقلُ وفي أن تصرفَه لا يقع على تَمييز ؛ شُبهَ بالميتِ من حيث التوفِّي على هذا الوجه ، كما وردَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " النَّوْمُ أخُو الْمَوْتِ ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ لاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَنَامُونَ " وعلى هذا الوجهِ يتأوَّل قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا }[الزمر : ٤٢] إلى آخر الآية.

وذهبَ بعضُهم إلى أن الروحَ تخرجُ من البدن في المنامِ ، ولكن لا تنقطعُ حركة النائمِ ؛ لأن نظرَ الروحِ لم ينقطع عن البدن ؛ إذ هو على العَوْدِ في كلِّ وقتٍ وفي كل ساعةٍ ؛ وقال : لا يخرجُ منه الروحُ ، وإنَّما يخرج منه الذهن.

قَوْلَهُ تَعَالىَ : { وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ } ؛ أي كسبتُم من الخيرِ والشرِّ بالنهار ، يقالُ : جَرَحَ وَاجْتَرَحَ ؛ بمعنى كَسَبَ وَاكْتسَبَ ، وأصلُ الاجْتِرَاحِ : عَمَلُ الْجَوَارِحِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } ؛ أي يُنَبهُكُمْ من نومِكم في النهار على علمٍ منه بما اجترحتُم من قبلُ وما تجترحون من بعدُ ، { لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى } أي لتبلغُوا الوقتَ المقدور الذي قدَّرهُ الله بحَيَوِيَّتِكُمْ ؛ فتنقطعُ أرزاقكُم وأعمالُكم التي تعملونَ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلَهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ } ؛ أي ثم إلى اللهِ مصيرُكم ومتقلَّبُكم بعدَ الموتِ ، { ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ أي ثم يُخْبرُكُمْ في الآخرةِ بما كنتم تعملون في الدُّنيا ؛ فيجازي كلَّ عاملٍ ما عَمِلَ.

(٠/٠)